

احسانه عبد القدوس



مفتحات المكتبة العربية

www.Tipsclub.net

Amly

وَأَهْلَتْ بَعْدَ الْعَمَلِ الطَّوِيلِ

امام محمد بن عبد الله

وتاهت بعد العمر الطويل

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

لا أب ولا أم

منذ تفتح وعيه وهو لا يزال طفلا وهو يحس بأن هذه المرأة لا يمكن أن تكون أمه رغم أنه يناديها « ماما » ورغم أنه يعتمد عليها كل الاعتماد في كل مطالب حياته حتى كان يحس بالخوف إذا ابتعدت عنه فيبكي صارخا باحثا عنها .. ويخاف إذا اقتربت منه أى امرأة أخرى لتقدم له الطعام أو لتدله .. إنه لا يعرف امرأة أخرى غيرها .. ورغم ذلك فكلما كبر أكثر اشتد إحساسه بأن هذه المرأة ليست أمه .. ربما لأنه بدأ يحس أنه ينقصه كثير من العطف والحنان الذى يجده بقية الأولاد مع أمهاتهم .. وربما لأنه بدأ يحس أنه ليس بينه وبينها أكثر من أن يعيش معها .. إنها تمده بكل ما يزوده ليستمر حيا .. ولكنها لا تعطيه شيئا أكثر .. إنها تضع الطعام فى فمه ثم تتركه فى ركن من الغرفة دون أن تهتم به ولو بكلمة .. وعندما كبر قليلا أصبحت تتركه يلعب فى الحارة دون أن تهتم بما يلعبه .. فإذا أزعجها بأى شيء أو غاب عنها قليلا فى الحارة تقابله بالضرب المبرح وهى تصيح فى وجهه .. « الله يقطعك ويقطع اللى خلفوك » ..

وبدا يفتتح وعيه أكثر ويلحظ أنه ليس بينها وبينه أى شبه .. فلونه أبيض فاقع البياض وعيناه خضراوان وشعره أصفر .. وهى داكنة السمار وعيناه سوداوان، مبلحقتان دائما وشعرها أسود ومنحول كأنها صلعاء .. ثم إنها عجوز ... لا يمكن أن تكون أما لمثل سنه .. لعلها جدته ..

ثم أين أبوه .. إنه يعلم الآن أن اسمه محمد عبد الله حامد .. أى أنه ابن عبد الله حامد .. فأين هو عبد الله حامد هذا .. ؟ إنه لم يره أبدا .. ولم يحس به حتى قبل أن يعي ما يراه .. وقد سألها مرة والكلمات لا تزال تتعثر فوق لسانه :

— أين بابا يا ماما ؟

وقالت فى حدة كأنها فوجئت بسؤال ليس من حقه أن يسأله وتلوى شفتيها كأنها تهتم أن تبصق فى وجهه :

— أبوك سافر من قبل أن تولد .. ولن يعود .. ولا أحد يدري أين سافر .. وإياك أن تسأل عنه مرة ثانية .. وإلا قطعت لسانك ..

وسكت ومن يومها لا يسأل عن أبيه .. ولم يكن يجرؤ وهو فى هذه السن أن يسأل عن أمه .. فالمفروض أنها أمه ..

وقد لاحظ منذ وعى أن هذه الأم تهتم به اهتماما بالغاً فى يوم واحد من كل شهر .. فتدخله الحمام وتحميمه ثم تصفف شعره ثم تلبسه بنطلونا وقميصا وحذاء لامعا ثم تصحبه إلى زيارة رجل فى مكتب فخم .. وتنحنى أمامه تحاول أن تقبل يده قبل أن يسحبها الرجل من أمام شفتيها .. وأصبحت بعد أن كبر محمد وهما فى زيارة هذا الرجل تصيح فيه قبل أن يدخلإ إليه :

— قبل يد سيدك يا ولد ..

فيحاول مثلها ويحاول أن يقبل اليد الممدودة إليه .. إنه رجل شاب .. كان يستقبل الطفل بعينين حانيتين كأنه يشفق عليه وكثيرا ما يربت عليه وهو يردد :

— كيف حالك يا محمد .. مبسوط مع أم عزيزة .. شد حيلك فستدخل المدرسة وأريد أن أفرح بك ..

وكان محمد يفرح بقاء هذا الرجل ويحس كأنه يريد أن يتعلق به ويقبله .. بل يحس كأنه يريد أن ييكى على كتفيه لينقذه من أم عزيزة ... أمه ولكن الرجل كان يبتعد عنه سريعا ويتبادل كلمتين مع أم عزيزة .. ثم يضع يده فى جيبه ويخرج مجموعة من الأوراق يعطيها لها .. يعطيها نقودا .. لعله هو الذى ينفق عليه .. ولكن من هو ؟ وقد سأل أمه يوما :

— من هو سيدى الذى نزوره يا ماما ؟

وقالت فى حدة كعادتها كلما ردت عليه بكلمة :

— إنه سيدى وسيدك .. وغدا تعرف فضله علينا ..

ولا تكاد تنتهى زيارة هذا الرجل حتى تخلع عنه أمه البنطلون والقميص والحذاء اللامع (وتخفيها) فى الدولاب استعدادا للشهر القادم . وتركة بالجلباب حافى القدمين يلعب فى الحارة ..

ولم تكن زيارة الرجل الشاب الذى يحبه محمد هى كل ما تصحبه إليها أمه من زيارات .. كانت خلال الشهر تصحبه فى زيارات أخرى .. وكلها زيارات فى أحياء راقية تختلف عن الحي الذى يقيم فيه .. وشوارع واسعة ليست ضيقة كحاراتهم .. ولكنها كانت تصحبه وهو بالجلباب وقدماء جافيتان .. وتدخل أى بيت وتبقى معه جالسين فى المطبخ حيناً إلى أن تدخل عليهما سيدة البيت الراقى .. ويتلقى محمد منها نظرات إشفاق .. وتمصمص شفتيها حسرة عليه .. ثم قد تنحنى عليه وتقبله .. وأخيرا تقول كلمتين لأم عزيزة وتناولها مبلغا من

المال وأحيانا تلف لها لفة كبيرة من الورق تجمع لها مختلف الأطعمة .. ويرقب محمد الصغير هذه اللفة وهو فرح .. سيأكل منها بعد أن تعود به أمه إلى البيت .. ولم تكن هذه البيوت التي يزورونها كثيرة .. ليست أكثر من ثلاثة بيوت لا تتغير — علاوة على مكتب الرجل الشاب — الذى يزورونه بعد أن تلبسه أمه القميص والبنطلون ..

وقد أصبحت أمه أو أم عزيزة مضطرة أن تلبسه القميص والبنطلون والحذاء كل يوم بعد أن أدخلته المدرسة ... وقد أحس مع مضي أيامه فى المدرسة أن زملاءه الطلبة وكلهم صغار ومعظمهم من أبناء الحى يعاملونه معاملة غريبة وكأنه شاذينهم .. إنهم دائما يسخرون منه .. ربما لأنه مختلف عنهم جميعا بلونه الأبيض الزاغ وشعره الأصفر .. ولكنهم يخصوصونه بنوع معين من الشتائم كلما تشاجر مع واحد منهم .

يصبح واحد :

— اسكت يابن ..

ويصبح آخر :

— عامل نفسك راجل .. ما تروح تدور على أصلك ..

وصاح أحدهم مرة :

— انت فاكرا أم عزيزة هي أمك .. إنها أخذتك من أمك لتشخذ

عليك ..

كلها شتائم تعبر عن موضوع واحد .. وقد ذهب مرة إلى أم عزيزة

باكيا وقال لها إن التلاميذ يقولون إنها ليست أمه ..

وأم عزيزة تعرف أن كل من يعرفها يعرف أن محمد ليس ابنها .. وهي

تحس أن محمد قد بدأ يكبر وأنه يوما ما سيعرف الحقيقة .. ثم إنها

بدأت تشيخ وخفت حديثها وصراحتها فى معاملتها هذا الولد .. فقالت له دون أن تشخط فيه أو تصفحه كعادتها :

— أمك ماتت وهى تلدك .. وأصبحت أنا ماما .. ألا تحس بأنى أمك بعد كل ما بذلته وعانيته .. الله يسامحك ..

وقد هدأ محمد وهو يسمع هذه اللهجة المستسلمة الضعيفة التى تحدثه بها أم عزيزة لأول مرة .

وقال كأنه يعتذر لها :

— أنت أمى يا ماما .. ليس لى أم غيرك .. ولكن كيف أصبحت أنت أمى ؟

وتنهدت أم عزيزة فى ضيق وقالت وقد عادت لهجتها تحتد :

— كنت أعرف أمك .. ولم أتركك فى الشارع .. حرام .. فأخذتك معى كابنى .. وفضها سيرة ..

وسكت محمد .. إنها المرة الأولى التى تعترف فيها أم عزيزة بأنها

ليست أمه .. لقد كان إحساسه الدائم صادقا .. وقد بدأ كل فكره

وإحساسه يتغير .. إنه يعيش باحثا فى خياله عن أمه وأبيه .. ولكنه بحث

لا يتعدى الخيال .. أحيانا تمر أمام عينية امرأة بيضاء وشعر رأسها أصفر

فيتصور أنها قد تكون أمه .. وأحيانا تعطف عليه امرأة شابة من نساء

الحى ويحن إليها حتى يتساءل .. لماذا لا تكون أمه ويكون قد ورث

لونه الأبيض وشعره الأصفر عن أبيه .. وربما كان أبوه أجنبيا .. خواجة

أمريكائى أو إنجليزى وضعه فى بطن أمه ثم هرب .. وهو يكره لونه

الأبيض وشعره الأصفر .. إنه يحس بهذين اللونين كأنهما العلم الذى

يرفعه الله فوق رأسه ليعلم فضيخته .. ليعلم أنه ابن حرام .. وكل هذه

الخيالات استأثرت به حتى عزلته عن الناس .. أصبح معروفا بأنه صبي منعزل لا يحدث أحدا ولا يرحب بمن يتحدث إليه .. ولكنه مع عزله كان يعرف بأنه تلميذ شاطر .. لم يكن يجد ما يريجه من خياله إلا أن يقرأ دروس المدرسة .. وكان ينجح ويتفوق في كل امتحان ..

إلى أن كبر .. أصبح في الخامسة عشرة من عمره .. وانتقل إلى المدرسة الثانوية .. ومنذ سنوات لم تعد أم عزيزة تصحبه معها في زيارة البيوت التي تشحذ منها عليه .. كانت تذهب وتشحذ وحدها ربما لأنها لم تعد تريده أن يلبس الجلاية ويذهب معها حافي القدمين .. ولكنها كانت تصحبه في أول كل شهر لزيارة الرجل صاحب المكتب الفخم .. ودائما يستقبله بهذه النظرة العطوفة والابتسامة المشفقة .. ويضع في يد أم عزيزة مبلغا من المال .. إلى أن شاخت أم عزيزة حتى سقطت يوما على فراشها لا تستطيع الحركة .. وكانت وحيدة .. إنها دائما وحيدة معه .. ولم ير أبدا أحدا يزورها ولم يعرف لها أبدا قريبا .. لا أخ ولا عم ولا ابن عم .. وكان إذا سألتها قالت إن كل من لها من أفراد عائلتها قد مات .. حتى علاقاتها مع نساء الجيران كانت دائما متباعدة فائرة .. وقد امتنع محمد عن الذهاب إلى المدرسة وجلس بجانبها وهي راقدة إلى أن قالت له يوما بصوتها المحسرج كأنها تزفر أنفاسها :

— اسمع يا محمد يا ابني .. إني سأموت .. ولن تستطيع أن تعيش بعدى إلا إذا عرفت الحكاية كلها ..

إن أمك كانت فتاة صغيرة .. أجمل فتاة رأيتها طول حياتي .. وقد حملتك في الحرام .. واحتارت وظلت حائرة إلى أن حان موعد الوضع .. وكانت قد أخفت الخبر عن عائلتها الكبيرة حتى عن أمها .. وقبل أن تضع استطاعت أن تهرب .. وكان قد التفت حولها بعض النساء من حي المطرية .. وكلهن مجرمات ساقطات .. وكنت أعرفهن وأقيم معهن في نفس الحي .. إلى أن رأيتهن وقد جئن بأمك لتلدك عندهن .. وكنت أعرف أنهن سيهددنك بك طوال العمر .. أو قد يأخذنك ليفعلن بك ما يردن .. واستطعت أن أعرف من هي أمك .. وبعد أن وضعت استطعت أن أسرقك من هاتيك النساء .. وهربت بك .. وانتظرت أياما إلى أن تركت أمك هؤلاء النسوة فحملتك إليها .. ولكنها لا تريدك .. لقد كانت سعيدة لأنك سرقت منها .. ولا تقبل أن تعود إليها .. وعندما سألتها ماذا أفعل بك .. طلبت مني أن أفعل بك ما أريد حتى لو ألقيتك في الشارع .. وأنا لا أستطيع أن ألقى بك في الشارع .. حرام على .. واستطعت أن أصل إلى أمها .. ولكنني تأكدت أن أمها كانت تعلم أن ابنتها حامل .. ولم تهتم .. وعرفت أنها وضعتك .. ولم تهتم أيضا .. إنها تركت ابنتها حرة دون أن تكون مسؤولة عن حرمتها .. إنها هي نفسها كانت حرة وكان لها حكايات بين الناس الأغنياء تنتشر حتى تصل إلى الناس الفقراء .. ورفضت هذه الأم أن تقبل حمل مسئوليتك أو حتى الاعتراف بوجودك .. إنها كابتها تدعوني أن ألقى بك في الشارع .. إلى أن أنقذك الله على يد سيدي أشرف بك الذي نذهب لزيارته كل شهر .. إنه قريب لأمك من بعيد .. وقد سمع بالحكاية صدفة .. وحاول أن يقنع أمك وستك بأن يتحملا مسئوليتك .. ولكنه

عجز .. فاتفق معى أنا على أن أحمل مسئوليتك .. على أن أكون أمك .. وهو الذى يدفع لنا ..

وقاطعها محمد قائلا وهو ينهج تحت الضربات التى تسقط على رأسه :

— هل هو أبى ؟

وقالت الأم وزفراتها ترتفع :

— لا .. أبدا .. لو كان أباك لما تخلى عنك .. ولكنه فاعل خير ..

وقال كأنه يستحلفها :

— من هو أبى ؟

وقالت زافرة :

— لا أحد يعرف من هو أبوك .. إن أمك رفضت أن تقول لأحد

اسمه .. وسيدى أشرف بك هو الذى وفر لك كل ما تحتاج إليه حتى شهادة الميلاد .. فقد استدعى رجلا كان يعمل ساعيا فى مكتبه واتفق معه على أن يكتبك باسمه فى شهادة الميلاد على أنه أبوك .. وكان اسمه حامد .. وكتب اسمى أنا على أنى أمك ..

وقال محمد وهو غارق فى الدهشة :

— إنى لا أرى هذا الرجل أبدا .. وقد قلت لى إن أبى سافر من قبل أن أولد ..

وقالت وزفيرها يضعف :

— لم أكن أمك إلا الكذب عليك .. وقد كانت كل مهمة هذا الساعى ان يكتبك باسمه فى شهادة الميلاد ورفض أن يكتب اسم زوجته مع اسمه على اعتبار أنها أمك .. كان يقول إنه لا يريد أن يحمل

زوجته وزر أولاد الحرام خوفا على أولاده .. فتحايلوا وكتبوا اسمى .. وبعد ذلك لم يحاول أن يراك .. بل إنه لم يرك أبدا .. ولا أعلم هل مات أم لا يزال حيا ..

وقال محمد وخياله يعصف به :

— وما اسم أمى ؟

وقالت أم عزيزة :

— اسمها ست سوسن ..

وقال محمد فى غيظ :

— ما اسم أهلها .. وأين تقيم .. ؟

وقالت أم عزيزة وجفناها يرتحيان فوق عينيها :

— إنها من عائلة البرموني .. وكانت تقيم فى قصر النيل بجانب مستشفى قصر العيني .. ولا أدري أين تقيم الآن .. إنها منذ تركتك لى لم تسأل عنك ولا عنى ..

وسرح محمد مع خياله الذى يعصف به .. إلى أن استطردت أم عزيزة وكأنها تلفظ أنفاسها :

— إنى أموت .. وقد حكيت لك الحكاية حتى تدبر حالك .. وقد أعطيت جارتنا أم محروس عشرة جنيهات مصاريف الدفن .. دفنى .. وتحت رأسى عشرة جنيهات أخرى لك .. وادع لى يا ابنى .. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

وماتت أم عزيزة ..

وألقى محمد رأسه على صدرها يبكى .. ثم أفاق وهو مذهول كأنه لأول مرة يرى الحياة وحده .. ومد يده تحت الرأس الميت والتقط

الجنهات العشرة ووضعها بسرعة في جيبه كأنه يخفيها ويخشى أن يراها أحد معه .. ولكنه يعتقد أن أم عزيزة كانت تملك أموالا كثيرة .. وقد رآها تجمع هذه الأموال في داخل الشلثة الملقاة على الأرض وكانت تجلس عليها .. واندفع إلى الشلثة ومزق غطاءها .. ولم يجد فيها شيئا .. لعلها أرسلت ما كانت تملكه وما جمعته من الشحاذة عليه إلى ابنتها عزيزة التي لم يرها أبدا وكانت تقول له إنها تقيم في الصعيد .. غفر الله لك يا أم عزيزة ..

وخرج ليلبع الخبر إلى أم محروس .. وبقي معها إلى أن دفنت أم عزيزة في إحدى مقابر الفقراء .. وقد تقدم بعض أهل الحي لتعزيته ببعض كلمات ولكن أحدا لم يكن يسأل عن مصيره ولا أحد حاول أن يخفف عنه مصيبته .. إن أم عزيزة كانت تعيش بين أهل الحارة كالوهم .. كالعفريت .. يرونها ولا يعرفونها ..

وقضى ليلته وحده لأول مرة وهو يفكر في مصيره .. لا يجب أن يستسلم للقدر .. يجب أن يعمل .. أن يتحرك .. لعله يجب أن يبدأ بزيارة أشرف بك ليعرف مصيره معه .. ونحن في أول الشهر كما تعودت أن تزوره أم عزيزة ..

واستقبله أشرف بك بنظراته العطوفة المشفقة وقال له فورا :

— أين ماما ؟

وقال محمد في أسى واقعى يضح بحيرته :

— ماتت ..

واتسعت عينا أشرف بك كأنه فوجئ أكثر معا حزن وقال هامسا :

— الله يرحمها ..

ثم سكت قليلا كأنه يفكر ومحمد واقف أمامه كأنه في انتظار سماع الحكم .. إلى أن قال أشرف :

— الموضوع الآن هو تدبير حياتك .. هل تستطيع أن تقيم في نفس البيت أم هل لديك مشروع آخر .. ؟
وقال محمد وكأنه يهم بالبكاء :

— الأمر أمرك يا سيدى .. لقد كانت المرحومة ماما تحدثنى كثيرا عن فضلك علينا ..

قالها وهو يمتنى ألا يتركه أشرف يقيم في نفس الحارة .. إنه يريد أن يهرب بشعره الأشقر ولونه الأبيض من هذه الحارة التي عاش فيها منعزلا عن خياله ..

وعاد أشرف وفكر قليلا ثم قال من خلال ابتسامة حزينة مشفقة :

— من الأفضل نقلك إلى مكان آخر حتى تكون قريبا منى ..

ثم ضغط على أحد الأجراس الموضوعة فوق مكتبه ، وقال للساعي الذى دخل إليه :

— نادى أسطى عباس السائق ..

ثم قال بعد أن جاء إليه أسطى عباس :

— لقد قلت لى إن أحاك استأجر عدة شقق أقام منها بنسبونات .. اطلب منه أن يخلي منها حجرة حالا ليقيم فيها ابنتا محمد حامد .. لقد توفيت أم عزيزة الله يرحمها .. وكن مع محمد إلى أن يستقر في المكان الذى تعد له .. وقل لأخيك إن الحساب على المكتب ..

وانحنى محمد يحاول أن يقبل يد أشرف كما عودته أم عزيزة ..

ووضع أشرف في يده مبلغا من المال وهو يقول له فى عطف :

— إنك الآن أصبحت مسئولا عن نفسك .. وسأتبع أخبارك دائما .. وتأتي إلى كلما احتجت شيئا ..
وتركه يخرج مع الأسطى عباس .. وغافل الأسطى عباس ونظر إلى المبلغ الذى وضعه أشرف فى يده .. إنه مبلغ كبير .. خمسون جنيها .. هل كان كريما هكذا دائما مع أم عزيزة .. ؟ .. الله يسامحك يا أم عزيزة ..

* * *

وبدأت حياة محمد تتغير منذ بدأ يقيم فى بنسبون بحى باب اللوق .. أحس كأنه سافر إلى بلد آخر غير البلد الذى كان يقيم فيه .. بلد الحارة .. على الأقل تحرر من عقدة لونه الأبيض وشعره الأشقر .. إن هذا الحى يضم كل الألوان ويسكنه كثير من من الأجانب الخواجات فلا يبدو بينهم شاذا بلونه الأبيض وشعره الأشقر ..
ومنذ اليوم الأول وجد نفسه يسير حول مستشفى قصر العيني باحثا عن بيت أمه التى قالت له أم عزيزة إنها كانت تقيم فيه .. بيت البرمونى .. إن عائلة البرمونى عائلة قديمة كانت من أغنى العائلات وكانت تملك أكبر المحال التجارية فى مصر .. وإن كانت قيمتها قد بدأت تهبط منذ سنوات .. وهو نفسه كان يسمع اسم البرمونى منذ كان فى الحارة .. وكان أى أب يريد أن يتباهى بما وهبه الله يقول لابنه كأنه يعبده بالجنة غدا أشتري لك من البرمونى ..

وقد عرف بعد أن بحث فى حى قصر العيني أن هذا هو بيت البرمونى .. بيت كبير مظل على النيل وإن كان قد بدأ القدم والإهمال يكسوونه .. وقد عرف أن العائلة لا تزال فيه أو على الأقل بعض من أفراد

العائلة .. وظل أيامها يذهب ويقف من بعيد يرقب من يدخل هذا البيت .. لعله يرى أمه .. لعله يعرفها بمجرد رؤياها من بعيد .. لا .. إنه لا يريد أن يرى أمه .. إنه لا يحس بإحساس من يبحث عن أمه وهو يرقب باب هذا البيت .. ولكنه يريد أن يرى هذه المرأة التى أنجبته .. يريد أن يرى أهله .. إنه يجرى وراء قصته لا وراء عواطفه .. عواطف ابن يبحث عن أمه .. فقط يريد أن يرى هذه المرأة التى بدأت بها قصته .. ومرت أيام .. إلى أن رأى امرأة تخرج من القصر .. وفغراه دهشة .. إنها لاشك أمه .. إن وجهه كما يعرفه صورة من وجهها .. اللون الأبيض الفاقع .. والشعر الأشقر .. والعينان الخضراوان .. ولكن لعل أنفه أكبر من أنفها قليلا .. ربما كان قد أخذ أنفه عن أنف أبيه .. وظلت عيناه مبجلتين فيها من بعيد إلى أن ركبت سيارة كانت قد جاءت لتأخذها واقرب بعد أن اختفت من البواب العجوز الجالس أمام البيت وقال له فى رعدة :

— هل هى سوسن هانم ؟

وصرخ البواب فى وجهه :

— مالك ومال سوسن هانم ؟

وقال محمد برعشته التى ألهمته الكذب :

— إنها صديقة لأمى ..

وقال البواب وهو يلوى شفثيه كأنه يبصق :

— احمد الله على أمك .. واغرب عن وجهى ..

وابتعد محمد وهو يسأل نفسه .. ماذا يفعل بعد أن رأى هذه المرأة .. هل يلقي نفسه عليها ويقول لها إنه ابنها .. ولكنها تنكره منذ

نزل من بطنها .. وليس لديه إثبات أو حتى يعرف شاهدا على أنه ابنها .. وقد تطرده أو تسلمه للبليس بمجرد أن تراه .. لا يمكن أن ينتظر منها أى إحساس بأمومتها .. نحوه .. إنهم يقولون إن الأمومة غريزة من غرائز المرأة .. كغريزة الأكل والشرب التى تدفع الإنسان إلى التمسك بالحياة .. ولكن أين هى غريزة الأمومة فى هذه المرأة .. لقد ألقته فى الشارع بمجرد أن ولدته كأنها تلقى فضلاتها .. ثم ما حاجته الآن إلى أم .. إنه والحمد لله يعيش بلا حاجة إلى أم .. وهى قد قلبت حياته إذا اقترب منها حتى يضيع كل ما يعيش به ..

واتخذ بينه وبين نفسه قرارا بالآب يبحث عن أمه .. وأن يقنع نفسه بأنه ابن أم عزيزة .. لقد كانت أمه فعلا .. ورغم ذلك لم يكن يستطيع أن يمر أمام هذا البيت القديم دون أن يشد لمحاته إليه . ولا يستطيع أن يتجاهل ما يصل إليه من أخبار عائلة البرمونى .

وفى نفس الوقت قرر ألا يقول لأشرف بك إن أم عزيزة حكمت له حكايته .. إن أشرف رغم عطفه وحنانه مستمر فى معاملته على أنه ابن أم عزيزة وإن كان لا يذكرها أمامه .. ولم يحاول أن يقربه إليه أكثر .. ولم يحاول مرة أن يدعو إلى بيته ليعرفه بأولاده وهو يعلم أنه يعيش وحيدا بلا أم ولا أب .. لعل أشرف لا يحاول أن يقربه إليه أكثر حتى لا يتهم وتثور الإشاعات حوله بأنه أبوه .. وربما لو قال له إن أم عزيزة حكمت له الحكاية لأبعده عنه أكثر حتى لا يشغله بإعادة إحياء الفضيحة .. الجريمة التى ارتكبت فى حقه .. وقرر أن يبقى بالنسبة له كما كان أيام أم عزيزة ..

وقد حاول محاولة أخرى .. وهى أن يجد هذا الرجل الذى نسب إليه باسمه .. لقد قالت له أم عزيزة إنه كان يعمل ساعيا فى مكتب أشرف بك .. ولكنه لم يجد فى المكتب ساعيا يحمل هذا الاسم لعله مات أو طرد من خدمة المكتب ..

وظل محمد كما هو يعيش حياته متباعدة عن الناس .. وليس له أصدقاء وإن كان قد أصبح لا يرفض المعارف .. أصبح أكثر جرأة على مكالمة الناس بعد أن عرف أن له أصلا .. حتى لو كان ابن حرام .. أصبح يحس بنفسه كأنه ضحية من ضحايا جريمة لا ذنب له فيها .. إنه شهيد من شهداء المجتمع المصرى .. وقد زاده هذا الاحساس بذكاء أقوى .. وقرارات أصوب .. فكان يستطيع أن يدير حياته وهو يعيش فى البنسيون وحده دون أن يزعج أحدا .. وفى كل شهر يذهب إلى أشرف بك ويأخذ مصروفه وإن كان لم يعد يحاول أن يقبل يده كما عودته أم عزيزة .. إنه يحس الآن بهذا المصروف الذى يأخذه من أشرف كأنه حق له .. لقد قالت له أم عزيزة إن أشرف بك من عائلة أمه فهو إلى حد ما مسئول عنه .. وأكثر من ذلك إنه يزداد تفوقا فى المدرسة حتى مرت السنوات وحصل على شهادة الثانوية العامة بأعلى تقدير ..

وعندما ذهب إلى أشرف بك فرح به فرحة صادقة وقال :

— أى كلية اخترتها لتبدأ دراستك الجامعية .. ؟ ..

وقال محمد وهو متعمد أن يحتفظ بوضعه بالنسبة له :

— تحت أمرك يا سيدى ..

وقال له أشرف بك وهو يقوم ويربت على كتفيه تعبيراً عن فرحته :

— إنه ليس أمرى ولكنه أمرك الذى يفرضه استعدادك وهو ابتك ..

(٣ م — وتاهت ..)

وقال محمد وهو يتصور أن أشرف بك سيختار له دراسة تصلح لأن تجعل منه موظفا في مكتبه وهو مكتب تصدير واستيراد .. قال وهو يحنى رأسه كأنه يحدث السلطان .. سلطان حياته :

— كنت أفكر يا سيدى فى الالتحاق بكلية الهندسة ..
وقال أشرف ضاحكا ..

— إذن الهندسة ..

ومد يده وأعطاه مبلغا كبيرا مكافأة على نجاحه .. مائة جنيه ..
وانحنى محمد يحاول تقبيل يده وهو يقول :

— أبقاك الله يا سيدى ..

وشد أشرف يده قبل أن تصل إلى شفتيه وهو يقول ضاحكا :

— لا تحاول أبدا من اليوم تقبيل يد أحد .. ولا أنا .. ثم لا تستعمل كلمة سيدى أبدا .. لا أحد سيدا لك .. ونادنى باسمى .. إني اعتبرك منذ اليوم يا باشمهندس ..

وازداد محمد اعترافا بفضل وكرم أشرف بك ولو أنه ظل حريصا على أن يجعله محسنا يشفق عليه ولا واحدا من أفراد العائلة يعطيه حقه .. إن أشرف لا يعلم أنه يعرف الحكاية ..

ومرت السنوات وهو متفوق أيضا فى كلية الهندسة وتخرج من الأوائل حتى عرض عليه أن يعين معيدا وقال لأشرف وهو يحيطه بفرحته :

— لن أكتفى بأن أدرس فى الجامعة أريد أن أزاو الهندسة يا أشرف بك ..

وقال أشرف ضاحكا :

— سأخصص لك مكتبا فى مكتبى .. وسأجعل كل من فى حاجة إلى الهندسة يمر عليك ..

ولكن كل ذلك دون أن يقدمه أكثر إليه .. إنه لم يدعه أبدا إلى بيته ولم يعرفه بأولاده حتى بعد أن أصبح مهندسا ومعيدا فى الجامعة .. لعله لا يستطيع أن ينسى حكايته .. لا يستطيع أن ينسى أنه ابن حرام من بنت ساقطة من بنات العائلة ..

وقد أصبح محمد سعيدا فى الجامعة وقدمه أشرف إلى كثير من أصحاب الشركات الهندسية الكبيرة وأصبحوا يشركونه معهم فى العمليات الهندسية .. إن دخله يرتفع .. حتى إنه قال مرة لأشرف :

— إنى أتمنى أن تكلفنى مرة بعمل لك حتى أرد بعض فضلك على .. إنك أنت الذى صنعتى ..
وقال أشرف بلهجته الحنونة :

— لا أحد يصنع الآخر .. أنت الذى صنعت نفسك .. واسمع .. إن لى صديقا يحاول منذ ثلاث سنوات أن يبنى بيتا كبيرا له .. ويكاد يجن أمام متاعب المقاولين .. وقد قلت له إنى سأرسل له مهندسا أعرفه سيغنيه عن كل المقاولين وعن كل المتاعب .. وكنت أقصدك أنت .. فهل تقبل ؟

وقال محمد سعيدا :

— طبعاً أقبل .. وسأعمل لك لا لصديقك ..

وقال أشرف وقد عاد إلى طبيعة رجال الأعمال :

— بكم يخرج المقاول من العملية التى يقوم بها .. ؟ ..

وقال محمد :

— أعتقد أنه يحصل على عشرة في المائة من ميزانية المشروع كأتعاب له ..

وقال أشرف في جدية :

— سأطلب من صديقي أن يخصص لك عشرين في المائة .. فإنك تنقذه من متاعب تكلفه أكثر .. بشرط ألا تأخذ إلا أتعاب ما يتم تنفيذه .. موافق ..

وقال محمد مبتسما :

— موافق طبعاً ..

وبذل محمد كل جهده وكل تجاربه وكل ذكائه في بناء هذا البيت حتى إنه استقال من مركزه كمعيد للجامعة ليتفرغ له .. وانتهى إلى بناء تحفة يدهش لها الناس ..

واشتهر محمد كمهندس تنفيذي .. ولم يعد أحد يفكر في البحث عن أصله وفصله .. ابن من ومن أى عائلة .. يكفي أنه الباشمهندس محمد حامد .. ولم يعد يعتمد على أشرف بك في أى شيء .. ولكنه ظل مواظباً على زيارته .. على الأقل في كل شهر مرة .. وكان أشرف يستقبله دائماً بفرحته وعطفه وحنانه حتى إنه أقام له المكتب الجديد الواسع الذى كان فى حاجة له .. مكتب الباشمهندس محمد حامد .. ولكنه دائماً كان يحصر الحديث بينهما فى دواعى العمل .. ولم يحاول أبداً أن يقيم بينهما علاقة أقرب .. ولم يكن يسأله أبداً عن حياته الخاصة .. لم يحاول مثلاً أن يسأله لماذا لم يتزوج حتى الآن .. ؟ أو يحرضه على الزواج .. إن أشرف مكتف بأن يعرف عنه أنه مهندس

عبقري اسمه محمد حامد .. ربما لا يزال يخشى أن يقال عنه إنه أبوه مادام محمد لا يعرف له أباً ..

وأصبح محمد فى حوالى الخامسة والثلاثين .. ونجاحه وشهرته أكبر من عمره .. وفوجئ يوماً ما فى مكتبه بسكرتيره يدخل إليه ليبلغه أن سيدة تطلب لقاءه واسمها .. سوسن هانم البرمونى .. وفوجئ .. إنه لا ينسى أبداً هذا الاسم .. إنه اسم يعيش معه كما يعيش اسم أم عزيزة .. واسم حامد .. إنه اسم أمه .. وتردد قليلاً ثم قال للسكرتير : — دعها تتفضل ..

وجلس إلى مكتبه وهو يحس أنه فى حاجة لأن يكون شخصية أخرى .. وراها .. إنه لم يرها إلا مرة واحدة .. إنها أصبحت عموزاً .. ربما تبدو أكبر من سنها .. فالخطوط على جبينها وتحت عينيها .. يقال إن العجز يبدو مع اللون الأبيض أكثر مما يبدو على اللون الأسمر .. لعل العجز سيبدو سريعاً عليه أيضاً فقد ورث اللون الأبيض عنها .. ووقف يستقبلها استقبالا فاتراً كأنه يعتمد أن يؤكد لها أنه لا يعرفها ولم يسمع باسمها .. وأشار لها إلى مقعد لتجلس عليه .. وجلست وهى تبالحق فيه بكل عينيها .. ثم قالت فى صوت متهدج : — إنك لا تعرفنى .. ولكنى أعرفك منذ ولدت وتبعتك فى كل يوم من حياتك .. إنى أملك يا محمد .. هل أحكى لك الحكاية .. ؟

وظل محمد ساكناً لا ينطق وهو يفكر ماذا يفعل بها ؟ وكأنه يقاوم ضعفه .. واستطردت الأم قائلة وكأنها ظنت أن صمته معناه أنه يريد أن يسمعها :

— إنى يوم ولدتك كنت على وشك أن أقتل نفسى حتى لا أتخلص منك .. ولكنى وجدت الطريق الذى ينقذنا نحن الاثنين .. ينقذك بأن أحرم نفسى منك وأحرمك منى .. وأبوك تخلى عنا نحن الاثنين .. هل تعرف أباك .. ؟ .. إنه لا يزال حيا ومعروفا ..
وصاح محمد مقاطعا :

— اسمعى أيتها السيدة .. إنى أسمع عنك وعن عائلتك .. وأسمع أنكم أصبحتم فى حالة صعبة .. وإذا كنت فى حاجة إلى مساعدة فلست فى حاجة لأن تتكرى حكاية كاذبة حتى أشفق عليك .. سأشفق عليك بلا حكاية .. وأساعدك .. سأخصص لك مبلغا كل شهر كزكاة عن نفسى .. ولكنى لا أريد أن أراك مرة ثانية .. ستصلك الزكاة حيث أنت ..

وحاولت سوسن أن تتكلم فصاح فيها وهو يضغط على الجرس يستدعى السكرتير :

— أرجوك .. لا أريد أن أسمع كلمة ..
ودخل السكرتير وقال له فى لهجة جدية :
— خذ عنوان هذه السيدة وطريقة الاتصال بها ..
ثم قام واقفا ومد يده يصفحها فى برود وبكلمة واحدة ..
— مع السلامة ..

وانهمرت دموعها .. وكأنها كانت تهم بكاء طويل حتى تحن قلبه عليها .. على أمه .. ولكن السكرتير شدها من ذراعها وخرج بها .. لقد طردها يوم جاءت إليه . كما طرده يوم جاء إليها .. يوم ولدته .. إنه لم يعد فى حاجة إلى أم بعد أن عاش حياته كلها بلا أم .. وليس فى

حاجة أيضا إلى الأب الذى همت أمه أن تقول له اسمه .. لقد عاش حياته بلا أب ولا أم .. هو الذى ولد نفسه .. ولد الباشمهندس الناجح محمد حامد ..

ولكنه من يومها وهو حريص على أن يمدّها بالمال كل شهر .. ويمدّها بمبلغ كبير .. ربما يرد بعض كرم أشرف بك عليه .. ولعله كان كريما عليها إلى هذا الحد لا لمجرد الزكاة عن نفسه ولكن خوفا من أن تضطر أن تحكى الحكاية وتطوف على الناس تشحذ باسمه كما كانت تشحذ عليه أم عزيزة ..

ولكنه لا يراها ..

لا يريد أن يراها ..

إلى أن أصبحت تعيش الخوف

إنها لا تعيش فى عائلة فقيرة ولكنها أيضا ليست عائلة غنية .. إن والدها موظف محترم وصل إلى درجة مدير عام ومرتبته يقارب المائة جنيه فى الشهر كما أن له دخلا بسيطا من قطعة أرض زراعية صغيرة يملكها هو وعائلته فى القرية .. دخل لا يزيد عن ألف جنيه فى العام .. وكان يمكن بمرتبه ودخله أن يوفر حياة كاملة مريحة لعائلة صغيرة .. ولكنه لم يحرص على أن تكون عائلته صغيرة .. لقد أصبحت عائلة كبيرة مزدحمة بسبعة من فلذات أكباد .. أربعة أولاد وثلاث بنات .. وهو حريص على أن يوفر لأولاده وبناته كل ما يستطيعه من مطالب الحياة .. وهو لا يستطيع إلا الضرورى جدا من هذه المطالب .. وأهم الضروريات فى تقديره هو أن يستكمل كل منهم تعليمه .. ونفقات التعليم كانت دائما على رأس النفقات التى يحسب حسابها مهما أخذت من باقى النفقات .. والتعليم ليس مجانيا كما يقال .. إنه يكلف العائلة الآن بمطالبه الفرعية ضعف ما كان يكلفها أيام زمان قبل أن يقال إن التعليم أصبح مجانيا .. وهو يعانى ويشكو دائما من مطالب العائلة .. وربما كان عيبه أنه ليس رجلا مغامرا يستطيع أن يفكر ويقدم على الوسائل التى يقدم عليها أغلبية الرجال للحصول على دخل أكبر .. إنه رجل شريف وموظف أمين مستسلم لما خصه القدر به .. بل إنه لا يحاول أبدا أن يناقش أخاه الأكبر فى دخل الأرض الزراعية .. كأنه يأخذ نصيبه من هذا الدخل كهبة منه لا يحق ثابت يجب أن يطمئن على

استيفائه .. وحتى لو كان يثق فى أخيه إلى هذا الحد فهو لا يحاول أن يفكر فى مشروع جديد يزيد من دخل هذه الأرض .. كمشروع لتربية البهائم أو إنشاء حظيرة دجاج لاستدراار البيض وبيعه وتحقيق مكاسبه الهائلة .. أبدا .. إنه شريف أمين مستسلم لما يخصه به القدر .. لذلك ابتعدت العائلة عن مستوى الأغنياء وأصبحت قرية من مستوى الفقراء أو على الأقل فى مستوى العائلات العادية ..

وخديجة منذ تفتحت مع الحياة وهى تختلف عن إخوتها فى عدم الاستسلام لنصيبها من الحياة التى تعيشها العائلة .. إنها تنطلع إلى كل ما فى الحياة .. وتحاول أن تصل إلى كل ما تريد أن تصل إليه على الأقل للتجربة .. وهى تجد الحياة فى الشارع لا فى البيت .. وتجدها مع شلل الصديقات لا مع أفراد العائلة .. وعندما شبت قليلا أصبحت تمتع نفسها بصحبة الشبان .. لماذا لا تصاحبهم .. إنهم يعطونها من الحياة أكثر مما تعطىها الصديقات من البنات .. ولن يأخذوا منها شيئا إلا ما تقرر هى أن تعطيه .. وهى منذ البداية وهى تعلم ماذا يحاول الشاب أن يأخذه من البنت .. ولم يستطع أحد أبدا أن يأخذ منها ما حاول أن يأخذه .. وعلى كل حال فهى تعلم أنها ليست جميلة جمالا زاعقا تخدشه لمسة حتى لو كانت لمسة شفاء .. ولكنها تعلم عن نفسها أنها جذابة وخفيفة الدم وأنها ذكية فى استغلال جاذبيتها وخفة دمها .. إنها تستطيع دائما أن تحتفظ وتسيطر على كل ما تريد من كل صديق سواء كان فتى أو فتاة .. إلى هذا الحد كانت تثقتها بنفسها .. إلى حد الغرور ..

ورغم إصرارها على احتفاظها بحريتها في تحقيق كل ما تريد إلا أنها تحاول دائما الاحتفاظ بالمظاهر التي ترضى عائلتها .. فلا تتأخر كثيرا في البقاء خارج البيت .. أو تتبكر عذرا قويا مقنعا إذا تأخرت .. وتتعمد إخفاء شخصيتها الحرة عن أمها وكل إخوتها .. ورغم ذلك فليس في البيت أحد راض عنها .. والثورة عليها لا تتوقف .. وأمها تضربها أحيانا .. وأخوها الكبير ضربه مرة .. أما والدها فهو لا يعلم شيئا عنها إلا ما تكلفه من نفقات .. وهم كلهم حريصون على أن يخفوا عن أيهم كل شيء .. احتراماً له والدافع الأقوى هو الإشفاق عليه من أن يحملوه أيضا بلاويهم وخصوصاً بلاوى خديجة .. لقد أصبحوا يعتبرونها شاذة مجنونة ويشفقون على الأب من أن يعرف أن له ابنة مجنونة ..

وكان أخوها محمود الذي يكبرها مباشرة بين إخوتها الأربعة يبدو أنه يؤمن مثلها بحقه في الانطلاق إلى الحياة الأوسع .. وكان يثير في العائلة نفس نوع المشاكل التي تثيرها .. ويعتبرونه هو الآخر شاذاً مجنوناً مثلها .. وكان أقرب من في العائلة إليها .. كانت تتراح إليه عندما تجلس إليه يتبادلان الآراء في الحياة كلها .. وكانت تصارحه ببعض ما يحدث لها مع الذين تعرفهم من الصديقات والأصدقاء .. ولكنها طبعاً لا تصارحه بكل شيء .. وهما متفقان على أن الحرية هي حق للأبناء .. إن الأبناء في الدول المتحضرة وصلت حريتهم إلى حد أن أصبح من حق كل منهم أن يهجر العائلة ويعيش مستقلاً عندما يصل الواحد منهم إلى السادسة عشرة من عمره .. وهم لا يفكرون في هجرة العائلة .. بل إنها وأخاها محمود يؤمنان بأن الحرية محدودة بالحرص

على العائلة وعدم تعريضها لما يمسها .. وكان أخوها يقول لها : — إني حر مادمت لا أؤذى بحريتي أحداً .. ومادمت لا أكون أنا الخاسر بهذه الحرية .. ومادمت لا أجعل العائلة تهتم بي .. إني أعلم أنني إذا اتهمت فسيهتّم بي أبى وأمى وكل إخوتى .. ولذلك لا أترك نفسي لأى اتهام حتى لو كان مجرد اتهام خلقى .. ثم أنا حر مادمت أُنجح في امتحان المدرسة كل عام ..

وكانت خديجة رغم كل هذه الحرية التي تتحدى بها تقاليد عائلتها تنجح في كل امتحان .. وتنجح بتفوق .. إلى أن وصلت إلى الجامعة وهي التي اختارت كلية التجارة .. أى لم تلتحق بها بحكم المجموع الذي حصلت عليه في الثانوية العامة ولكن لأن هي التي اختارتها فقد كانت تتصور أن الحياة كلها هي سوق كبيرة لا ينجح في الحصول على شيء منها إلا التاجر الشاطر .. حتى الحب .. إنه سوق واسعة لا ينجح فيها إلا من يستطيع أن يحسب حساب المكسب والخسارة وهو يتاجر بعواطفه ..

وفرضت خديجة شخصيتها في كلية التجارة .. أصبحت طالبة معروفة .. وحيويتها المتدفقة تثير حولها آراء متعارضة .. البعض يعتبرها فتاة نشطة والبعض يعتبرها فتاة منحلة .. والبعض يعتبرها خفيفة الدم والبعض يعتبرها وقحة .. والبعض يعتبرها جذابة والبعض يعتبرها منفرة .. وهي لا تهتم بما يقال عنها .. كل ما يهيمها هو الإقبال على الحياة لتجربة كل ما فيها .. فانضمت إلى كل الجمعيات التي تتكون بين الطلبة فقط لتجرب وتمتع نفسها بالتجربة .. وصادقت الكثير من الطالبات لمجرد تجربة كل منهن وما تستطيع أن تكسبه من صداقتها ..

كما صادقت كثيرا من الطلبة حتى أصبح من الصعب الحكم عليها .. هل هي لواحد منهم أم هي للجميع .. وكانت تستغل هذه الصداقة .. إن مدحت يحملها معظم الأيام في سيارته ويصل بها إلى قرب بيتها .. ويأسر يدعوها كثيرا إلى الاشتراك في رحلات جماعية خاصة يقوم بها الأصدقاء إلى الهرم أو إلى القناطر الخيرية أو إلى الإسكندرية .. وهو الذى يدفع قيمة الاشتراك .. وكثير من الأصدقاء كل منهم يقدم شيئا .. وكل منهم يريد أيضا أن يأخذ منها نظير ما قدمه .. قد يكتفى البعض بخفة دمها التى تعتمد أن تبذلها بمجرد وجودها معهم .. ولكن البعض يحاول المزيد .. ولم يصل أبدا أحد إلى المزيد الذى يحاوله .. وكان مصطفى من أقرب أصدقائها وكانت تعتمد عليه كثيرا خصوصا فى مراجعة المواد الدراسية .. وعندما عجز عن الوصول إلى المزيد مما يأخذه منها .. قال يفاجئها :

— سأخطبك ..

قالت ضاحكة :

— وسأخطبك أنا أيضا ..

قال جادا :

— متى أتقدم إلى العائلة ..

وردت من خلال ضحكها :

— لو عرفت العائلة فلن تخطبنى .. من مصلحتك ألا تعرفها ..

وقال محتدا :

— ماذا أفعل حتى أخطبك ونعلن خطوبتنا ..

وقالت وهي تخفف من حدته بابتسامتها :

— ما هي الخطوبة ؟ .. إنها صداقة معلنة ..

وصداقتنا معلنة ومعروفة بين كل طلبة الجامعة ..

وقال وهو لا يزال محتدا :

— الخطوبة هي صداقة شرعية وتعطينى حقوقا شرعية عليك ..

وقالت ضاحكة :

— هل تصل بنا الخطوبة إلى المحاكم الشرعية .. إذن الصداقة غير

الشرعية أفضل .. ولنكتفى بالصداقة إلى أن نتخرج وبعدها يحلها

حلال ..

وهكذا كانت دائما مع كل من يحاول أن يعطيه من نفسها أكثر ..

لا تستجيب لأحد ولا تخسر أحدا .. ولا تعطى أكثر مما تريد أن

تسمح به .. وهي لا تسمح بأكثر من اللمسات وإن كانت تضطر أحيانا

إلى الاستسلام للمسات الشفاه ..

إلى أن بدأت الحكاية ..

كانت قد تركت الكلية وذهبت سيرا على الأقدام إلى كافيتريا

هيلتون حيث تعودت أن تلتقى بشلة من الطلبة الأغنياء يصحبون معهم

بعض الطالبات .. إنها تقضى بينهم وقتا ممتعا دون أن تتكلف شيئا ..

ولكنها لم تجد أحدا منهم .. ربما تأخرت عليهم فذهبوا فى جولة من

الجولات التى تعودوها كل يوم .. ورغم ذلك جلست وحدها على

مائدة دون أن تطلب لنفسها شيئا .. ليس معها ما يكفى ثمنا لطلب من

كافيتريا هيلتون واعتذرت للجرسون الذى تقدم إليها بأنها فى انتظار

أصدقاء .. وبعد لحظات رأت شابا وسيما يجلس إلى المائدة المجاورة

وينظر إليها .. وعندما التقت عيناها بعينه فوجئت به يبتسم لها .. وبلا

تفكير منها ردت ابتسامته بابتسامتها منها .. يبدو عليه أنه أجنبي .. وبعد عدة لمحات تأكدت من أنه أجنبي .. ويبدو عليه أنه مهذب .. فابتسامته ونظراته مترددة كأنه يخجل من أن يطلقها .. أو كأن ليس من عادته البصبة للبنات والتجروء عليهن .. وبطبيعتها المندفعة قامت من أمام مائدتها واقتربت منه قائلة في بساطة :

— هل تتكلم الإنجليزية ..

إنها تجيد الإنجليزية وقد رد عليها بإنجليزية مفككة وهو يقوم واقفا احتراماً وترحيباً بها :

— نعم .. أستطيع أن أتكلم الإنجليزية .. ولكن بصعوبة ..

وجلست على مقعد من مقاعد مائدته وهي تقول في بساطة كأنها تعرفه من زمن طويل :

— اجلس ..

وجلس مستسلماً وابتسامته تتسع .. وبدأ بينهما حديث طويل .. وعرفت أنه من يوغسلافيا وأنه مهندس جاء مع شركة ألمانية تعمل في مصر .. وتأكدت أنه فعلاً شاب مهذب .. فرغم حديثها الطويل فهو لا يطلب منها شيئاً يمكن أن ترفضه وإن كانت تلمح في نظراته وفي تردده أحياناً كأنه في انتظار شيء .. ماذا ينتظر .. ربما كان يعتبرها من بنات المقاهي اللاتي يجلسن في انتظار الزبائن وخصوصاً من السواح الأجانب .. ورغم أنها قالت له إنها طالبة في الجامعة ومن كلية التجارة فقد لا يكون قد صدقها أو لم يعتبر أن هذا سبب كاف ليحرم مما يريد منها ، فإن معظم هذا النوع من بنات المقاهي يدعين أنهن طالبات في الجامعة .. وقد يكون قد صادف قبلها واحدة منهن .. وقد أبعدت هذا

الخاطر عن فكرها واستمرت تطيل الحديث معه .. وهي تحس بنوع جديد من السعادة وهي بجانبه .. تحس كأنها تركت مصر كلها وأصبحت في أوروبا .. في يوغسلافيا .. إن كلا منهما يحدث الآخر عن بلده .. وهي تحس بعد أن أبعدتها خواطرها عن مصر بمزيد من حرية الانطلاق والتحرر من القيود والتقاليد المتعبة التي تفرضها عليها عائلتها ومجتمع طلبة الجامعة ..

واستمر الحديث حتى عرض عليها أن يبدأ في تناول الغذاء .. وقبلت فرحة وتولت هي الاتفاق مع الجرسون على ما تطلبه له ولها .. كأنها هي المسئولة عنه .. وحتى عندما بدأ يدفع الحساب تولت هي مراجعة الجرسون ثم أخذت النقود من يد تيتو ودفعت هي ولوى الجرسون شفتيه احتقاراً عندما رأى قيمة البقشيش الذي أعطته له .. إنها لا تفرق بين قيمة البقشيش التي يمكن أن تدفعه هي والبقشيش الذي يمكن أن يدفعه سائح من السواح .. وبعد الغذاء أقنعت به بأن يقوموا معا ويسيرا في الشارع المطل على النيل .. وربما قبل أن يقوم معها اعتقاداً منه أنها ستصحبه إلى فراشها كما تعودت بنات المقاهي .. ولكنها سارت به يطلان على النيل فترة طويلة وهي قادرة على ألا يتوقف بينهما الحديث الممتع .. إلى أن استأذنته في أنها يجب أن تتركه لأن تقاليد العائلة لا تسمح لها بأن تتأخر عن البيت أكثر من ذلك واستسلمت في أدب بل وصحبها في سيارة تاكسي إلى أن وصلت به إلى الشارع الرئيسي القريب من البيت وتركته بعد أن اتفقا على اللقاء غداً في نفس المكان الذي التقيا فيه .. كافيتريا هيلتون .. ولكن في الساعة الخامسة بعد الظهر بعد أن يكون قد انتهى من عمله .. إلى هذا الحد كانت سعيدة

بهذه الدنيا الجديدة وإلى هذا الحد كان قد انجذب إليها .. وأصبحا يلتقيان كل يوم .. واشتدت الألفة بينهما حتى أصبح اللقاء ينتهي بهما أحيانا إلى غرفته في الفندق الذى يقيم فيه .. فندق هيلتون . وقد أصبحت تعطيه أكثر مما تعودت أن تعطى الشبان الذين كانت تعرفهم .. لقد أفرطت في اللمسات التى تبيحها له .. ولكن كانت هناك دائما حدود لا تخرج عنها .. إنها عذراء متمسكة بأن تبقى عذراء .. وكل ما هناك أنها توفر له وسيلة يستطيع أن يستغنى بها عن حاجته إلى أى فتاة أخرى ..

وقد رآها كثير من صديقاتها وأصدقائها وهي معه .. إنها معه حتى استغنت عنهم كلهم .. وعندما كان أحدهم يسألها عنه كانت تقول إنه خطيبها ولكنه لن يتقدم إلى عائلتها إلا بعد أن تتم إجراءات إعلان إسلامه .. وقد صارت تبتو بكذبتيها وقالت له :

— إننى أقول لهم إنك خطيبى وإنك فى انتظار إعلان إسلامك لنعلن خطوبتنا .. وهو مجرد كلام أبرر به صداقتنا فأنت تعلم أن مصر لا تعترف بالحب .. ولا حتى بالصداقة بين الفتى والفتاة .. وقال مستسلما :

— إن فى يوغسلافيا كثيرا من المسلمين .. وأنا مستعد أن أكون مسلما ونتزوج ..

وقالت صادقة وهي تضحك :

— ليس الآن لم تصدر الأوامر بعد بالزواج ..

وهي فعلا لم يكن يخطر على بالها أن تزوجه .. إنها فى منتهى السعادة بلا زواج .. إنها تعيش فى أوروبا .. وهو أيضا لم يكن يلح فى أن

يهم الزواج رغم أنها تحرمه من أن يصل إلى كل ما يريد .. ولكنها فى الواقع كانت تعامله كأنه أصبح زوجها خصوصا بالتدخل فى تنظيم حياته الخاصة .. كانت حريصة على ألا تتركه يتعامل أو يعامله الناس على أنه سائح أجنبى يمكن ابتزازه فكانت هى التى تتولى المعاملات نيابة عنه حتى لا يفرط فى ملهى واحد من نقوده .. بل إنها فكرت أن تنقله من فندق هيلتون بعد أن عرفت قيمة الإيجار الذى يدفعه لولا أنها تأكدت من أن الشركة التى يعمل بها هى التى تدفع تكاليف إقامته .. وهو أيضا كان مستسلما لها كزوج مهذب مطيع .. وتعود أن يخرج من جيبه حافظة نقوده ويعطيها لها لتتولى هى الدفع ..

وفى يوم .. وبعد المغرب وكانت الشمس قد غابت وبدأ الليل يرحف ونور القمر بدأ يطل .. كانا يسيران فى شارع النيل ووصلا بعيدا عن المنطقة التى تزدهم بالفنادق .. ورأت مركبا صغيرا من مراكب المزدهات بجانب الشاطئ وخطر على بالها أن تركب فيه هى وحبيبها ليستمتعا بنور القمر ينسكب فى مياه النيل .. ونزلا إلى المركب ووقف المراكبى يرحب ويهلل .. إنه شاب طويل عريض غليظ الصوت .. وقالت له بعض كلمات وقبل أن يركبها معه قالت :

— كم تأخذ للنزهة قصيرة ..

وقال وهو يتسهم ابتسامة غامضة .

— ما يجود به السيد مقبول ..

وقالت فى صوت حازم يرفض النقاش :

— لا .. لننتفقا مقدما .. كم تريد ؟

وقال بصوته الغليظ :

— عشرة جنيهاً يا ست .

وابتسمت ساخرة .. لاشك أنه اكتشف أن حبيبها أجنبي ..
خواجة .. سائح من السواح الذين يبتزهم كل من يقترب منهم ..
وقالت :

— لا أكثر من جنيه .. وإذا بقينا معك أكثر من نصف ساعة
سنعطيك جنيهين .. ونظر إليها في غل كأنه يتهمها بالوقاحة وقال كأنه
ينهرها :

— لا يمكن يا ست ..

وقالت في إصرار :

— هذا كل ما يمكن ..

وبعد كلمات قال كأنه يريد أن يكسبهما :

— عوضنا على الله .. تفضلاً ..

وركب المركب وجلس على حافتها ملتصقة بحبيبها وذراعه يلف
كتفها .. ولم يرفع المراكبي القلع وأخذ يجدف بهما بالمجداف ..
وقالت له :

— ألا ترفع القلع .. ؟

وقال وهو يجدف :

— الهواء نائم هذه الليلة وليس فيه ما يدفع القلع .. والبركة في
المجداف ..

ووصل بالمركب إلى منتصف عرض النيل ثم توقف عن
التجديف .. ووضع يده في جيبه والقارب يهتز فوق صفحة النيل
وأخرج سيجارة وأشعلها واعتدل في جلسته كأنه ينوى أن يستريح :

وقالت في ذهول :

— لماذا توقفت .. ؟

وقال وهو ينفث دخان سيجارته :

— لنتكلم قليلاً ..

وصاحت خديجة في رعب :

— ماذا بيننا وبينك من كلام ؟

وقال بعد أن أطلق بصقة في الماء :

— أليس من الحرام أن تكوني مع الخواجة ضد الغلبة أبناء بلدك ..

ماذا كان يهمك لو دفع لي الخواجة مهماً دفع ..

قالت وهي ترتعش :

— إذا كان لم يعجبك ما اتفقنا عليه فعد بنا وستأخذ الجنيه الذي

اتفقنا عليه رغم أنه لم يمض علينا في المركب سوى دقائق .. وضحك

المراكبي ضحكة كأنها طرقعة السياط :

— لم يعد ما آخذه جنيهاً .. ولا حتى العشرة الجنيهاً التي طلبتها

أنا .. سأخذ كل ما في جيوب الخواجة وكل ما في حقبتك ..

وحبيبها تبتو بدأ يتكلم باللغة الإنجليزية ثم تفلت منه ويتكلم بلغته

اليوغسلافية .. يريد أن يعرف سر ما حدث وقالت له خديجة في كلمة

خاطفة ما يطالب به المراكبي ثم قالت للمراكبي :

— سأصرخ وصراخي سيصل إلى كل من على الشاطئ .. عد

بنا ..

قال المراكبي ضاحكاً ضحكة ساخرة :

— ربما اهتز القارب وأنت تصرخين وانتقلب .. والله يرحمكما مني ..

واشدت رعدة خديجة .. إنها لو سقطت في النيل فستموت هي وحبيبها .. إنها لا تعرف السباحة . ولا حبيبها أيضا .. وسيفرقان ويموتان .. وبكت من الخوف . وقالت من خلال دموعها وهي ترتعش :

— حرام عليك يا ريس سنعطيك العشرة الجنيهات .. عد بنا في عرضك ..

وقال كأنه سلطان من الجن ينث دخان سيجارته :

— قلت إنى أريد ما معكما .. ودعك من الكلام وإلا بدأت أهر المركب ..

ومن خلال دموعها ترجمت ما يقوله المراكبي لحبيبها .. وقال تبتو وصوته يرتعش هو الآخر :

— لنعطه ما يريد حتى لا يقتلنا ..

ثم مد يده في جيبه وأخرج محفظة نقوده من جيبه وناولها للمراكبي وهو يقول بصوته المرتعش وباللغة الإنجليزية :

— هذا كل ما معى ..

وأخذ المراكبي المحفظة وهو يقول لخديجة :

— قولى له أن يخلع ساعته والخاتم الذى فى إصبعه ..

وترجمت لتبتو الذى خلع الساعة والخاتم فورا وناولهما للمراكبي وهو ينظر إليه فى فزع كأنه يسأله ماذا يريد أكثر .. ومد المراكبي يده فجأة والتقط حقيبة خديجة التى كانت قد تركتها بجانبها ، وفتحها وأخذ يقلب فيها ثم قال ساخرا :

— إنك غلبانة .. ليس معك إلا قروش .. وقالت وصوت بكائها يرتفع ويكاد ينهار بها :

— إى والله غلبانة مع الدنيا كلها .. غلبانة حتى لو ركبت مركب فى الزهرة ..

وجمع المراكبي ما وجدته فى حقيبة خديجة ووضعها فى جيبه وهو يقول :

— يكون لى عليك حق آخر ..

وقالت وكأنها تترنح :

— أى حق .. أنا فى عرضك ..

وقال وهو ينظر إليها كأنه بهم أن يتلعبها :

— ما يتمتع به الخواجة أنا أحق بالتمتع به .. نحن أولاد بلد ..

وقالت وصوتها كأنه همس :

— ماذا تقصد .. ما هذا الذى يتمتع به الخواجة .. ؟

وقال وهو يلقي من يده عقب السيجارة :

— يتمتع بك أنت ..

ثم مال إليها وشدها من ذراعها إليه حتى أصبحت بين ذراعيه ثم بدأت يده تمتد فى أنحاء جسدها ويده الأخرى تشد شعرها حتى رفع شفتيها إلى شفتيه وهم كأنه سيأكلها .. والقارب يهتز .. وحبيبها تبتو جالس مكانه وهو متعلق بكفيه بحافة المركب حتى لا يقع منها ويقول كلمات بلغته كأنه يصرخ صرخات لا يسمعها إلا هو .. وألقى المراكبي فجأة بخديجة بعيدا عنه وهو يقول ساخرا كأنه يبصق :

— إنك لا تستحقين .. ولا تثيرين رجل .. طعمتك كضعف الزبالة ..

ثم أمسك بالمجدافين وأخذ يجذف ويعود بالمركب إلى الشاطئ .. إلى أن وصل بهما وقال كأنه يشوطهما بقدمه :

— فى ستين داهية ..

وما كادا يضعان أقدامهما على الأرض حتى أخذا يجريان كأن هذا المراكبي يجرى وراءهما فى حين أنه كان جرى بالمركب فى أعماق النيل كأنه يختفى فى دنيا أخرى ..

وبذلت خديجة بعد أن عادت إلى البيت كل إرادتها لتخفى روعتها وتوترها عن أهلها .. واستطاعت حتى أن تواجه فى هدوء الثورة التى يصونها عليها لأنها عادت متأخرة بعد الساعة الثامنة .. ولكنها لم تستطع أن تنام .. إن طبيعتها ترفض الاستسلام لما حدث لها والاكتماء بحمد الله على سلامتها .. طبيعة الفتاة المعتدة بنفسها والتى عاشت تحقق كل ما تريد دون أن تتعرض لشيء .. ودون أن تتعرض لأى إغراء .. وهى لا يمكن أن ترحم هذا المراكبي الذى اعتدى عليها وعلى حبيبها .. ولكن كيف .. كيف تسترد اعتزازها بنفسها .. كيف تنتقم ..

ستبلغ البوليس عن المراكبي ..

إن لها صديقة فى الجامعة ابنة مأمور قسم بوليس الجيزة .. ستصل بها بالتليفون وتبلغ أباهما بما حدث .. إنها لا تنتقم لنفسها فقط ولكنها تحمى بقية الناس من أمثال هؤلاء المجرمين .. تحمى البنات اللاتى

يذكرن مثلها فى قضاء متعة بريئة مع الحبيب فى مركب يطير بهما فوق مياه النيل ..

وفى صباح اليوم التالى استطاعت أن تتصل بالمأمور وروت له ما حدث .. ولكنه قال إنها يجب أن تسجل محضرا رسميا لكلامها حتى يبدأ فى اتخاذ الإجراءات والبحث عن المراكبي .. وقالت له بصراحة إنها لا تريد أن تعرف عائلتها شيئا .. إنهم لن يغفروا لها أنها ركبت مع غريب مركبا فى النيل .. ووعدوا المأمور بأن يكون حريصا على ألا يصل شيء إلى عائلتها .. وكتب المحضر لها .. وبدأ البوليس يبحث عن المراكبي .. وهى تتصل بالمأمور دائما إلى أن عرفت أنه قبض على المراكبي وأدخل السجن تحت الحجز .. ثم قدم للنيابة وكان يجب أن تدلى بأقوالها مرة أخرى .. واستدعيت إلى النيابة لتواجه المراكبي .. وتعمدت أن تتجاهله ولم تترك نفسها تهجم عليه وتنهال عليه ضربا كما كانت تمنى .. إن القانون كفى بأن ينتقم لها .. والمراكبي نفسه كان صامتا هادئا أمامها يريد أن يظهر بمظهر البريء المظلوم .. لم تسمع صوته إلا عندما كانت تحكى عن المحفظة التى استولى عليها .. فقال مقاطعا :

— ربما وقعت منكما فى النيل يا ست ..

ثم سمعت صوته مرة ثانية عندما كانت تحكى محاولته الاعتداء عليها .. فقال مقاطعا :

— لا يمكن يا ست .. لقد كان معك رجل ..

ووكيل النيابة ينهره حتى لا يتجرأ على المقاطعة ..

ووصل التحقيق إلى حد أن اضطرت أن تترك النيابة تستدعى حبيبها

تيتو وتسألته .. وقد اعترف هو الآخر بكل الحكاية ..

وبعد الانتهاء من التحقيق بدأ ينتابها نوع عنيف من الخوف ..

إن المراكبي لا يزال في السجن .. ولكن قد يخرج من السجن بعد شهر أو شهرين .. أو بعد عام أو عامين .. فهل يتركها وينساها .. إن هذا النوع من المجرمين لا ينسى ولا يتنازل عن الانتقام .. وربما حاول أن ينتقم منها بعد أن يفرج عنه .. وهو يعرف الآن اسمها المسجل في التحقيق .. خديجة برهان .. كما عرفت هي اسمه .. حمدان عبد الواحد .. ومن السهل أن يعرف عنوانها .. لماذا يارب لم تكتف بحمد الله على نجاتها ..

والخوف يشتد بها .. حتى بدأت تفكر في التنازل عن دعوها ضد المراكبي . حمدان .. ولكنهم أفهموها أن ليس من حقها أن تتنازل إلا عن حقها المدني ولكنها لا تستطيع أن تسحب الجريمة وتتنازل عنها .. وقالت لأبي صديقتها رجل البوليس إنها خائفة من حمدان بعد أن يفرج عنه فضحك وهو يقول لها ألا تخاف .. فهؤلاء الأصناف متعودون على السجن ولا يفكرون في الانتقام ممن يبلغ عنهم ..

ولكن الخوف يشتد أكثر .. إنها خائفة وهي في بيتها .. وخائفة وهي في الشارع .. وخائفة وهي في الجملة .. ربما كان الخوف هو الذي جعلها تتبعد عن حبيبها اليوغسلافي تيتو .. لم تعد تطيقه .. إنه إنسان ضعيف لم يستطع يوماً أن يحميها وضعفه هو الذي أطمع حمدان فيهما .. رغم أن هذا الضعف كان هو الذي يريحها باستسلامه لها ..

ولكل ما تريد .. وكان هذا الخوف هو الذي أدى بها إلى السقوط في

امتحان الكلية .. لأول مرة تسقط في أى امتحان ..

لقد تغيرت كلها ..

لم تعد الفتاة المعتدة بنفسها .. الذكية الجريفة .. أصبحت

مملوكة .. ساهمة .. أصبحت تعيش الخوف .. ولا تدري متى يفرج

عن حمدان .

لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

إن إبراهيم لا يزال يذكر أول سؤال حيره وتوجه به إلى أمه وهو لا يزال طفلاً في الخامسة من عمره .. فقد كان يرى أباه يصلي صباح كل يوم قبل أن يخرج من البيت وكان يقف خلفه أحياناً ويقلده في انحناءات الصلاة ولم يكن أبوه يدعوهُ إلى الصلاة معه ولكنه كان يفرح عندما يراه واقفاً خلفه يقلده .. وبدأ أبوه يتلو صلاته بصوت مرتفع كأنه يريد من ابنه أن يتلوها وراءه ويحفظها منه بل إنه بلا تعمد وفي فترات متباعدة كان يداعبه خلالها ، استطاع أن يلقيه صورة الفاتحة حتى حفظها وفي يوم سأل إبراهيم أمه ، كمجرد خاطر طرأ عليه دون تعمد :
— هل الرجال وحدهم هم الذين يصلون ؟
وقالت أمه ضاحكة :

— الرجال والنساء كلهم يصلون ..
وقال في دهشة :

— ولماذا لا تصلين أنت مع بابا ..
واحتضنته قبله وهي تقول ..
— إنني أصلي مع خالك لبيب :
وقال في دهشة :

— لماذا تصلين مع خالي ولا تصلين مع بابا ..
وقالت وهي تمسح بيدها على شعر رأسه :

— هكذا تعودت .. وتعود بابا .. ونحن الاثنان نصلي لربنا ..
وربنا واحد ..

وقال وهو يضحك لها كعادة الأطفال عندما يطلبون شيئاً :
— أريد أن أراك وأنت تصلين مع خالي ..
قالت وهي تبعده عنها في حنان كأنها لا تريد أن يطيل معها الكلام :
— إننا لا نصلي في البيت ..
وسأل بدهشة :

— أين تصلين ؟
قالت في رفق وهي تنظر إليه في لوم كأنها تتمنى عليه أن يرحمها من هذه الأسئلة :

— في الكنيسة ..
ورنت الكلمة في رأسه بطنين مرتفع .. إنها المرة الأولى التي يسمع فيها لفظ كنيسة . ترى ما هي الكنيسة ؟ وقال ولهجة تحمل رنة إصرار :
— أريد أن أرى الكنيسة ..

وقالت أمه وهي تقوم مبتعدة عنه :
— حاضر ..
وتركته وهو يسقط في بحر الحيرة التي عاش فيها طوال حياته ..
وقد انتظر يومها حتى عاد والده إلى البيت وانتهاز فرصة اختلائه به وقال له وهو يلقي بنفسه على صدره ويقبله :

— بابا .. لماذا لا تصلي في الكنيسة .
ورده أبوه وهو يضحك ويحتضنه :
— إنني أصلي في البيت أو في الجامع ..

ورن لفظ الجامع فى رأسه بنفس الطنين الذى رن به لفظ الكنيسة وقال وقد اشتدت به الحيرة :

— ولكن ماما تصلى فى الكنيسة ..

وسكت الأب برهة وهو ينظر فى عيني ابنه وعيناه تفيضان بالحنان ثم قال كأنه قرر أن ابنه وصل إلى السن التى يمكن أن يواجهه فيها بواقع لم يكن يعلمه بعد :

— إن ماما مسيحية وأنا مسلم ..

وقال إبراهيم فى دهشة :

— وما الفرق ؟

وقال الأب وهو يحتضن ابنه بابتسامة :

— بالنسبة لنا نحن الاثنين فلا فرق .. كلانا سعيد ومرتاح

بإيمانه ..

وقال وهو غارق فى الحيرة :

— وأنا .. هل أنا مسلم أم مسيحي .

وقال الأب فى عجلة :

— أنت مسلم لأن أباك مسلم ..

وقال من خلال حيرته :

— هل لو كنت فتاة كنت أكون مسيحيًا كما ..

وقال الأب بسرعة ..

— لا .. الأبناء أولاد وبنات كما يحملون اسم الأب يحملون صفته

كمسلم أو مسيحي ..

وقال كأنه يهمم بالكاء :

— ولكنى أحبك وأحب ماما .. وسأكون مسلماً مثلك ومسيحياً

مثلها ..

وقال الأب وهو يتلع ريقه كأنه بدأ يعانى من ابنه :

— مستحيل فأنا أيضاً أحب ماما وماما تحبني وكل منا يعيش إيمانه

دون أن يكون فيه ما يعكس حبه .. ولا تشغل نفسك بهذا الموضوع ..

ودعها على الله ..

وقال الصبي بسرعة كأنه يدافع عن نفسه :

— ماما قالت لى إن الله واحد ..

وقال الأب وهو يتعد عن ابنه :

— لا إله إلا الله .. وعندما تكبر ستعرف أكثر ..

وتركه والده وهو يغوص أكثر فى بحر الحيرة وقد أخذ يلح على أمه

حتى صبحته صباح يوم أحد إلى الكنيسة ووالده يعلم دون أن يعترض

وكأنه أمر طبعى أن تصحبه إلى الكنيسة وقد جلس جانبها يستمع إلى

التراتيل ويقلدها فى كل حرركاتها ثم يتطلع إلى السقف وإلى الجدران

بعينيه مأخوذاً بالصور المعلقة وخرج دون أن يفهم شيئاً وليس فيه

ما ينبض بإحساسه إلا أنه بجانب أمه وقد عاد إلى البيت وبدأ يلح على

أبيه قائلاً :

— لقد رأيت أمى فى الكنيسة وأريد أن أراك فى الجامع ..

وكان أبوه يرد عليه قائلاً :

— أفضل أن تنتظر حتى تكبر وتذهب إلى الجامع وحدك وحتى

تكون دوافعك من إيمانك لا من إيمانى ..

ولكن إبراهيم الذي كانوا يدلونه باسم « برهم » أخذ يلح حتى صبحه معه في صلاة الجمعة .. وأمه تعلم أنه صبحه إلى الجامع دون أن تعترض أو تعلق بكلمة وكأنه من الطبيعي أن يصحب أباه إلى الجامع وقد جلس بجانب أبيه يسمع القرآن ثم بدأ يقلده في كل حر كاته بعد أن أقيمت الصلاة ويردد مع إمام الجامع الفاتحة التي كان قد حفظها ويدير عينيه بين السقف والجدران وبين المصلين كأنه يحاول أن يكتشف شيئا يفهمه وإن كان كل ما اكتشفه وفهمه هو أن أباه كان فخورا به بين المصلين كأنه يتباهى بأنه أنجب مسلما ..

وقد سأل أباه يومها وكان هذا هو كل ما خرج به من الصلاة في الجامع :

— لماذا يجلس المصلون في الكنائس على مقاعد ويجلسون في الجوامع على الأرض ..

وقال الأب مشفقا في حنان :

— إنك لم تكن في الجامع جالسا على الأرض ولكن على سجادة. وكل الأديان تركع لله ويكون ركوعها على الأرض. وإحساسك بالله يغلب إحساسك بكيف تكون وأنت متوجه إليه لأنه إحساس يرفعك إلى السماء ..

ولم يستطع برهم أن يتخلص من الحيرة التي يعيش فيها وربما كان مما يعيش هذه الحيرة في نفسه أن ليس حوله ما يخرج منه أو يعينه عليها فأبوه وأمه عاشا كل حياتهما في أقوى وأرقى حالات الحب لم يسمع منهما يوما خلافا أو نقاشا حول إسلامه أو مسيحيته بل إن كلا منهما كان حريصا على رعاية إيمان الآخر، فأمه تطوى سجادة صلاة أبيه

يديها وتهتم بحفظها ورعايتها .. بل إنها اشترت له أكثر من سجادة أمجبتها وكانت تتباهى بها كأنها اشترت تحفة مقدسة وكانت في أيام رمضان تطبق على البيت كله تقاليد الصيام وهي نفسها كانت تصوم أياما ولا تأكل إلا مع العائلة ساعة الإفطار وإن كانت في معظم الأيام لا تستطيع أن تحرم نفسها من فناجين القهوة ومن السجائر. وكل أعياد المسلمين يحتفل بها في البيت حتى أن أمه كانت تشتري بنفسها الخروف وتشرف على ذبحه في عيد الأضحى وتشتري لزوجه وأولادها الملابس الجديدة في العيد الصغير، وأبوه أيضا كان حريصا على رعاية مظاهر إيمان زوجته. إنه يتركها تتردد على الكنيسة كلما أرادت وهو فرح بإيمانها ويتركها تحتفظ بالصلب الصغير فوق صدرها ولا تخلى عند أبدها بل إنه سافر مرة إلى الخارج وعاد يحمل بين الهدايا صليباً ذهبياً موشى بالفصوص ليعلقه فوق صدر حبيبته متباهيا به .. وكل الأعياد المسيحية يحتفل بها البيت وعيد الميلاد .. وعيد القيامة المجيد .. وأحد السعف .. و .. و .. وإن كانت أمه نفسها تعفيهم من التمسك بكل أيام الصيام التي لا تقدم لهم فيها أي شيء تدب فيه الروح ولا يأكلون إلا ما أعد بالزيت لا بالسمن ولا بالزبد. إنها أيام طويلة تصل في عيد القيامة إلى خمسة وخمسين يوما وفي عيد الميلاد إلى أربعين يوما فكان يكفي أن يصوموا يوما أو يومين في كل عيد، كما أعفتهم مما يتبعه المغالون في التدين بالصيام كل يوم أربعاء وكل يوم جمعة طوال السنة ..

وكل منهما كان حريصا على زيارة عائلة الآخر خصوصا في المناسبات. أبوه يذهب مع أمه لزيارة عائلتها وأمّه تذهب مع أبيه لزيارة

عائلته وكانا يصحبان معهما دائما إبراهيم. وقد أحس إبراهيم أنه رغم السنوات الطويلة التي مرت على زواج أبيه وأمه فإن أباه يبدو غريبا وهو وسط عائلة أمه محتفظا مراعيًا كل كلمة ينطق بها وأمه كذلك تبدو غريبة وسط عائلة أبيه .. هي أيضا متحفظة تفرط في المجاملة .. أما هو وإخوته فكانت العائلتان تفرطان في الترحيب بهما وتدليلهما وغمرهما بالهدايا، بل كانت كل عائلة تدعو أحيانا الأولاد دون دعوة الأب والأم .. كأن كلا منهما تسعى لتأخذ هؤلاء الأولاد من العائلة الأخرى ..

وقد عرف فيما بعد أن العائلتين كانتا تعارضان بعنف زواج أبيه وأمه .. ولكن حينهما قاوم العائلتين حتى انتصر عليهما وتم زواجهما .. كانت أمه تهدد أحيانا بالهروب من العائلة وأحيانا تهدد بالانتحار .. وكان أبوه يتحدى كل عائلته ويردد في هدوء .. سأتنزوج ماري. وتركتهما العائلتان يتزوجان دون أى احتفال بهذا الزواج بل إن العائلتين قاطعتا حضور توقيع العقد الذى تم فى مكاتب الشهر العقارى، ولكن لم تمض سوى ثلاثة أو أربعة شهور حتى بدأت العائلتان تعترفان بهذا الزواج .. خصوصا بعد أن تأكدت كل عائلة من سعادة الابن والابنة وإن كان الاعتراف قد ظل حتى اليوم اعترافا من تحت الضرس وفى حدود الرسميات العائلية ..

ويتسم برهم بينه وبين نفسه وكأنه يسخر من نفسه .. لقد كان هو أول ما رزقهما الله ولعلهما أسمياه إبراهيم حرصا على أن يرضا العائلتين .. عائلة أمه وعائلة أبيه .. فاسم إبراهيم يجمع بين المسيحية والإسلام .. فلم يسمياه جرجس مثلا كما لم يسمياه محمدا أو أحمد ..

وقد مرت بإبراهيم مراحل متعددة وهو يقاوم حيرته .. مرت مرحلة فر فيها أنه مسلم .. ويجب أن يتفرغ بإيمانه وبشخصيته للإسلام وكان يعمد أن يواظب على الصلاة ويصلى كل جمعة فى المسجد ويفكر فى أداء فريضة الحج .. ولم يكن فى ذلك مجرد مؤمن بالإسلام ولكنه كان كأنه يتعمد أن يفرض شخصية اختارها على كل الناس وعلى أمه وعلى عائلتها، ولكنه بعد فترة بدأ حبه لأمه يشق قلبه كأنه يظلمها ويضطهدها وجد نفسه وهو حريص على أداء كل شعائر الإسلام يذهب إلى الكنيسة وحده بل إنه صادق القسيس ولكنها صداقة كان لها طابع خاص، فقد كان يناقشه فى الدين لا لحاجته إلى الإيمان به ولكن فقط ليعلم ماذا تؤمن أمه .. وكان يترك القسيس ويذهب ليجلس مع الشيخ مصطفى رجل الأزهر الشريف وصديق والده ويحادثه طويلا وهو يريد أن يعلم ما يؤمن به أبوه .. ولكنه كان دائما أكثر صراحة وجراة وهو يناقش أباه .. وقد قال له يوما :

— إن الإسلام يهدينا إلى أن الله واحد والمسيحية أيضا تهدي إلى أن الله واحد فلماذا لا أكون مسلما مسيحيا ..

وقال له أبوه فى إشفاق :

— إن شهادة الإسلام لا تقتصر على أن الله واحد ولكنها تنص على أن محمدا هو رسوله. وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .. فإن لم تؤمن بأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو وحده نبيك فأنت لست مسلما. وقال إبراهيم مجادلا وكأنه يجادل نفسه :

— ولكن القرآن الكريم يؤكد أن عيسى هو أيضا رسول الله .. ولو كان الله قد أرسل محمدا قبل موسى لكان الإنجيل قد نص أيضا على أن

محمدا هو رسول الله .. كل من تلقى الوحي وحمل الرسالة ذكرهم القرآن .. وكلهم أنبياء .. فلماذا لا نجتمع كلنا حولهم كلهم .. وقال الأب وهو يزداد إشفاقا على ابنه :

— إن الله حكمة فى التطور بالبشرية وهدايتهم .. وبين المسلمين من كانوا مسيحيين وبين المسيحيين من كانوا يهودا وكانوا يتطورون وفقا لإرادة الله وكان النبي محمد هو آخر الأنبياء أى آخر مراحل التطور التى أرادها الله هداية للبشر ..

وقال إبراهيم فى جزع :
— ولكن أسمى لم تتطور إلى الإسلام ..
وقال الأب فى هدوء :

— الله لا يكلف نفسا إلا وسعها .. ولم تتسع نفس أمك للتطور وعاشت نفسها هادئة مرتاحة مزدحمة بإيمانها بالمسيحية ولكنها لا ترفض حكمة الله .. فلم ترفض الإسلام كحكمة أرادها الله .. وتزوجت مسلما وأنجبت مسلما .. وقال إبراهيم فى حدة :
— هل تزوجتك ماما لأنك مسلم :

وقال الأب فى هدوء :
— تزوجتني لأن الله جمع بيننا لتزوج ... الله الواحد الأحد .. وإبراهيم لا يتحرر أبدا من حيرته يسير فى الحياة وكأنه تائه ولا يكف عن مناقشة نفسه فى اختيار الطريق إلى أن انتقل إلى مرحلة أخرى .. مرحلة العلمانية .. إنه ليس فى حاجة إلى دين سواء كان الإسلام أو المسيحية كل ما يحتاج إليه هو العلم .. والحياة كلها علم .. والأديان نفسها ليست سوى قواميس للمعلم .. وقد انتهى من

دراسة علم الإسلام وعلم المسيحية .. فلينتقل متفرغا للعلوم الأخرى ويأخذ من تكنولوجيا الحياة إنه ليس مسلما ولا مسيحيا .. إنه عالم يبحث فى أسرار الدنيا وخيل إليه أنه ارتاح ..

ولكن المعاناة بدأت تعاوده، معاناة الحيرة .. ووجد نفسه يهرب من أمام أبيه وهو يراه يصلى الصباح .. ويهرب من أمام أمه وهو يراها توجه إلى الكنيسة يهرب مقاولا ما يعانیه، وكان لا يرتاح إلا عندما يجلس مع مادلين ابنة خاله لبيب .. إنه لا يحس بها كمسيحية ولكنه يحس بها كأنها تكمل وجوده سواء كان مسلما أم مسيحيا .. ويحس بها كأنها أمه، إنه يحبها بكل ما يتسع له الحب، إن الله الواحد الأحد جمعهما وإذا جمع الله بين فتى وفتاة فهو سبحانه وتعالى يفرض عليهما إعلان الزواج ..

ولم تكن معارضة العائلتين لهذا الزواج عنيفة كما عارضوا زواج أمه من أبيه .. خصوصا وأن أباه وأمه رحبا بهما كزوجين، وقال إبراهيم وهو يشهد ساخرا من تردده ..

— يبدو أن بنات عائلة أسمى يضعفن أم فتیان الإسلام .. ولعل العائلة كلها أن تعلن إسلامها حتى يستطيع فتیاننا أيضا أن يتزوجوا مسلمات .. ولكن لا .. إن الذى يغير دينه فقط ليصل إلى فتاة يريد أن يتزوجها إنما يخدع وينصب على دينه وعلى الدين الذى انتقل إليه .. يخدع وينصب على الإسلام وعلى المسيحية .. وكثير من المسيحيين أعلنوا إسلامهم فقط ليتزوجوا من مسلمات .. فعاشوا ضائعين لا يستطيعون أن يعيشوا الإسلام ولا يقبل منهم المسيحيون أن يكون استمرار إيمانهم

فى الخفاء كأنهم يخفون عورة .. فعاشوا ولا يعترف لهم أحد بدين ..
وتم زواج إبراهيم ومادلين ..
ووجد إبراهيم نفسه فى صبيحة ليلة الزفاف يقوم ويفرش السجادة
ويصلى صلاة الصبح .. وقد هدأت حيرته فهو مسلم ويتطلع مبتسما إلى
مادلين وهى خارجة إلى الكنيسة .. لقد تحقق له ما حققه أبوه وأمه ..
واجتمع الإسلام والمسيحية فى بيت واحد ..
ولا إله إلا الله ..

كانت غشاشة

لقد فوجئ عبد العزيز بأنه عين رقبيا على طلبة الكلية فى امتحان آخر
العام ..
إنه لم يتسلم عمله بعد كمدرس معيد فى الكلية .. وكان قد تخرج
فى العام الماضى ورغم أنه لم يكن من الأربعة الأوائل فى نتيجة الامتحان
الذين يقتصر عليهم توزيع وظيفة المعيد .. إلا أن الكلية عينته معيدا ربما
لأنها فى حاجة إلى تكوين جيل جديد من المعيدى والمدرسين
والأساتذة .. أو لأن الطلبة الأوائل أصبحوا لا يقبلون على تعيينهم
كمعيدى للمرتب الهزيل الذى يتقاضونه .. وأصبح كل منهم يحمل
شهادة تقدمه فى الامتحان ويبحث عن وظيفة فى شركة أو فى بنك .. أو
يحاول أن يهرب بعلمه إلى الخارج .. خصوصا وأن وظيفة المعيد
لم يعد لها الرهبة والوقار والاحترام الذى كان يتباهى به كل من يحصل
عليها .. يكفى أن يحصل على وظيفة معيد حتى يعتبر عبقرى تفوق على
كل الطلبة حتى اختاروه أستاذا عليهم .. ولكن كان هذا أيام زمان .. أما
اليوم فإن من يعين معيدا على طلبة الجامعة يضيع وسط زحام الطلبة حتى
يبدو وكأنه واحد منهم .. إنه زحام لم يعد يفسح أى مكان تظهر فيه
شخصية الأستاذ أو المعيد .. ولم يعد يتيح للأستاذ أو للمعيد علاقة
خاصة بالطلبة توفر له الهيبة والاحترام .. إنه لا يعرف أحدا من الطلبة
ولا أحدا من الطلبة يعرفه .. ويقف أمامهم ويلقى محاضراته كأنه تاجر
فى سوق الكانتو ينادى على بضائع قديمة ..

ورغم ذلك كان قد فرح بتعيينه معيدا في الكلية .. إنه لم يكن يتصور أنه يمكن أن يصل إلى أن يكون أقرب إلى أستاذ بالنسبة للطلبة .. فلم يكن متفرغا للدراسة والعلم ولكنه كان دائما طالبا « شاطرا » ذكيا يستطيع أن ينجح في أى امتحان ويصل إلى درجات متقدمة محترمة حتى كان ترتيبه في التخرج الحادى عشر بين الطلبة الناجحين .. هو نفسه دهش بهذا الترتيب المتقدم كأنه فوجئ بأن يكون زملاؤه الطلبة من الخيبة والغباء حتى يتقدم عليهم إلى ترتيب الحادى عشر ..

وكان قرار تعيينه قد صدر قرب نهاية العام الدراسى .. ولم يكن قد اجتمع بعميد الكلية وهيئة الأساتذة ليحددوا له اختصاصه وبرنامجه فى جداول التدريس للطلبة .. ولكنه فوجئ بأن وضعوه كمراقب على الطلبة خلال الامتحانات ..

وهو يكره ظهوره بين الطلبة كرفيق عليهم .. والطلبة يعتبرون الرقيب عليهم أثناء الامتحان كأنه رجل بوليس أو من رجال المخابرات .. مهمته أن يضبطهم ويقبض عليهم إذا حاولوا الغش أثناء إجابته على الأسئلة .. وهو لا يريد أن يستقبله الطلبة بعد أن أصبح أستاذا عليهم بدرجة معيد بالحذر منه أو بمحاولة خداعه حتى يتمكنوا من الغش أثناء الامتحان .. بل إنه فى الواقع يؤمن بأن الغش هو حق شرعى للطلاب .. فإن التعليم لا يقوم على حشو ذاكرة الطالب بالمعلومات التى يحفظها « صم » .. ويسجلها على أوراق الإجابة فى الامتحان ثم ينساها بمجرد أن ينتهى من تسجيلها ويعود أجهل مما كان حتى لو نجح فى الامتحان .. إن هذا هو سر ضعف كل خريجى الجامعة .. كلهم يحملون شهادات وعقولهم فارغة من أى علم .

شهادات كأنها أوراق تسجيل ميلاد دون أن يكون من يحملها مسئولاً عن مولده ولا يعرف كيف ولماذا ولد .. ووسائل التعليم الحديثة لم تعد تعتمد على حشو ذاكرة الطالب بمعلومات عن المادة التى يدرسها حتى يحفظها صم ويستطيع أن يرددها كما يردد البيغاء ما يسمعه دون أن يكون له القدرة على فهم ما يردده .. أو يردد نظرية فيثاغورس كما يردد فاتحة القرآن الكريم .. حفظها لأنه كان مفروضا عليه حفظها حتى يدخل الجنة .. إن العلم الحديث أصبح الآن يعتمد على تعليم الطالب القدرة على الوصول إلى المرجع الذى يحتاج إليه للوصول إلى العلم .. فإذا عرض عليه سؤال فليس مفروضا أن يجيب عليه من ذاكرته .. بل يلجأ إلى الكتاب الذى يعلم أنه يعتبر مرجعا للاطلاع عليه حتى يصل إلى الإجابة على هذا السؤال .. ومعظم الجامعات فى أمريكا اليوم تتيح للطلاب أثناء الامتحان أن يحمل معه ما يشاء من الكتب والمراجع وتتركه حرا فى تصفحها حتى يصل إلى الإجابة على السؤال المعروف عليه .. ثم ماذا يفعل المحامى الكبير مثلا عندما تعرض عليه قضية .. إنه لا يكتفى أبدا بالمعلومات القانونية التى يخترنها فى ذاكرته بل يبدأ فى مراجعة كتب القانون حتى يستخرج العلم الصحيح الذى يمكن أن يعتمد عليه فى كسب القضية لصالح موكله .. والمهندس .. إنه لا يستطيع أن يبدأ فى تنفيذ مشروع إلا بعد أن يكون قد انتهى من مراجعة كل المراجع التى تدله على كل التفاصيل .. وإلا اعتبر مهندسا فاشلا كسولا لو اعتمد على ذاكرته واكتفى بما حشاهها به أيام دراسته الجامعية .. والطبيب .. كيف يجزئ على فتح بطن مريضه دون أن يكون قد استكمل الاطلاع على كل المراجع التى تكشف له كل

أسرار هذا المرض وإلا كان كأنه يذبح مريضه .. و .. و ..
والطالب .. إن كل ما يحتاج إليه أثناء الامتحان هو الاستعانة بالمراجع
ليصل إلى الجواب الصحيح .. ولكن هذا ممنوع .. فيضطر إلى
تسجيل مراجعه خفية والوصول إليها كأنه لص يسرقها حتى إذا ضبط
اتهم بأنه طالب غشاش وقبض عليه وطرد من الامتحان .. إنه هو نفسه
كان طالبا غشاشا .. وكان من العبقريه بحيث لم يضبط وهو يغش
ولا مرة .. كان دائما أذكى من جميع المراقبين على الامتحانات ..
وابتسم بينه وبين نفسه وهو يتذكر أحداثا وقعت له وهو يغش ..

لقد كان لا يزال في المدرسة الثانوية .. وكان له زميل وصديق اسمه
صلاح يجلس بجانبه في الفصل الدراسي .. وكان صلاح متفوقا دائما
في الرياضيات .. كالجبر والهندسة .. بينما كان هو متفوقا في العلوم
النظرية .. التاريخ والجغرافيا والمحفوظات .. وفي امتحان نصف
السنة اتفق مع صديقه صلاح على أن يتبادلا الغش .. هو يغش العلوم
النظرية وصلاح يغش الرياضيات .. وجاء امتحان التاريخ فقرب ورقة
إجابته من صديقه صلاح حتى ممكنه من أن يقرأ وينقل عنه كل
ما يكتبه .. ثم جاء امتحان الهندسة فإذا بصديقه يبعد عنه ورقة إجابته
ويحيطها بذراعيه وهو يكتب فيها بحيث لا يستطيع أن يصل إليها بعينه
ويقرأ منها حرفا واحدا .. وهمس .. قرب ورقك يا صلاح .. ارفع
ذراعك عن الورقة يا صلاح .. ولكن لا يرد عليه ولا يقرب ورقة إجابته
ولا يرفع ذراعه التي يخفيها بها .. وجن من الغيظ .. ولم يتحمل جنونه
فقام وسط الامتحان وانهار على صلاح ضربا .. وذهل المدرس

المشرف على مراقبة الطلبة وجاء يسأل ماذا جرى وهو يكتفه كأنه
يفهم عليه .. وقال للمدرس المشرف بكل صراحة :

— لقد اتفقت معه على أن نتبادل تغشيش بعض .. وقد غش مني
امتحان التاريخ كلمة كلمة .. وهو الآن يرفض أن يغشني الهندسة ..
وضحك المدرس لهذه الصراحة ولكنه صمم على حرمانه من
الامتحان .. ولكنه كان امتحان نصف السنة فلم يؤثر حرمانه منه في
لجأه في امتحان آخر العام .. ولكنه من يومها تعود إذا احتاج إلى
الغش أن يعتمد على نفسه ولا يعتمد على أى زميل له ..
وقد عرف الكثير من وسائل الغش في الامتحانات ..

إنه يستطيع أن يكتب على ورقة صغيرة وبحروف دقيقة كل ما يحتاج
إليه ويطوى الورقة كما تطوى المروحة بحيث يكون على كل طية فيها
موضوع من المواضيع التي يحتاج إليها .. قد تشمل هذه الورقة الصغيرة
ثمانية أو عشرة موضوعات .. ومن السهل عليه أن يتصفحها دون أن
يراه أحد من المراقبين ..

ويستطيع أن يكتب الإجابات الصعبة على كف يده .. وتبقى يده
مطوية طول الامتحان ولا يفتحها ليقرأ إلا وهو مطمئن إلى أن أحدا
لا يراقبه ..

ثم إنه وجد أقلاما من أقلام الحبر الجافة طويلة ومضلعة بحيث
يستطيع أن يكتب على كل ضلع منها موضوعا من الموضوعات التي
يعتقد أنه سيحتاج إليها في الامتحان .. إن إحدى الطالبات كانت تدخل
الامتحان ومعها أكثر من خمسة أقلام من هذه الأقلام كأنها سجلت
عليها كل المقرر وتغير كل قلم تكتب به مع تغير السؤال الذي تجيب

عليه .. دون أن يثير أى قلم شبهة أحد من المراقبين المشرفين على الامتحان ..

واكتشف أن بعض الطلبة يتفق قبل أن يدخل الامتحان مع حامل زجاجات الكوكاكولا الذى من حق الطالب أن يستدعيه أثناء الامتحان ليقدّم له زجاجة يثلج بها صدره ليخفف من نار الأسئلة .. يتفق معه ويعطيه الورقة التى سجل عليها موضوعات الغش .. فإذا احتاج إليها طلب من المشرف على الامتحان أن يطلب له زجاجة كوكاكولا .. ويدخل الرجل ويقدم له الزجاجة ومعها الورقة التى أعدها ليغش منها .. المهم أنه دخل الامتحان وليس معه أى ورقة تعينه على الغش فكسب ثقة المراقبين وتغاضوا عن مراقبته ..

وهناك وسائل أصعب للغش .. كالكتابة على ورقة الكربون كلمات غير مقروءة ويستطيع أن يضعها على ظهر ورقة الأسئلة فتظهر الحروف وينقلها إلى ورقة الإجابة إذا ساعده الحظ وكان فى حاجة إليها .. بل إن عملية الغش تطورت أخيرا تطورا علميا يعتمد على آخر المخترعات حتى أصبح الغش يمكن أن يتم عن طريق اللاسلكى .. فيدخل الطالب إلى الامتحان وفى جيبه جهاز استقبال صغير .. وأحيانا يكون هذا الجهاز فى حجم حبة صغيرة يضعها فى داخل أذنه .. بينما يقف فى الخارج صديق له يحمل جهاز إرسال .. وتصل ورقة الأسئلة بطريق أو بآخر إلى هذا الصديق ويبدأ فى إرسال الأجوبة التى يتلقاها الطالب بجهاز الاستقبال ويسجلها فى أوراق الإجابة .. إن الطلبة وصلوا إلى آخر مخترعات العلم الحديث ..

ولكن .. رغم كل ما عرفه عن وسائل الغش إلا إنه لم يكن يغش .. بل إنه لا يعتبر طالبا غشاشا .. كان من الذكاء بحيث يستوعب ما يدرس بسهولة .. وكان كل ما هناك أنه يتخوف أحيانا من بعض الاسماء التى قد تصادفه للامتحان فيصعد تخوفه بالاحتفاظ ببعض الأوراق فى جيبه لعله يحتاج إليها .. وهو فخور بأنه كان ينجح دائما غير معتمد على الغش ..

ووقف عبد العزيز يستقبل الطلبة الداخلين إلى الامتحان بابتسامة واسعة ويصافح من يعرفه منهم ومن كانوا زملاء له فى الدراسة وسبقهم حتى أصبح معيدا عليهم .. وهو يردد لكل منهم :

— تاجح بإذن الله ..

وبعد أن جلسوا وتلقوا أوراق الأسئلة وهو واقف بينهم وابتسامته معلقة بين شفتيه وفى عينيه نظرات مريحة حانية كأنه يقول لهم .. الغش مسموح .. ولم يحاول أن يكون فى صورة الرقيب الجاد المتجهم الذى يبدو أمام الطلبة كأنه يهددهم بأنه سيسحق كل من يحاول منهم الغش .. وقد اطمأن الطلبة فعلا إلى ابتسامته واستراحوا إلى نظرة عينيه وبدأ كل منهم يمنح نفسه حق الغش .. ولكنهم كانوا حريصين أيضا على التستر والهدوء كأنهم يحترمون موقفه منهم ولا يريدون أن يتسببوا فى إحراجهم ..

وهو ينقل عينيه بينهم دون أن يشعرهم بأنه يراقبهم .. وقد رأى كل الوسائل التى يلجأ إليها بعضهم للغش .. ليس كلهم ولكن بعضهم .. ولكنه كان لا يحاول التدخل أبدا .. أنهم لا يغشون ولكنهم يستعينون

بمراجع أعدوها .. ولم يتدخل إلا عندما رأى طالبة فى نهاية فترة الامتحان ترفع كتابا كانت تجلس عليه ثم تبدأ فى تصفحه فى جراءة مكشوفة حتى يراها كل من حولها .. واقترب منها وقبل أن يتكلم رفعت رأسها إليه وقالت فى لهجة جادة :

— لقد انتهيت من كل الإجابات .. ولكنى أخرجت هذا الكتاب لأراجع ما كتبت .. أطمئن ..

ومد أصابعه وقلب فى الأوراق التى أمامها ووجدها قد انتهت فعلا من الإجابة على كل الأسئلة قبل أن تفتح هذا الكتاب .. وقال وهو يتسهم لها :

— هذا حقك .. آسف ..

وتركها تراجع ما كتبت فى الإجابة على الأسئلة بالنسبة لما فى الكتاب ..

ولكن لم يكن هذا هو كل ما حدث يومها ..

فقد كانت عفاف بين الطالبات الممتحنات ..

لقد مضى الآن عامان منذ أدمن النظر إلى عفاف .. كان فى عامه الدراسى الثالث عندما التحقت عفاف بالكلية .. ومنذ أن لمحها من بعيد وهو يدمن تتبعها بعينه من بعيد .. إن كل ما فيها يشير كل شئ فيه .. يشير خياله .. ويشير إحساسه .. ويشير شهوته .. وأحيانا يتصورها كأنه يغنى معها أغنية حب فى حديقة الورد .. وأحيانا يتصور أنه يضربها علقة وتضج أذناه برنين كأنه رنين صرخاتها .. وأحيانا يتصور أنه يركع أمامها ويمسح جذاذها فقط ليتمتع بلمس قدميها .. وليال كثيرة كان يحلم بها وهو نائم كأنها بين أحضانه ويشند إحساسه حتى تنور لهفته إلى نهايتها

ويتمنى خياله قطرات شبابه كأنه يضاجعها فعلا .. وأحيانا يتصور أنه يزوجها .. لماذا لا يتزوجها فعلا ؟ إنه يستطيع أن ينتظر إلى أن يتخرج ويعين فى وظيفة ويتقدم إليها .. ولكن مستحيل .. إنه لا يمكن أن يزوجها كما لا يمكن أن يتقدم إليها ليتعرف بها .. احتفاظا باعتزازه بشخصيته .. إنها منطلقة بين طلبة الكلية بجملة عجيبة حتى أثارت حولها كثيرا من الحكايات .. وأحيانا كان يتصورها فتاة سهلة يستطيع أى فتى أن يتمتع نفسه بها .. وأحيانا يتصورها كأنها ولد وليست بنتا فهى لا تبدو أمامه أبدا إلا بين الطلبة بعيدة عن الطالبات .. وهو لا يريد أن يقترب منها ويتعرف بها حتى لا يضع نفسه فى هذا الزحام ويصبح طالبا عاديا ممن يلتفون حولها فى حين أنه حريص على أن يحتفظ لنفسه بشخصية مميزة بين باقى الطلبة .. ولكنه لا يستطيع أن يتخلص من إدمانه النظر إليها .. من بعيد ..

والآن تجلس أمامه عفاف تمتحن وهو رقيب عليها .. ووقف ينظر إليها من بعيد وهو يتسهم متصورا أن ابتسامته لها لا تختلف عن الابتسامة التى ينثرها على باقى الطلبة الممتحنين ليطمئنه .. ولكن الواقع أن ابتسامته كانت لا تكاد تصل إليها حتى تزداد لمعاناً تبرق حتى يصل بريقها إلى تحسس وجنتيها .. وكانت هى أحيانا ترفع عينها إليه وتتسهم هى الأخرى ابتسامة مفتعلة ثم تفر أنفاسها كأنها فى ضيق وتعود تركيز عيناها فى أوراقها .. وكان يتعجب من زفرتها.

.. ربما كانت تحاول أن تغش وتضيق بعينيها المسلطتين عليها .. يحب أن يقاوم إدمانه ويبعد عينيه عنها حتى يطلق لها حرية الغش .. وإن كان يتمنى أن يعرف الطريقة التى ستغش بها إذا بدأت الغش ..

وتعمد أن يبتعد من أمامها ويقف في ركن جانبي خلفها .. إنه يستطيع أن يراها من بعيد يشع إدمانه النظر إليها دون أن تستطيع أن تراه .. وبعد فترة عابرة فوجئ بأنه يراها تقوم بحركات عجيبة .. إنها تميل برأسها كأنها تنظر تحت التختة الصغيرة التي تجلس إليها .. ثم تعود وترفع رأسها وتكتب في أوراق الإجابة .. ماذا تحتفظ به تحت التختة .. وغير موقفه وخطا خطوتين بحيث يستطيع أن يرى ما تحت التختة .. وفوجئ أكثر .. إن ساقها التي تحتفظ بها تحت التختة تكاد تكون عارية .. وكانت ترتدى « جيب » مشقوق من الأمام وتستطيع أن ترفع جانبه لتكشف عن جزء من ساقها .. إنها تغش ...

وقد كتبت المواد التي تغشها فوق لحم ساقها .. لعلها نقلت الكتاب كله إلى ساقها فما كتبه فوقها يغطي مساحة كبيرة من لحمها .. إنها طريقة لم يسمع بها من طرق الغش .. ولعلها طريقة خاصة بالطالبات لأن الطلبة لا يرتدون فساتين يمكن رفعها عن الساقين .. ولكن ليس هذا هو المهم .. المهم أن لحم ساقها مثير .. إنه لحم أبيض يبدو لامعا أملس رجراجا .. وحفظت عيناه فوق اللحم الأبيض .. وأحس بزوجة من الاشتاء تجتاحه .. بل أحس بأصابع يده تنقبض وتفرج كأنه يعصر بها هذا اللحم .. ولا يدري لماذا أثارت هذه الساق كل هذه الزوبعة في إحساسه رغم أنه تعود أن يرى سيقان البنات وهن يرتدين المايوه على الشاطئ .. ولكن يبدو أن ساق الينت من تحت الفستان لها مفعول آخر غير الساق التي يكشف عنها المايوه .. وقاوم نفسه برهة ولكنه مالئث أن يبدأ بحفظ مفرها منها .. ورأسها منح تقرأ من تحت التختة ما كتبه

على ساقها .. وفاجأها بأن انحنى فوقها مستندا بيد على التختة بينما مد يده الأخرى إلى لحم ساقها العارية وضمة بين أصابعه وقال هامسا بصوت خافت وهو يحرك أصابعه فوق اللحم كأنه يتذوقه :

— هل أضبطك وأنت تغشين ؟

وقالت هامسة في صوت مرتعش :

— حرام عليك يا أستاذ ..

وقال هامسا وأصابعه لا تزال تعصر لحمها :

— حتى أقرر مصيرك يجب أن أقرأ ما هو مكتوب على هذه الساق

حتى أتأكد من براءتك ..

ونظرت عفاف حولها في ارتعاش وعادت تهمس :

— كيف ؟

وقال في همسة سريعة :

— انتظريني عند منحني الشارع بعد الامتحان .. وكوني الآن على

حريتك .. ولا تنسى أني سأكون الرقيب غدا أيضا .. وهمست وهي

تتسم كأنها عرفت بخبرتها ماذا يريد منها :

— حاضر ..

ورفع أصابعه عن ساقها بعد أن ضغط عليها ضغطة أخيرة وابتعد

عنها .. لا يمكن أن يكون باقي الطلبة الممتحنين قد اكتشفوا شيئا مما

حدث .. إنها مجرد طالبة تسأل الرقيب سؤالا وهو كان يجيبها عليه

كما يحدث كثيرا أثناء فترات الامتحان ..

وانطلقت عفاف حرة مع ساقها تغش من عليها كل ما تحتاج إليه

أسئلة الامتحان .. وهو مبتعد عنها بحيث لا تراه بعينها وإحساسه

بالاشتهاء لا يهدأ .. حتى إنه لا يحس بشيء مما حوله هائما مع خياله يرسم به كل الصور التي يتماها ..

وانتهى الامتحان .. ونظر إليها وهي خارجة من اللجنة نظرة أقرب إلى التهديد كأنه يذكرها بما اتفق عليه وردت نظرته مع ابتسامة سريعة كأنها تلمثته .. واستطاع بعد أن جمع أوراق الممتحنين أن يعتذر لرئيس اللجنة عن بقية مهامه .. وانطلق كأنه يجري ..

ووجدتها في انتظاره على الناصية .. وبسرعة وبدون أن يتبادل معها كلمة استدعى تاكسي ودفعها إلى داخله وهي تقول في دهشة :
— إلى أين ؟

وقال دون أن ينظر إليها وعيناه معلقتان في قفا السائق :

— لقد اتفقنا على أن أقرأ المکتوب قبل أن أتخذ قرارا ..

وظلا صامتين وإن كان قد مد يده واحتضن يدها كأنه يخاف أن تهرب منه .. أو لعله لم يكن يريد أن يحرم نفسه من قطعة من اللحم « كأبرتيف » يحتفظ بشهيته مفتوحة ..

ووصل بها إلى بيته ..

وقال لأمه بعد أن فتحت لهما الباب :

— طالبة في الكلية سأراجع معها الامتحان اتركيها وحدنا يا أمي .
وقالت الأم مرحبة :

— ألا أقدم لكما شيئا إلى أن أعد الغداء ..

وقال عبد العزيز وهو يشد عفاف إلى غرفة الصالون :

— ليس الآن ..

وأغلق الباب وراءه ودفع عفاف لتجلس فوق الأريكة الواسعة وجلس

بجانها ومد يده يحاول أن يرفع ثوبها عن ساقها .. ولكنها مدت ذراعها تشد ثوبها حتى لا يرفعها وهي تقول ضاحكة :

— لم يكن يبدو عليك أنك بهذه الجراءة .. لماذا لم تكن أصدقاء طوال هذه الأعوام ..

وقال مقاطعا :

— أرجوك .. دعيني أقرأ ..

وقالت وهي تحاول أن تهدئه بابتسامتها :

— سأقول لك ماهو مكتوب قبل أن أمسحه :

وقال وهو لا يزال يشد في الثوب .

— سأمسحه لك أنا .. سأشربه بشفتي ..

واستطاعت عفاف أن تقفز من جانبه ووقفت أمامه قائلة :

— إنك غريب .. لعلك مبتدئ .. ليست هذه هي الطريقة التي

تصل بها إلى قرار .. وقد كنت أنظر إليك من بعيد في الكلية وكنت أعتبرك لقوة مركزك بين الطلبة أنك مستحيل .. لم يكن يخطر على بالي أبدا أنك سهل كبقية الطلبة والأساتذة ..

ونظر إليها عبد العزيز وهو لا يزال ينهج .. ثم قال وهو يميل بظهره على مسند الأريكة كأنه يستريح مما يعانیه :

— أنا أيضا كنت أنظر إليك من بعيد وكان يبعدني عنك أنى أعتبرك فتاة سهلة .. وكنت أقاومك لأنى لا أريد أن أكون كبقية الطلبة الملتفين حولك .. ولا أدري لماذا ضعفت اليوم أمامك ..

وقالت عفاف وقد علا صوتها كأنها تدافع عن نفسها :

— أنا حرة ولكنى لست سهلة .. والفتاة السهلة هي التي تستسلم

(٥٣ — ونات ..)

لإرادة من تقابله .. ولكنى أنا التى أفرض إرادتى على الجميع .. وقد كنت أقبل كل من يتقدم إلى صداقته من الطلبة لأنى أعتبر نفسى أقوى منهم جميعا .. أنا التى أفرض إرادتى .. وقال كأنه يسخر منها :

— وما هى إرادتك التى ستفرضها على ..

وقالت مبتسمة وهى تعود وتجلس بجانبه وإن كانت بعيدة عنه :

— أن نبدأ من الأول .. نبدأ من الصفر .. فأنا أريد أن أبدأ معك وأتمنى أن تبدأ معى .. ثم نعيش فى انتظار ما تقودنا إليه البداية .. ويجب أن أتأكد أولا من أنك لم تستغل موقفى كغشاشة لتفرض على إرادتك ..

وقال كأنه هو الآخر يدافع عن نفسه :

— كل الطالبات غشاشات .. بل إنى أعتبر الغش كأنه حق للطالب فى الاستعانة بالمراجع .. ولكنى ربما من طول انتظارى تحججت بالغش لأصل إليك .. أنت بالذات لا أى فتاة تغش ..

وقالت وعيناها تطوفان بكل وجهه كأنها تراه من جديد :

— إنى أحس الآن بإحساس عجيب .. أحس بأننى فى حاجة إليك ..

وقال مبتسما :

— إذا اعترفت بحاجتك إلى فهذا يعطى حق فرض إرادتى .. وما أفرضه عليك هو ألا تعودى وتكتسب على ساقك .. إن الساق تحت القستان يجب أن تحتفظ باحترامها وهيبتهما إلى أن تجد نفسها فى مايوه ..

وقالت فى حيرة مرحة :

— ولكنى فى حاجة إلى تسجيل مراجع ألجأ إليها فى الامتحان .. الساق أسهل ما تسجل عليها المراجع كما أنها لا تثير الشبهات ولا أحد يخطر على باله أنى أغش من ساقى ..

وقاضعها صاحكا :

— لقد أثارنى كلنى .. ولا تخافى الامتحان .. سأكون بجانبك واعتمدى على .. ونبدأ من الآن وتراجع معا مادة امتحان الغد ..

وأعتبر نفسه أستاذنا وأخذ يذاكر لها مواد الامتحان .. وتركته بعد أن قنعه ألا يقوم بتوصيلها حتى لا يبدأ بإثارة الشبهات وكلام الناس حولهما .. وتركته بعد أن احتضنته كله بعينين هائمتين كأنهما تطيران .. فى سماء الحب ..

وهو سعيد بها وبنفسه .. إنها ليست كما كان يتصورها فتاة سهلة منمرطة فى جرائنها بين المشبان ..

إنها فتاة حادة عاقلة تستطيع إن تفرض إرادتها .. وقد فرضت عليه أن يكونا فى البداية .. بداية الحب .. والبداية لا تسمح ولو بتبادل قبلة .. فكيفهما أن يبدأ بالصداقة وتبادل النظرات .. وهو يلوم نفسه .. لقد أحضأ فعلا عندما قرر أن ينفرد بها ليلتهم ساقها .. كان مجنوناً وهو يحاول هذه المحاولة ..

وفى اليوم التالى ذهب إلى لجنة الامتحان مبكرا واستطاع أن يحصل على ورقة الأسئلة ثم انزوى يكتب عليها إجابات مختصرة تكفى لنكون مرجعا لعفاف حتى تكتب فى الامتحان إجابات صحيحة .. ثم قام بطوف بين الطلبة والطالبات الممتحنين ويتعمد أن يقف بجانب كل

لإرادة من تقابله .. ولكنى أنا التى أفرض إرادتى على الجميع .. وقد كنت أقبل كل من يتقدم إلى بصدافته من الطلبة لأنى أعتبر نفسى أقوى منهم جميعا .. أنا التى أفرض إرادتى .. وقال كأنه يسخر منها :

— وما هى إرادتك التى ستفرضينها على ..

وقالت مبتسمة وهى تعود وتجلس بجانبه وإن كانت بعيدة عنه :

— أن نبدأ من الأول .. نبدأ من الصفر .. فأنا أريد أن أبدأ معك وأتبنى أن تبدأ معى .. ثم نعيش فى انتظار ما تقودنا إليه البداية .. ويجب أن أتأكد أولا من أنك لم تستغل موقفى كغشاشة لتفرض على إرادتك ..

وقال كأنه هو الآخر يدافع عن نفسه :

— كل الطالبات غشاشات .. بل إنى أعتبر الغش كأنه حق للطالب فى الاستعانة بالمراجع .. ولكنى ربما من طول انتظارى تحججت بالغش لأصل إليك .. أنت بالذات لا أى فتاة تغش ..

وقالت وعيناها تطوفان بكل وجهه كأنها تراه من جديد :

— إنى أحس الآن بإحساس عجيب .. أحس بأننى فى حاجة إليك ..

وقال مبتسما :

— إذا اعترفت بحاجتك إلى فهذا يعطينى حق فرض إرادتى .. وما أفرضه عليك هو ألا تعودى وتكسبى على ساقى .. إن المساق تحت السنن يجب أن تحتفظ باحترامها وهيبتهما إلى أن تجد نفسيهما فى

• قالت فى حيرة موحدة :

— ولكنى فى حاجة إلى تسجيل مراجع ألجأ إليها فى الامتحان ..

• الساق أسهل ما تسجل عليها المراجع كما أنها لا تثير الشبهات ولا أحد يخطر على باله أنى أغش من ساقى ..

• وقاضعها ضاحكا :

— لقد أثارنى كلنى .. ولا تخافى الامتحان .. سأكون بجانبك واعتمدى على .. ونبدأ من الآن ونراجع معا مادة امتحان الغد ..

• اعتبر نفسه أستاذها وأخذ يذاكر لها مواد الامتحان .. وتركته بعد أن أقنعه ألا يقوم بتوصيلها حتى لا يبدأ بإثارة الشبهات وكلام الناس حولهما .. وتركته بعد أن احتضنته كله يعين هائمين كأنهما تطيران فى سماء الحب ..

• وهو سعيد بها وبنفسه .. إنها ليست كما كان ينصورها فتاة سهلة مغرقة فى جرأتها بين الشبان ..

• إنها فتاة جادة عاقلة تستطيع أن تفرض إرادتها .. وقد فرضت عليه أن يحسن فى البداية .. بداية الحب .. والبداية لا تسمح ولو بتبادل قبلة ..

• كفيهما أن يبدأ بالصدقة وتبادل النظرات .. وهو يلوم نفسه .. لقد حطأ فعلا عندما قرر أن ينفرد بها ليلتهم ساقها .. كان مجنوناً وهو يحاول هذه المحاولة ..

وفى اليوم التالى ذهب إلى لجنة الامتحان مبكرا واستطاع أن يحصل على ورقة الأسئلة ثم الزوى يكتب عليها إجابات مختصرة تكفى لتكوين مرجعا لعقاف حتى تكتب فى الامتحان إجابات صحيحة .. ثم قام بصرف بين الطلبة والطالبات الممتحنين ويعتمد أن يقف بجانب كل

منهم ويتبادل كلمات .. إلى أن وصل إلى عفاف وألقى أمامها بالورقة التي سجل عليها الإجابات .. وقالت له هامة :

— سأكون عندك في البيت بعد الامتحان ..

وهكذا مضت كل أيام الامتحان .. يلتقى بها في بيته ويراجع معها مواد امتحان اليوم التالي .. ويزودها خلال الامتحان بكل ما تحتاج إليه لتنجح .. وبينهما كلام حلو لا ينتهي ونظرات هائلة تطير بهما .. ولكنها لا تزال مصرة على أنهما في البداية ولم يصلا بعد إلى أكثر من أن يحتضن يدها بيده ..

إلى أن كان آخر يوم في الامتحان .. وعاد إلى بيته وجلس في انتظارها كما عودته .. ولكنها لم تأت إليه .. وبدأت الوسواس تهرى عقله وتحرق في أحاسيسه .. هل تتخلى عنه بمجرد أن ينتهي الامتحان .. هل تقذفه من نافذة حياتها لمجرد أنها لم تعد في حاجة إليه ..

وانتظراها في اليوم التالي أيضا .. لعلها لم تأت أمس لأنها كانت في حاجة لاستريح من دوشة الامتحان ..

ولكنها لم تأت هذا اليوم أيضا .. أين نظراتها الهائلة .. وأين يدها التي كانت ترقد في يده ليحتضنها .. وانطلقت زوبعة تعصف بأحاسيسه .. لقد كانت تقول له إنها قادرة دائما على أن تفرض إرادتها ولكنه لن يتركها تفرض إرادتها عليه .. إن إرادتها أصبحت مرتبطة بوعود بينها وبينه .. وعود بأن يعتبرا نفسيهما في البداية .. وليس من حقها أن تكون حرة في التخلي عن هذه الوعود ..

وخرج يجري كالمجنون يبحث عنها .. إنه يعرف عنوان بيتها ..

وقف أمام بابها ساعات طويلة في انتظار أن يراها ويستولي عليها .. ولم بعدها ولكنه أحس بأصابع رقيقة تنقر على ظهره .. كأنها تستأذنه في أن يفتح بابه .. واستدار في عصبية صدمة المفاجأة .. إنها هي .. وقد رآه قبل أن يراها وجاءت إليه وعلى شفيتها نفس الابتسامة وفي عينيها نفس النظرة .. وأحس بنفسه وهو يحتضن وجهها بعينيته يشهد مستريحا كأنه أخيرا وصل .. أخيرا وصل إليها .. وقال وكلماته ترتعش بين شفيتها :

— لم تأتى اليوم ولا أمس ..

وقالت وهي تبسم ابتسامة واسعة :

— لقد انتهى الامتحان ولم أجد حجة أخرى أقنع بها نفسي لأذهب إليك ..

وقال وهو يمد يده يحاول أن يحتضن يدها :

— هناك حجة أكبر تدفعك إلى .. امتحان أكبر لك ولى ..

وقالت في دهشة وهي تبعد يدها عن يده :

— أى امتحان ؟!

وقال فوراً وبحماس :

— ستزوج .. وسأطلبك الآن من أهلك ..

وسكنت برهة وابتسامتها تضيق بين شفيتها ثم قالت كأنها تحادث نفسها :

— إن كل ما كان بينى وبينك حتى اليوم هو الغش فى الامتحانات .. ولا أعتقد أن الزواج يمكن أن يقوم على الغش أو فى حاجة إلى الغش .. لا أتصور نفسي زوجة غشاشة وأنت مستسلم لى

كغشاشة .. إن امتحان الزواج يختلف عن امتحانات الجامعة ..

وصاح في حدة :

— إني كما قلت لك لا أعترف بالغش .. ولم أعتبرك غشاشة

ولكنك كنت في حاجة أثناء الامتحان إلى مراجع قدمتها لك ..

وقالت وقد عادت ابتسامتها تتسع :

— لقد قدمت لي مراجع لامتحانات الجامعة وليست مراجع أعتمد

عليها في دراسة الزواج .. وقد قلت لك إننا يجب أن نعتبر نفسيينا في

البداية .. وللأسف فإن هذه البداية لم تتطور بي إلى أكثر من حاجتي إلى

الغش ..

وقال في دهشة غاضبة :

— ماذا تقصدين ؟

قالت وابتسامتها تتسع أكثر :

— أقصد أن تبقى كما نحن .. في البداية .. وقد نتطور إلى أبعد من

افتناعنا بحقنا في الغش .. ونصل إلى الاقتناع بالصدق .. صدق واقعي

وصدق واقعتك فنتزوج .. أو تبقى كما نحن نعيش بداية ليست في

حاجة إلى أكثر من الغش .. وعن إذنك ..

وتركنه واحتمت داخل العمارة .. وهو مذهول .. والزوجة تبهم أن

تعصف بأحاسيسه .. ولكن على العكس إنه يحس بأنه بدأ يهدأ وكأنه

يقترّب من شاطئ الأمان بعيدا عن هذه الزوجة .. حتى لو كانت غفاف

قد خدعته واستغفنه حتى يوفر لها الغش في الامتحان وتندرج بتفوق

والحمد لله الذي أنقذه من التفكير في أن يتزوج غشاشة ..

من أطلق هذه الرصاصة؟

كان يومها في منتهى التعب والإرهاق .. كان قد ذهب إلى المطار في

مصف الليل ليعود بزوجته التي تعمل مضيفة طائرات .. وهو يعلم أن

الطائرة تناخر دائما عن موعد وصولها وخصوصا في هذا الخط الذي

يمتد من طوكيو عاصمة اليابان إلى القاهرة .. وهو يعلم منذ أن أصبح

كاتبه أحد أفراد طاقم أى طائرة تكون من بينه وزوجته هناك .. يعلم أنه

تأخير متعمد في موعد الوصول .. لا نتيجة حادث أو ارتباك في الطائرة

ولكنه نتيجة تصرفات أفراد طاقم الطائرة التي أصبحت كأنها تقاليد متفق

عليها ومحترمة .. فإذا هبطت الطائرة في مطار هونج كونج مثلا منح

فرد الطاقم أنفسهم لإجازة تستمر ساعات وتركوا الطائرة وخرجوا إلى

السوق .. إن سوق هونج كونج تعتبر أرخص وأعجب سوق في العالم .

وكل منهم في حاجة لشئ من هنا .. سواء ليهدى ما يشتره أو يستعمله

شخصيا أو لبيعه في السوق السوداء في القاهرة .. ثم تهبط الطائرة في

مطار مانيلا عاصمة الفلبين .. ويترك أفراد الطاقم الطائرة

ويذهبون إلى العاصمة فإن أخت واحد منهم متزوجة في مانيلا ونصر أن

تقيم لهم دعوة فخمة كلما وصلت الطائرة إليها وتقدم لهم فيها أعاجيب

الأطعمة الفلبينية .. وبعد ساعات تقلع الطائرة إلى مطار جدة .. وواحد

منهم يريد أن يؤدي العمرة ويظوف حول الكعبة المشرفة ليذبح لأمه

بالشفا .. ومن الظلم أن يحرم واحد منهم من الدعوة لأمه .. ثم إن في

جدة كثيرا من الأصدقاء وتجد في سوقها كل ما تحتاجه مصر .. و .. وهكذا تتأخر الطائرة عن موعد وصولها ..

ورغم ذلك فقد تعود مصطفى أن يذهب إلى المطار ليعود بزوجه في الموعد المحدد رسميا .. فإن موعد التأخير ليس محلدا .. قد يتأخر موعد وصول الطائرة ساعتين أو ثلاثا أو أربعاً .. ولكن الطائرة في هذا اليوم تأخر وصولها أكثر من عشر ساعات .. قضائها متفلا بين مكاتب من يعرفهم من موظفي المطار .. أو راقدا على أحد المقاعد الخشبية في صالة الاستقبال دون أن يستطيع أن ينام أو أن يصحو ..

إلى أن وجد نفسه في اليوم التالي وهو يقود سيارته عائدا بزوجه ههنا .. وهي نائمة على المقعد بجانبه .. فمن السهل عليها أن تنام على مقعد السيارة بعد أن تعودت أن تنام على مقعد الطائرة .. وهو يضغط بكل أعصابه على عجلة القيادة التي يمسك بها حتى يظل واعيا يقاوم التعب والإنهاك .. ولا يستطيع أن ينام ولأن يصحو ..

وقد قطع الشارع الطويل حتى أصبح على حافة القاهرة فاستدار إلى شارع يؤدي إلى حي الأزهر .. وهو الشارع الذي يختاره دائما ليصل إلى بيته .. شارع مزدحم بالناس وبالسيارات والعربات الكارو .. وفوجئ بترسيكل أى بموتوسيكل له ثلاث عجلات ينحني إلى اليمين في مواجهة سيارته .. وقائده وهو رجل عجوز يسقط أمامه على الأرض .. وقد كان واعيا في هذه اللحظة .. واستطاع أن يوقف سيارته قبل أن تمس هذا التريسيكل أو سائقه .. إنه متأكد أنه لم يمسه .. ولم يكن له ذنب في كل ما حدث .. إنه يسير في خط مستقيم لم يحد عنه .. سائق التريسيكل هو الذى حاد عن طريقه وسقط أمامه .. ولكن

الحماهيم تجمعت حوله تسبه وتلعنه وتتهمه بالقتل .. لقد قتل الرجل العجوز .. الجنة ملقاة أمام عجلات سيارته .. وحاول أن يدافع عن نفسه .. ونزل من سيارته ليشير إلى مسافة الستيمترات تفصل بين سيارته والتريسيكل مما يثبت أنه لم يمسه .. ولكن كل أفراد الزحام مصممون على أنه القاتل .. واضطر أن يدخل سيارته ويقفل الباب ويرفع الزجاج حتى لا يعتدى عليه الناس وقد يقتلونه انتقاما للقتل .. وكان السرور كله قد تعطل ووقف خلفه وبجانبه كل السيارات .. وقد حاول بعض قادتها أن يقتنعوا الناس بأن مصطفى مظلوم وأنه لم يمس التريسيكل بسيارته ولكن لأحد يريد أن يقتنع ويهدأ .. والثورة تشتد حتى بدأ فريق من الأطفال يجمعون الحجارة يلقون بها على سيارته ويحاولون تحطيم زجاجها .. بينما ههنا زوجته جالسة تصرخ وتقول كلاما كثيرا لا يسمعه أحد ..

إلى أن جاءت عربة الإسعاف وحملت حثة الرجل العجوز .. وجاء البوليس وقبض على مصطفى وجره للتحقيق معه بينما تبعه عشرات من أفراد الجمهور وكل منهم متطوع للشهادة على أن هذا الرجل هو القاتل .. وللأسف لم يتبعه أحد من قادة السيارات الأخرى الذين كانوا مقتنعين ببراءته .. بينما زوجته تتبعه من بعيد وهي تبكي ..

واستمر التحقيق طويلا .. ثلاث ساعات .. أربعاً .. وقال ضابط البوليس وهو ينظر إلى مصطفى في إشفاق :

— إنى أرحح براءتك خصوصا بعد أن عانيت مكان الحادث ورسمت خطوطا على الأرض تؤكد أن سيارتك لم تصطدم بترسيكل

المصائب .. ولكن هناك إجماعا كاملا على إثبات التهمة عليك
لأستطيع أن أتجاهله وأتجاهد ..

وفجأة دخلت سيدة كانت مصرة على لقاء ضابط البوليس لتدلى
بشهادة في الحادث .. وقالت فوراً دون أن تنظر إلى المتهم مصطفى :
— إن الحادث وقع أمام العمارة التي أقيم فيها وقد كنت واقفة في
الشرقة ورأيت كل شيء .. إن السيارة لم تصدم التريسيكل .. إنى
متأكدة .. رأيت كل شيء بعيني ..

وأحس مصطفى كأنه يهم بأن يلقي بنفسه تحت أقدام هذه السيدة
ويقبل حذاءها بأنها السيدة الوحيدة التي تشهد ببراءته .. وتكلف نفسها
أن تأتي إلى قسم البوليس لتنقده ..
وقال ضابط البوليس بلا مبالاة :

— إذن كيف سقط السائق على الأرض ..

وترددت السيدة برهة ثم صاحت كأنها تتحدى البوليس :

— من أين أدري كيف سقط .. كل ما رأيته هو أنه سقط على الأرض
دون أن تمسه هذه السيارة ..

وسجل ضابط البوليس شهادة السيدة بعناية كبيرة .. وقام مصطفى
يشكرها في كلمات حارة وصادقة قبل أن تنصرف .. وقد تقبلت شكره
صامتة دون أن تنظر في وجهه ..

وقال مصطفى لضابط البوليس الذي تركه جالساً بجانبه ولم يرسله
إلى التخبئية رحمة به :

— هذه شهادة براءتي .. ألا تستطيع أن تتركني الآن أعود إلى بيتي
وأكون تحت أمر التحقيق وتحت أمرك ..

وقال ضابط البوليس في إشفاق :

— هذه شهادة واحدة بين عشرات الشهادات التي تدينك ..
لأستطيع أن أكفي بها للإفراج عنك .. وأنا في انتظار نتيجة الكشف
العلمي على المصائب .. حتى أستطيع أن أتخذ قراراً بالنسبة لك .. وقد
أرملت الباشجاويش خصيصاً ليتعجل الكشف ..

وقال مصطفى في توسل :

— هل تستطيع زوجتي أن تعود بالسيارة إلى البيت .. إنها منهكة بعد
أن طارت ساعات طويلة من طوكيو إلى القاهرة .. وهي لا تريد أن
تتركني وتعود إلى البيت إلا إذا كانت السيارة معها فهي محملة بكل
ما اشترته خلال رحلتها .. وتخاف أن تترك السيارة ربما أكثر مما
تخاف أن تتركني ..

وضحك ضابط البوليس ضحكة إشفاق وقال :

— لا مانع أن تأخذ زوجتك السيارة وتعود بها إلى البيت فقد رسمت
موقع الحادث .. وهذا يكفي ..

وتركت زوجته هناء وحيداً مع ضابط البوليس ..

وهو مرتنع على المقعد الذي يجلس عليه يهده التعب والإرهاق
وأعضابه كلها تكاد تكون ملتهبة .. ويرتخي جفناه فوق عينيه كأنه
نام .. لقد مضى عليه الآن أكثر من عشرين ساعة دون أن ينام .. ولكنه
لا يلبث أن يرفع جفنه عن عينيه كأنما ألقفه دخول قضية جديدة على
حاضرة الضابط أو شخص آخر مقبوض عليه ..

وفتح عينيه أخيراً على صوت جرس تليفون الضابط .. ورواً يستمع
وحاجباه يرتفعان في دهشة .. ويردد .. غريبة .. غريبة ..

وألقى الضابط بسماعة التليفون ثم قال كأنه يحدث نفسه :
— انتهى الكشف الطبي .. وقد مات الرجل .. مات مقتولا ..
وقبل أن يصرخ مصطفى دفاعا عن نفسه .. استطرد ضابط البوليس قائلا كأنه يحدث نفسه :

— هل تدري كيف قتل .. لقد أصابته الرصاصة فى منتصف قمة رأسه فقتلته .. وسقط من فوق التريسيكل مقتولا ..
وقال مصطفى فى ذهول :

— كيف حدث هذا .. كيف يقتل فى منتصف الشارع وأمام الناس .. ودون أن يدري أحد ..

وقال ضابط البوليس مبتسما من خلال خطوط بدأت تتجمع على جبينه كأنه يعانى من التفكير فى موضوع صعب :

— طبعا لست أنت الذى قتلته .. فليس معك ولا فى سيارتك مسدس .. ثم إن وضع الرصاصة التى وجدت فى رأس القتيل لا يمكن أن تصل إليه من اتجاه جلستك داخل السيارة .. أنت برىء .. مفرج عنك .. تستطيع الآن أن تنصرف .. وأقدم لك أسفى واعتذارى مما حملته لك .

ولكن مصطفى لم ينصرف .. لقد دب فى أعصابه نشاط أنساه تعب وإرهاقه .. يريد أن يعرف كيف قتل هذا الرجل الذى اتهم هو بقتله ..
وقال ضابط البوليس وهو لا يزال كأنه يحدث نفسه :

— إذا كانت الرصاصة قد أصابت منتصف قمة الرأس فلا شك أنها أطلقت من أعلى .. أى من فوق موقع القتيل .. والاحتمال الوحيد فى

هذه الحالة أن تكون الرصاصة قد أطلقت من نافذة أو شرفة إحدى الممرات التى تحيط بموقع الجريمة ..

وفجأة قفز ضابط البوليس من وراء مكتبه ثم خرج وجمع عددا من رجال البوليس حوله واستدعى سيارتين ركب فى إحداهما وسمح لمصطفى أن يركب بجانبه فقد كان ملهوبا على أن يعرف كل شيء ..
وكان الضابط كان يبالغ فى الاعتذار لمصطفى بالاستجابة إلى لهفته .. والسيارة الثانية تتبعها محملة بأفراد قوة مركز البوليس ..

ووصلوا إلى موقع الحادث .. ووقف الضابط يدير عينيه بين الممرات كأنه يقيس موقع كل منها .. ثم جمع القوة ودخل بها إحدى هذه الممرات .. ولم يتوقف عند الدور الأول من العمارة فأتجاه الرصاصة لا يمكن أن يبدأ من عند مستوى الدور الأول .. كان يبدأ من الدور الثانى ويدخل كل شقة ويسأل ويفتش .. كان يبحث عن أى شخص على معرفة بالقتيل .. كما كان يفتش لعله يجد مسدسا أو بندقية يمكن أن تكون قد أطلقت منها الرصاصة .. ولكنه لم يجد شيئا مما يبحث عنه فى العمارة الأولى .. وكان يترك كل شقة معتذرا لسكانها وإن كان قد أمر بالقبض على اثنين لأنه وجد فى أدراج كل منهما قطعة من الحشيش ..

وقد قال مصطفى لضابط البوليس عندما بدأ فى هذا التفيش :
— ألم يكن من الواجب الحصول على إذن من النيابة أولا ؟
وقال الضابط ساخرا :

— إذن النيابة موجود دائما .. وليس من الصالح أن نتنظر حتى يستطيع المجرم أن يخفى ما يبحث عنه ..

وبعد أن انتهى البوليس من تفتيش العمارة الأولى انتقل إلى العمارة الثانية التي تحيط بالموقع .. ووجد مصطفى نفسه يدخل مع البوليس شقة في الدور الثالث هي شقة السيدة التي تطوعت لإنقاذه بالإدلاء بشهادتها .. وعرف أن اسمها فردوس .. وقد استقبلت البوليس فى بساطة .. وكانت تمسك فى يدها بيد ابن فى الثامنة من عمره .. وتلتصق بها ابنة لعلها فى العاشرة .. وعندما سألها البوليس عن رجل البيت أجابت وهى تتنهد فى أسى .. الله يرحمه .. وعندما سألوها هل تعرف القتيل .. أجابت أنها لا تعرف حتى شكله .. ففى لم تره إلا من شرفتها بعد أن سقط على الأرض .. وتم تفتيش الشقة وتم فى بساطة وبمجردلقاء نظرات .. فلا يمكن أن يكون لدى هذه الأرملة الوحيدة أى سلاح ..

وكان مصطفى طوال فترة تفتيش شقة فردوس يكرر لها شكره على تكليف نفسها مشقة الذهاب إلى مركز البوليس للمشاهدة ببراءته .. وقال لها :

— ولو كنت أعلم أن هذه المشقة هى بيتك لمنعت البوليس من الدخول عليك وإزعاجك ..

وقالت مبتسمة ابتسامة تغلب عليها المرارة :

— إن البوليس منذ بدأ تفتيش العمارة المجاورة وكل الشقق والبيوت فى انتظار التفتيش .. فلم أفاجا بتشریفكم وإن كنت لأدري سبب هذا التشریف ..

وعاد مصطفى يعتذر لها ويكرر شكره ..

لَمْ يَعدَ يحتمل التعب والإرهاك بعد تفتيش شقة فردوس .. فاعتذر

بصديقته ضابط البوليس وعاد إلى بيته وألقى بنفسه نائما .. وكأنه لن يصحو أبدا ..

ومضت ثلاثة أسابيع على الحادث دون أن يصل البوليس إلى شىء .. ولا يزال سر إطلاق الرصاصة على رأس العجوز قائد التريسيكل مجهولا .. والقضية كلها أصبحت قضية ضد مجهول .. ومصطفى لا يكف عن رواية الحادث كلما سنحت له فرصة الكلام .. سواء تكلم لأحد أو تكلم مع نفسه .. ولا يستطيع أن ينسى أبدا فردوس .. السيدة المحترمة التى تطوعت وتحملت المتاعب لتشهد أمام البوليس لصالحه .. إن الدنيا لا تزال تضم ملائكة وسط زحامها بالشياطين .. كأنهم يهبطون من السماء لإنقاذ البشر .. ماذا كان يدفع فردوس إلى التطوع لإنقاذه لولا أنها ملاك وهب نفسه لفعل الخير وإنقاذ المظلوم .. وأخذ يلح على زوجته هناك بأن تصحبه لزيارة فردوس وتقديم هدية لها اعترافا بجميلها وشكرا على تطوعها لإنقاذه .. صحيح أنها لم تكن السبب المباشر لإنقاذه .. فقد كانت الرصاصة التى وجدت فى رأس العجوز القتيل هى التى أنقذته .. ولكن يكفى أن فردوس تطوعت لمحاولة إنقاذه بعد أن تخلى عنه كل الناس وهرب سائقو السيارات الذين حضروا الحادث وكانوا يستطيعون المساهمة فى إنقاذه .. ولم تكن هناك مقتنعة بأن تصل إلى حد زيارة فردوس فى بيتها .. إنها تفضل أن تنسى الحادث كله بما فيه فردوس .. ولكن مصطفى مستمر فى الإلحاح عليها .. وهو لا يستطيع أن يذهب لزيارة فردوس وحده .. هذا ليس لانقا .. وقد تثير زيارته شكوكها .. بل قد تثير كلام الناس ..

فردوس لا تزال امرأة ناضجة لم تصل بعد إلى سن اليأس من أنوثتها .. وهو لا يستطيع أن يزورها إلا بمعه زوجته .. زيارة عائلية ..

واضطرت هناء أن تستسلم لإلحاح زوجها وهي تفر أنفاس الضيق .. ماذا يدفعه إلى هذا التصميم على زيارة فردوس .. إنه مجنون .. والواقع أنه لم يكن هناك ما يلح على مصطفى لزيارة فردوس إلا عرفانه بجميلها الذي أسبغته عليه ولم يكن ينتظره من أحد ..

وذهبا إلى فردوس في يوم إجازة لهناء من عملها كمضيفة ولا تسافر فيه على إحدى الطائرات .. وقد حملا لها « تورتة » في حجم الفطيرة الكبيرة الزاهية بالألوان ومعها هدية أخرى عبارة عن بنطلون وقميص لصبي صغير كانت هناء قد اشترتها من لندن لابن أختها ولكنها لم يتسعا لحجمه ..

واستقبلتهما فردوس بترحاب مهذب وكلماتها ترن بلهجتها البلدية .. إنها رغم مستواها المحترم فهي بنت بلد .. واستلمت الهدايا شاكرا وهي تردد من خلال فرحتها الهادئة :

— لماذا يا ست هانم .. لماذا كل هذا يا سعادة البية .. ماذا فعلت أكثر من أن قلت ما رأيته ..

فأخذ مصطفى كعادته بعيد رواية الحادث كله ويكرر شكره لفردوس .. بينما زوجته جالسة صامتة تضج من الزهق .. وفجأة دخل عليهم الصبي الصغير ابن فردوس الذي كان مصطفى قد لمحّه واقفا في البلكونة وقال لأمه دون أن يقترب من أحد من الضيوف :

— أين ممدس بابا يا ماما .. أريد أن ألعب به ..

وارتعشت فردوس وصرخت في وجه ابنها صرخة مفاجئة :

— امش من هنا يا ولد ..

ثم عادت تصرخ وتنادى ابنتها الكبرى وقالت لها :

— خذى أخاك وابقى معه في الحجرة الأخرى حتى لا يزعج الضيوف ..

ومصطفى أحس بأنه فوجئ بشيء جديد .. وجحظت عيناه وهو ينظر إلى فردوس كأنه يسألها .. ما هي حكاية هذا الممدس الذي كان يملكه أب الصبي ..

وهأت فردوس قليلا بعد أن مرت بها برهة تهدجت فيها أنفاسها وقالت وهي تبذل مجهودا لتضع على شفثيها ابتسامة تبدو مفتعلة :

— إنه ولد متعب .. كان المرحوم والده قد اشترى له ممدسا صغيرا كلعبة يلعب بها .. وقد أضاعه .. ومن يومها وهو يسأل عن هذا الممدس .. ولا أشترى له غيره فأني لأحب أن يلعب الأولاد بالممدسات ..

وخيال مصطفى يأخذه بعيدا ويحس كأنه يرى عالما آخر أو كأنه يبدأ في رواية قصة جديدة عن كل ما حدث .. وتعهد كأنه مستمر في تبادل الحديث العائلي مع فردوس وسألها :

— متى توفي المرحوم ..

وقالت فردوس وهي تنتهد في حزن تكاد تهم بالبكاء :

— منذ سبعة أشهر واثني عشر يوما ..

ثم نظرت إلى الساعة المعلقة في الجدار واستطردت :

— وخمس ساعات ..

واشترك مصطفى وزوجته هناء في عزاء فردوس والتخفيف من

حزنها على ذكرى المرحوم .. ولكن مصطفى انتهر سياق الحديث عن المرحوم وعاد يسأل :

— وماذا كان يعمل ..

وأجابت فردوس كأنها تنبأهى بزواجها المرحوم :

— كان محصلا يجمع كل مستحققات الشركة .. وكان معروفا ومشهورا بأنه فى قمة الأمانة .. لقد كان يعود إلى البيت أحيانا وهو ينحمل حقيبة وهى مكدسة بآلاف الجنيهات .. عشرات الآلاف .. وكان يرفض أن يفتحها أمامى لمجرد الفرجة .. كنت أتحايل عليه ليربنى شكل النقود عندما تتكدس فوق بعضها وتصبح ألوفاً .. ولكنه كان أميناً إلى حد ألا يسمح لأحد حتى لزوجه أن ترى أموال الشركة ولو لمجرد نظرة ..

واستمع مصطفى وخياله يأخذه إلى أبعد ..

وانتهت زيارة فردوس وأخذ يقود سيارته وزوجه بجانبه دون أن ينطق بحرف واحد على غير عادته وما هو معروف عنه من أنه لا يكف عن الكلام ..

إنه مأخوذ بخياله ..

إنه يعرف الآن من أين انطلقت الرصاصة التى أصابت العجوز الذى كان يقود التريسيكل وقتلته ..

إن زوج فردوس كان محصلا .. والمحصلون خصوصاً الذين عليهم تحصيل مبالغ كبيرة يحملون دائماً سلاحاً مخصصاً يدافع به عن نفسه وعما يحمله من أموال إذا طمع أحد فى سرقة .. وقد مات زوج

فردوس وترك وراءه سلاحه .. المسدس .. ولعل الشركة التى كان يعمل فيها لم تطالب باسترداد هذا المسدس بعد موت الفقيد .. أو لعله كان ملكاً خاصاً له .. وأهملت فردوس هذا المسدس وتركته بين مخلفات زوجها ملقى فى الدولاب أو أدراج البيت .. والتقطه ابنها الصغير الذى لم يتجاوز الثامنة من عمره وأخذ يلعب به دون أن تهتم أمه ودون أن تكشف عن داخل هذا المسدس لتأكد من خلوه من الرصاص القاتل .. أو لعلها كشفت عنه ولم تنبه أنه لا تزال فيه رصاصة .. وابنها يلعب بالمسدس وهو واقف فى الشرفة مقلدا الأفلام التى يراها فى التلفزيون .. مقلدا .. بطل .. وضغط على الزناد .. وانطلقت الرصاصة .. وقتل الرجل العجوز ..

ولاشك أن أمه كانت واقفة بجانب ابنها فى الشرفة .. ورأت القتل يسقط .. ثم رأت الناس تهجم على مصطفى وتهتمه بأنه صدم العجوز بسيارته وقتله .. وتحرك قلبها الطيب وإيمانها بالله .. إن ابنها قتل الرجل العجوز .. ولكنه الآن سيكون سبباً فى قتل هذا الرجل الآخر الذى يتجمع حوله الناس ويكادون يفترونه .. إن الله قد يعاقب ابنها لأنه قتل واحداً .. ولكن عقاب الله سيكون أقسى وأشد إذا قتل اثنين .. إنها يجب أن تنقذ هذا الآخر تخفيفاً من غضب الله على ابنها .. وهى لا تدري كيف تنقذه .. ولكنها مصممة على أن تخفف من غضب الله على ابنها .. وقضت ساعات وهى مترددة وتفكر بدليل أنها لم تذهب إلى قسم البوليس إلا بعد أربع ساعات من القبض عليه .. ذهبت لتشهد بأنه برئ .. وهذا هو كل ما تستطيع ..

هذه القصة تسيطر على خيال مصطفى حتى تحولت إلى واقع يعيش فيه .. وقد أراد أن يتأكد أكثر كأنه يحقق مع نفسه .. وكان قد عرف اسم المرحوم زوج فردوس .. عبد الله عبد الغنى عبد الله .. فذهب إلى سجلات الترخيص بحمل السلاح وأخذ يقلب فيها أياما حتى وجد هذا الاسم .. إنه مخصص له بحمل مسدس .. وهو مسدس من نفس النوع الذى انطلقت منه الرصاصة القاتلة ..

ولكن البوليس لم يعثر على مسدس فى شقة فردوس عندما فتشها .. وابتسم مصطفى بينه وبين نفسه .. إن البوليس لم يفتش تفتيشا جادا .. ثم أن فردوس قالت له إن كل الشقق والبيوت كانت فى انتظار هذا التفتيش بمجرد أن بدأ البوليس بالعمارة الأولى .. ولا شك أنها أخفت المسدس عن أن يصل إليه أى تفتيش أو لعلها بحكم الجهل أخفته فى سيفون دورة المياه .. رغم أن البوليس أصبح بحكم تعامله مع الجبهة يبدأ التفتيش دائما بسيفون دورة المياه ..

ماذا يفعل الآن ؟!

هل يبلغ البوليس والنيابة لإعادة التحقيق فى مقتل العجوز قائد التريسيكل .. حتى يؤكد تبرئة نفسه ويحقق العدالة .. ويردع الأمهات اللاتى يتركن أطفالهن يلعبن بالأسلحة والمسدسات ؟!

مستحيل ..

إنه لا يستطيع أن يرد جميل المرأة التى تطوعت لإنقاذه بتعريضها هى وابنها للمرمطة وعذاب البوليس والنيابة .. ثم إن الحادث قيد ضد مجهول بعد أن عجز البوليس عن معرفة من أطلق الرصاصة القاتلة ..

وهذا الصبي الصغير يعتبر بحكم سنه لا يزال مجهولا .. إنه لم يوجد بعد .. لا يمكن أن يكون إنسانا كاملا يحاسب ويعاقب على أفعاله وأصرافاته .. إنه مجهول كما أثبت تحقيق النيابة .. ومصطفى لا يزال يروى الحكاية فى كل ندوة تجمعهم بأصدقائه ولكنه يحذف منها الجزء الأخير الذى يثبت اكتشافه لمن أطلق الرصاصة القاتلة ..

كانت تزور قبر حياتها ..

كانت ناهد منذ وعت الحياة وهي على قدر ما تحب أمها تحس بالعجز منها وتنتابها لحظات تنهم أن تنور عليها .. ورغم ذلك لم تكن أبدا تستطيع أن تتأكد من دوافع هذا الإحساس بالعجز أو الثورة .. إنها أم كاملة .. حادة .. محترمة .. تستطيع أن تفرض شخصيتها على كل المجتمع الذى تعيش فيه ويحيط بها .. ورغم أنها امرأة جميلة ومعروفة بين باقى الأمهات أنها جميلة إلا أنها لم يبد عليها أبدا أن جمالها يجعل منها امرأة كبقية الجميلات .. امرأة مغرورة تحس بهذا الجمال وتحرس على استغلاله فى معاملتها أو فى مظهرها داخل المجتمع .. كما أن ناهد لم تحس أبدا بشيء ينقصها من أمها .. أنها ترعاها وتحيطها بكل ما تحتاجه أو حتى تمناه بنت من أمها .. ورغم ذلك فإن ناهد تحس أن لأمتها سرا لا تعرفه .. تحس كأن لها حياة أخرى غير حياة الأم وحياة البيت .. بل تحس كأن فى حياة أمها رجلا آخر غير أبيها .. وقد دفعها هذا الإحساس منذ البداية إلى أنها نشأت وهي تحس كأنها تشفق على أبيها وتعتمد أن تفيض عليه بحنانها والتدلل عليه وملاعبته والانشغال به .. ربما بكثير من المبالغة عما تعودته البنات فى تدليل الآباء .. حتى أصبح معروف عنها أنها تحب أباه أكثر مما تحب أمها .. وأن كان ما تحس به هو أنها تعتمد أن تعوضه عن شيء ينقصه من أمها .. وإن كانت لا تعرف ما ينقصه من أمها .. إنها تعيش مجرد إحساس ..

وربما كان هذا الإحساس قد بدأ ينتابها منذ كانت صغيرة وكانت معها فترات يكون أبوها قد خرج من البيت وترى أمها تحمل التليفون وتدخل به إلى غرفتها وتقف الباب وراءها بالمفتاح ثم تقضى وقتا طويلا وهي تتحدث فيه بصوت وإن كان خافتا إلا أن رناته تسمع من خارج الغرفة .. وعندما كبرت قليلا بدأت تسائل نفسها .. ترى من تحدث أمى .. وعندما كبرت أكثر بدأت تتصور أنه مادامت أمها لا تتحدث هذا الحديث إلا بعد أن يخرج أبوها وبعد أن تغلق وراءها الباب بالمفتاح فلا شك أنها تحدث رجلا بينها وبينه حكاية .. خصوصا وأن أمها لا تقول لها شيئا أبدا عن هذا الحديث كما تعودت أن تقول لها عن أحاديثها مع صديقاتها أو مع البقال والجزار .. وقد قل وجودها مع هذه الأحاديث بعد أن دخلت المدرسة .. ولكنها كانت وهي فى المدرسة نمر عليها فى كل يوم لحظات وهي تتخيل صورة أمها وقد حملت التليفون ودخلت به حجرتها وأغلقت وراءها الباب .. بل إنه بدأت تمر بها أيام ترى فيها أمها تخرج وحدها من البيت تحيط بها مظاهر غير المظاهر العادية التى تحيط بكل مرة تخرج فيها .. وتجد ناهد نفسها تتصور أن أمها قد خرجت للقاء هذا الرجل الآخر .. وربما كانت ناهد تريد تأكيد مما تتصوره لأنها لا تحس به إلا فى أيام متباعدة .. ربما يمر أسبوعان أو ربما شهر كامل وأمها تخرج دون أن ينتابها هذا التصور .. إن أمها سيدة حريصة لا تنهار وراء الرجل الآخر وتبخل عليه بالخروج إليه حرصا على مظهرها وارتباطها بالعائلة والبيت .. وهي فى كل يوم تحاول أن تتجراً على أمها وتسالها عن تحدثه فى التليفون وراء الباب المغلق .. ولكنها تحس أنها لو سألتها فكأنها

تتهمها .. فكيف تتهم أمها وهي ليست متأكدة من شيء .. وتقاوم ..
وتدفعها المقاومة إلى هذا الإحساس بالغضب من أمها وكأنها تهم بالثورة
عليها .. بل إنها استطاعت يوماً أن تتجراً وتسأل أمها .. ضغطت على
أعصابها وانتظرت حتى فتح الباب المغلق بعد أن انتهت أمها من حديث
التليفون وقالت لها وهي تتفعل ابتسامة تبدو بها طبيعية :

— من كنت تحادثين يا ماما ؟

وترددت الأم في لحظة عابرة ثم ضحكت ضحكة عالية تبدو مفتعلة
وقالت وهي تحتضن ابنتها :

— إنه حديث كل يوم .. فالتليفون مهمة عائلية لا أستطيع أن أتخلى
عنها .. ففي كل يوم يجب أن أسأل عن أمي وعن إخوتي الثلاثة .. وهو
حديث يبدأ دائماً بالحديث عنك وعن الأولاد والبنات .. وأحياناً إذا
اتسع الوقت أسأل عن بنات العم والصدىقات أو أضطر للتحديث مع
البقال .. إننى لا أستطيع أن أستغنى عن التليفون كما لا أستغنى عن الأكل
والشراب ومتاعب البيت .. ولذلك أتحدث من غرفتي بعد أن أغلق
الباب حتى أتفرغ للتليفون .. وإياك يوم يكون لك بيت أن تتركى يوماً
يمر دون أن تحادثينى وأحادثك فى التليفون .. كيف أطمنن عليك كما
أطمئن أنا على أمي وإخوتي ..

وسكتت ناهد ..

لعل أمها صادقة .. ثم لماذا تشغل نفسها بهذه الأوهام .. إن كل من
فى البيت سعيد .. أبوها سعيد .. وأخوها سعيد .. وأمها طبعاً

سعيدة .. فلماذا تحاول هي تعكير سعادتها .. ورغم ذلك فهي
لا تستطيع أن تخلص من هذه الأحاسيس التي تدفعها إلى الغضب من أمها
رغم أنها تحبها ..

وكبرت ناهد .. إنها فى الثالثة والعشرين من عمرها وقد انتهت من
دراساتها الجامعية وأصبحت موظفة فى الشركة .. وقد أعلنت خطوبتها
إلى ياسر بعد قصة حب طويلة بدأت منذ التقيها فى الجامعة وسيتم الزفاف
بعد شهرين عندما يكون قد انتهى من فترة تجنيده .. إنه حب أهم ما فيه
هو المصارحة الكاملة بينهما .. إنها تعلم كل شيء عنه .. وهو يعلم كل
شيء عنها حتى إنه من كثرة ما عرف أصبح يعتبرها هو الآخر وكأنها
تحب أباه أكثر مما تحب أمها ..

إلى أن كان يوم استأذنت فيه من عملها فى الشركة بعد أن أحست
بتعب .. إنها تعب دائماً كلما همت بها الدورة الشهرية .. وعادت إلى
البيت .. ورأت أمها فى غرفتها وهي محتضنة آلة التليفون وتحدث
دون أن تغلق الباب كعادتها .. ربما كانت مطمئنة إلى أن ابنتها فى
عملها خارج البيت كزوجها .. وانزوت ناهد قبل أن تراها أمها وأخذت
تسمع ما تقوله أمها فى التليفون .. إنها تسمع كلاماً غريباً وأمها تقول
لمن تحادثه :

— كيف أنساك يا ممدوح .. إننى من يوم أن ولدت ناهد وأنا أعيش
معك كل يوم بل كل لحظة .. وتشغلنى كما تشغلنى ناهد .. هل
نسيت .. إن ناهد هي أنت ..

وانتابت ناهد نوبة من الذهول .. واتسعت عيناها جاحظتين ..
وانفرجت شفتاها كأنها تشقى .. وأقت ظهرها مستندة على الجدار
كأنها تخشى أن تقع مغشيا عليها ..

ماذا يعنى هذا الكلام الذى تقوله أمها ..

لا .. لا يمكن أن يكون معناه هو ما خطر على بالها وهى تسمعه ..
ولكنه كلام ليس له أى معنى آخر .. كلام ليس له إلا معنى واحد ..
معناه أن أمها أنجبتها من هذا الرجل الآخر .. إنها ليست ابنة أبيها
ولكنها ابنة هذا الآخر الذى سمعت اسمه .. ممدوح .. وإلا فما معنى
أن أمها منذ أنجبتها وهى لا تستطيع أن تنسى ممدوح ولو ليوم واحد أو
لحظة .. لأنه هو الذى أنجبها منها .. إنه هو أبوها .. وليس أبوها هو
الذى تحمل اسمه فى شهادة الميلاد .. والذى تعيش معه وتحبه كل هذا
الحب كأب ..

إن أبها ليس اسمه ممدوح ولا تعرف بقية اسمه لأنه ليس مسجلا فى
شهادة ميلادها .. إن أمثالها لا يسجل لهن أسماء آبائهن فى شهادات
الميلاد .. لأنها ابنة حرام ..

إنها ابنة حرام ..

ووجدت نفسها تتحامل وتزحف إلى حجرتها دون أن تدخل إلى
أمها وهى تكاد تسقط فى كل خطوة تزحف بها .. إلى أن ألقت بنفسها
على فراشها كأنها ترهق أنفاسها الأخيرة ..

وزوجة تعصف بفكرها وتطلق فيها صور يرسمها خيالها ..

إنها ليست ابنة بابا رفعت .. إنها ابنة رجل لا تعرفه اسمه ممدوح ..

إنها ابنة حرام ..

ابنة حرام ..

وتبدأ الزوجة فترة ويبدأ فكرها وكأنه يحكى لها حكاية .. إن أمها
عرفت ممدوح وهى زوجة رفعت .. إنها زوجة لواحد وعشيق
للآخر .. ومثل هاتيك النساء إذا حملن لا يستطعن تقدير ابن من
سينجب .. هل ينجب من الزوج أو من العشيق ... ولكنهن يستطعن
دائما أن ينسبن المولود للزوج حتى لو تأكدن أنه من إنجاب العشيق ..
ولكن كيف استطاعت أمها أن تتأكد أن ابنتها من نسل عشيقها لا من
نسل زوجها حتى أصبحت لا تراها إلا وترى فيها صورة العشيق كما
قالت فى التلفزيون .. وكيف تتأكد هى من أنها ليست ابنة أبيها الذى
تحمل اسمه ولكنها ابنة الرجل الآخر .. ابنة الحرام .. إنها تتذكر أنه
كان لها زميلة فى المدرسة الثانوية كانت متهمة بأنها ليست ابنة أبيها ..
ولكن هذه الزميلة كانت أمها سيئة السمعة ومعروفة بأنه كان لها
عشيق .. ثم كان يقال إن هذه الزميلة تشبه العشيق فى كل تفاصيل
خطوط وجهها .. ولكن أمها هى ليست سيئة السمعة .. بالعكس .. إن
الناس يعتبرونها أظهر الزوجات .. وهى فى كل مظهرها جادة ومحترمة
ومتعالية عن كل ما يمكن أن يمس مظهر امرأة .. ولكن هل أنجبت ابنتها
وفىها شبه من زوجها .. لا .. إن ناهد تعرف نفسها ويعرف عنها كل
الناس أنها تشبه أمها وليس فيها أى خط من خطوط أبيها .. الأب الذى
تعرفه وتحمل اسمه ..

وقفزت ناهد من الفراش والتقطت مرآة صغيرة وعادت ترقد وهى
تبحلق فيها كأنها تبحث فى تفاصيل خطوط وجهها من جديد لعل خطأ

قد فاتها منه .. خط من خطوط وجه أبيها .. ولكن لا شيء .. إن أنحأها الأكبر يحمل الكثير من خطوط وجه أبيها .. أما هي .. فلا خطأ واحدا أخذته عنه .. إنها كلها صورة من أمها .. ولكن لا .. لقد بدأت عيناها تتركز آن على ملامح لم تكن تهتم بها من قبل .. إن بياض لون بشرتها أفتح قليلا من بياض لون أمها .. واكتشفت أن أذنيها أعرض قليلا من أذني أمها .. وأصابع يديها أقصر وممتلئة أكثر من أصابع أمها .. ثم شعرها .. شعر رأسها .. لقد نسيت ناهد هذا الشعر .. إنه ليس في لون شعر أبيها ولا شعر أمها .. إنه يعيل إلى اللون الأصفر الداكن .. في حين أن رأس أبيها ورأس أمها يحملان شعرا داكن السواد .. وقد كانت وهي صغيرة يتندر أفراد العائلة بلون شعرها .. وكانت أمها تقول لها إن جدتها كانت سيدة من تركيا شعرها أصفر فاتح ولعلها جاء لون شعرها متأثرا بلون شعر جدتها .. وحتى أبوها الذي تعيش معه كان يقول لها كأنه يطمئنها إن عمه كان متزوجا من سيدة إنجليزية .. ولذلك فأولاد عمه شعرهم فاتح اللون ولعلها ورثت هذا اللون مع أولاد عمه أو لعل أمها توحمت على هذا اللون وتمتته لها .. ولكن الآن .. وبعد أن عرفت لماذا لا يكون هذا اللون هو لون شعر الرجل الآخر .. عشيق أمها .. أبيها الذي لا تعرفه ..

وعادت الزواجع تعصف بفكرها ..

إنها يجب أن تواجه أمها .. تواجهها بكل إصرار مهما بلغ بها الإصرار من تحديها والقسوة عليها حتى تعرف كل شيء .. إن من حقها أن تعرف من هو أبوها .. حتى لو كانت ابنة حرام .. لقد كبرت الآن ويجب أن تعيش واقعها ومهما عذبها هذا الواقع فهو عذاب أرحم من

الحيرة والتشتت اللذين يمزقانها ويهريان فكرها ويمزقان كل قطعة منها ..

وتعود الزواجع وتخفت قليلا من حول فكرها .. وتسائل نفسها : إلى أين ستتهي بها مواجهة أمها .. لقد عاشت طوال عمرها وهي تمر في لحظات تشك خلالها في أمها كلما اختبأت في غرفتها مع التليفون ويتأهبها الإحساس بالغيب منها والثورة عليها .. ولكنها لم تواجهها أبدا بهذه الأحاسيس .. ومضت الحياة سعيدة هادئة لا ينقصها فيها شيء ولا يعكرها سوى هذه الأحاسيس العابرة .. فماذا يحدث لو واجهتها بعد أن أصبحت شكوكها اتهاما .. كيف تستطيع أن تعيش معها بعد ذلك .. وكيف تستطيع أن تعيش مع أبيها وأخيها .. كيف تستطيع أن تعيش في هذا البيت .. بل ماذا يكون مصير هذا البيت الهادئ السعيد .. وتجمدت عيناها وهما معلقتان في سقف الغرفة .. عندما وصل بها التساؤل إلى مصيرها مع خطيبها وحبيبها ياسر .. إن جبهما قائم على المصارحة الكاملة بينهما .. كل منهما يعرف كل شيء عن الآخر .. فهل تصارحه بأنها ابنة حرام بعد أن تأكد أنها فعلا ابنة حرام .. وهل يبقى حبه كما هو بعد أن ينتقل من حب ابنة شرعية إلى حب ابنة حرام .. إنها هي نفسها قد لا تستطيع أن تحبه وهي ابنة حرام كما تحبه الآن وهي ابنة كاملة ..

وانطلق في صدرها قرار كالصراخ .. لا .. إنها لن تواجه أمها ولن تصارحها بما اكتشفته ويعذبها كل هذا العذاب .. ويجب أن تبحث عن حياة تخفف عنها ..

وعادت الزواجع تعصف بفكرها .. هناك شيء لا تستطيع الآن أن تعدل عنه أو تهرب منه .. وهو أن تعرف هذا الرجل الآخر وتتصوره كأنه أبوها .. إنها حتى لو واجهت أمها فقد تكذب عليها .. بل لاشك أنها ستكذب عليها .. ولكنها لو عرفت أنه شخصيا ونظرت في وجهه ولو من بعيد فتحس أنها ستأكد مما إذا كان فعلا أباه أو لم يكن .. إن مجرد رؤيته ستحدد إحساسها به وإحساسها أيضا بأبيها الشرعى .. هل هى ابنة مملوح أم ابنة رفعت ..

ووسط هذه الزواجع سمعت أقدام أبيها وقد عاد إلى البيت .. وفقرت من فوق الفراش وجرت إليه وألقت بنفسها بين أحضانها وشدته إلى صدرها بعنف كأنها تستغيث به أو كأنها تستجد به حتى يبقى أباه لها كما هو ولا يتركها، والأب دهش وهو مستسلم لها يربت عليها بحنان قائلا :

— ما بك يا بنتى ؟

وقالت كأنها تهتم بالبكاء :

— تعب يا بابا .. مريضة ..

وقالت لها أمها وهى فى استقبال زوجها :

— متى عدت .. إنى لم أرك ..

وأطلت على أمها وهى بين أحضان أبيها وقالت فى حدة وجفاء :

— كنت متعبة .. وكنت تتحدثين فى التليفون ..

وهم أبوها رفعت أن يزيحها عن صدره ليدخل غرفته .. فانحنيت

تلقائيا وعلى غير عاداتها وقبلت يده .. كأنها تشكره وتعترف بفضله

عليها منذ بدأ يؤوبها وهى ليست ابنته .. وابتسم لها أبوها فى حنان

والدهشة تشتد وهو ينظر إليها ثم قبلها على جبينها وهو يبتعد عنها .. ولم تجلس معهم على مائدة الغداء .. إنها تعب .. وكلهم يعرفون أنها تصل إلى هذا الحد من التعب كلما بدأت بها الدورة الشهرية .. فتركوها تعود إلى غرفتها .

وفى أوائل المساء سمعت ضوت أقدام أبيها يخرج من البيت ولا شك أن أخاها قد سبقه وخرج .. أصبحت وحدها مع أمها فى البيت .. وتحاملت على نفسها وقامت من فراشها بعد هذه الساعات الطويلة التى قضتها وسط الزواجع التى تعصف بفكرها .. وخطت مترنحة حتى وقفت أمام أمها ووجدتها تحمل آلة التليفون وتهتم أن تدخل بها إلى غرفتها .. وقالت الأم فى جزع :

— لماذا تركت الفراش .. إنك متعبة .. بل يبدو أنك متعبة أكثر مما

تعودت ..

وقالت ناهد وهى تستند على الجدار حتى لا تقع على الأرض :

— هل تعرفين شخصا اسمه مملوح ..

وبدا أن الأم ارتعشت لهذا السؤال حتى اهتز التليفون فى يدها

وسقطت من فوقه السماعة .. وانحنى لتلقط السماعة وهى تقول فى

صوت مرتبك فى نبراته :

— من هو هذا الشخص ؟

وقالت ناهد وهى مستندة إلى الجدار ونظراتها ثابتة على وجه أمها :

— إنه شخص سمعتك تحدثينه فى التليفون وترددى اسمه ..

مملوح ..

وقالت الأم وهي تتنحج كأن صوتها مخنوق :

— متى كان هذا ؟

وقالت ناهد بنفس الصوت الجاف :

— هذا الصباح ..

وعادت الأم تتنحج وتشغل نفسها بوضع التليفون مكانه وقالت بعد فترة دون أن تنظر إلى ابنتها :

— آه .. تذكرت .. لقد سألت هذا الصباح عن أخى طاهر وقالوا لى

إنه عند صديقه ممدوح وأعطوني رقم التليفون فاتصلت به هناك ..

وطبعا رد على ممدوح نفسه .. وأنا أعرف أنه صديق من زمان بعيد

لخالك طاهر .. وإن كانت صداقتهما لم تجمعهما عائليا ..

وقالت ناهد وهي تبذل مجهودا أكثر للسيطرة على أعصابها :

— هل هو يعمل مع خالى طاهر ..

وقالت الأم ولعلها تحاول أن تكون طبيعية مع ابنتها فاحتضنتها كأنها

تعينها على تعبها وقالت :

— لا، لا يعمل مع خالك .. وما أسمعه عنه أنه رجل أعمال له شركات

كبيرة .. تعالى واجلسى بجانبى على الأريكة ..

وقالت ناهد وهي مستسلمة لأمرها وتركتها تشدها لتجلس على

الأريكة :

— وما اسمه الكامل ؟

وقالت الأم فى دهشة صريحة :

— لماذا تريد أن تعرفى اسمه الكامل ؟

وقالت ناهد وهي تبسم ابتسامة مفتعلة :

— أنت تعرفين أن عملى فى الشركة يسمى العلاقات العامة .. أى

يجب أن أعرف كل رجال الأعمال الذين يمكن أن تعمل معهم

الشركة .. وربما كان هذا الشخص يمكن التعامل معه ..

وأحنت الأم رأسها كأنها تهتم بالاعتراف وقالت بصوت خافت :

— اسمه ممدوح عبد الرؤوف وهو معروف ..

ثم رفعت الأم رأسها واستطردت قائلة :

— سأعد لك كوب نعناع مغلى ..

وقامت من جانب ابنتها منتفضة وخطت بعيدا عنها كأنها تجرى

هربا .

وكان قد مضى أكثر من ثلاثة أسابيع وناهد قد تركت الفراش ..

وأصبحت قادرة على الخروج إلى العمل ولكنها لا تزال هزيلة مصوصة

الوجه .. ولا تزال أعاصير الفكر تعصف بها كلما كانت وحدها أو

حاولت أن تنام .. وبينها وبين أمها شيء لا ينتهى .. إن كلا منهما ترخى

عينها عن الأخرى كأنها تهرب منها .. ولا تحدثان إلا فى كلمات

عابرة .. وأمها أيضا بدأت تبدو كأنها تعاني .. ولونها بهت وتميل إلى

الهزال ..

ووجدت ناهد نفسها ذات صباح تصعد إلى مكتب ممدوح عبد

الرؤوف .. وكان من السهل أن تعرف العنوان فهو رجل مشهور عنوانه

معروف .. وقالت للسكرتيرة التى استقبلتها فى برود :

— هل أستطيع أن أرى ممدوح بك ؟

وقالت السكرتيرة فى جفاء :

— لماذا ؟

وقالت ناهد كأنها تحدث نفسها :

— موضوع خاص ..

وقالت السكرتيرة فى ازدراء .. لعلها اعتبرتها إحدى البنات اللاتي

لا يزلن يلقين أنفسهن على ممدوح طمعا فى ثرائه :

— آسفة .. إنه مشغول ..

وقالت لها ناهد فوراً :

— أبلغيه باسمى لعله يرانى ... ناهد البتاجى ..

فالتفتا وهى تقول لنفسها .. لو قبل لقاءها رغم أنه مشغول فمعنى

ذلك أنه يعترف بأنها ابنته .. فهو وإن كان لا يعرفها فهو على الأقل

يعرف اسمها ..

ونظرت إليها السكرتيرة كأنها تحقق فى مظهرها لتطمئن إليها .. ثم

رفعت سماعة التليفون وقالت اسمها فيه .. ومرت برهة سريعة صامتة

كأن ممدوح يفكر بعد أن سمع هذا الاسم .. ثم قامت السكرتيرة

منظورة واقفة كأنها تلقت أمرا صارما وتقدمت لناهد وهى تردد :

— تفضلى .. تفضلى ..

واستقبلها ممدوح واقفا .. ومضت برهة وكل منهما صامت يتحدث

فى الآخر .. لعله كان يستوعب شكلها .. وهى تبحث فيه عن الحقيقة

وعيناها معلقتان بشعر رأسه .. إنه نفس لون شعرها .. إنه أبوها ..

وأذناه أعرض من أذنى أمها .. وأصابعه أقصر وأغلظ من أصابعها ..

واتابها إحساس عجيب وهى تنظر إليه أول نظرة .. إنها تكرهه .. تكره

هذا الرجل .. إنه الرجل الذى استدرج أمها حتى أنجبها منها .. لا ..

إنه لم ينجبها .. ولكنه ألقى بها فى بطن أمها كما يلقي بعقب سيجارة

بعد أن يدخنها .. أو كما يلقي ببذرة البرقوق بعد أن يأكلها .. إنها هى

عقب السيجارة أو بذرة البرقوق .. وألقاها فى الحياة كما يلقي أى شيء

لا يريد صاحبه لأنه حرام ..

وكان يتسم لها ابتسامة حانية وهو يستوعبها بين عينيه وقال :

— هل أنت ابنة رفعت بك البتاجى ؟

وقالت فى فتور :

— نعم ..

واتسعت ابتسامته الحانية وقال كأنه فرح مبهور بها وهو يشير إلى

المقعد :

— تفضلى ..

ولم تتقدم لتجلس على المقعد وقالت فى سخرية مرة :

— هل تريد أن تعرف اسم أمى أيضا .. أم أنك تعرفه ؟

ونظر إليها فى دهشة حائرة وإن كانت ابتسامته الحانية لا تزال معلقة

بين شفثيه وقال :

— إبنى أعرف أيضا اسم والدتك .. إنها شقيقة صديقى طاهر ..

خالك .. وكنا كلنا جيرانا فى الصغر .. تفضلى ..

ولكنها لم تجلس وظلت واقفة وقالت فى كلمات سريعة كأنها لم

تعد تطبيق هذا الرجل أكثر :

— سمعت أنك تبحث عن موظفة .. فجئت أسأل .. إبنى خبيرة فى

مجال العلاقات العامة ..

وقال من خلال ابتسامته الحانية :
— الواقع أنى لأبحث عن موظفات ولست فى حاجة إلى أكثر ممن
عندى فى قسم العلاقات العامة .. ولكنك تستطيعين أن تكونى معنا
وتختارى أى مسئولية لك فى المكتب ..
وقالت فى حدة :

— لماذا توظفينى عندك وأنت لست فى حاجة إلى ..
وعادت الدهشة الحائرة إلى عيني ممدوح وقال من خلال ابتسامته
التي لا تزال تنبض بالحنان :
— لأنك ابنة أخت أعز صديق لى .. صديق الصبا ..
وقالت دون أن ترفع أى ابتسامة على شفثيها :
— شكرا .. سأفكر .. عن إذنك ..

واستدارت له دون أن تصافحه وخطت كأنها تهم أن تجرى خارجة
من الباب .. وممدوح يقول من ورائها كلمات لا تسمعها .. إنها تكره
هذا الرجل .. كانت تحس وهو أمامها كأنها تهم أن تمدأظافرها وتبش
فى وجهه حتى تمزقه وتشرب الدم الذى يسيل منه .. كيف يكون هذا
الرجل هو أبوها وهى تكرهه كل هذه الكراهية .. الرجل الذى ألقاها فى
بطن أمها عقب سيجارة تمتع بها .

وعادت إلى البيت ولم تقل لأمها إنها رأت ممدوحا . لاشك أنه
سيقول لها فى التليفون إنها ذهبت إليه ورآها .. تنتظر إلى أن تبدأ أمها
بالحديث عنه .. ولكن مرت الأيام وأمها لا تحدثها فى هذا
الموضوع .. موضوع اكتشافها لأبيها .. وهى قد تغيرت لم تعد الفتاة

النشيطة المرحة التى تملأ البيت بضجيجها وتحركاتها .. أصبحت فتاة
صامتة منعزلة عن صديقاتها وتقضى عمرها داخل غرفتها وقد تعودت أن
تغلق بابها عليها كما تفعل أمها عندما تتحدث فى التليفون .. وكانت
خلال هذه العزلة تدور فى خيالها القصص وبعضها تكون كأنها تلتمس
بها العذر لأمها .. لقد أحبت أمها ممدوحا وهو جار لها .. ولكنها كان
لا يمكن أن تتزوجه فهو فى مثل سنها وأمامه سنوات حتى يتم دراسته
ويؤهل حياته للزواج .. كانت منذ البداية وهى تعلم أنها لن تتزوج
ممدوح .. ولذلك قبلت أن يزوجها رفعت .. كان أكبر منها ومؤهلا
للزواج وليس فيه ما يعيبه بل إن فيه كل ما تتمناه زوجة .. ولكنها لم
تستطع أن تتخلص من حبها لممدوح فاحتفظت به فى حياتها وهى
بنفس الشخصية الجادة الكاملة التى تحتفظ بها بزوجها .. وربما
حملت من ممدوح نتيجة خطأ فى الحسابات التى تحرص عليها
النساء .. لا يمكن أن تكون قد تعمدت أن تنجبها من ممدوح .. ليست
هناك امرأة حتى ولو كانت عاهرة تمنى أن يكون لها مولود حرام .. قد
تكون أمها معذورة ولا تستطيع أن تحاسبها على إنجابها فى الحرام ..
بصرف النظر عن أنها أم تخون زوجها ..

وقد بدأت هذه الأم تعاني الضعف والهزال أكثر حتى سقطت مريضة
لا تقوم من فراشها .. وهى تحنو على أمها وتراعيها بكل ما يحتاجه
مرضها .. ولكن كلا منهما لا تزال تهرب من أن تلتقى عيناها بعيني
الأخرى .. وكل منهما لا تزال صامتة عن مصارحة الأخرى .. مع أنها
تعلم سبب ما تعانيه أمها كما تعلم هى سبب ما تعانيه .. حتى الأطباء لم
يجدوا سببا لكل هذه المعاناة وكلهم يقولون إنه نتيجة حالة عصبية أو

حالة حساسية .. ولا تحاول إحداهما علاج الأخرى من حالتها .. وقد تغيرت ناهد أيضا بالنسبة لأبيها رفعت .. إنها لا تزال تحبه غاية الحب ولكنه نوع آخر من الحب .. ليس مجرد حب الابنة لأبيها لقد أصبح جبا كله اعتراف بفضله عليها .. إنه هو السائر الوحيد لكل حياتها .. هو الذى ينقذها من فضيحتها كاتبة عشيق .. ابنة حرام .. وهى لم تعد تحس بأنها تتدلل عليه أو تدلل .. إنها تحس كأنها تشكره .. كأنها تستحلفه ألا يتركها وحدها حتى لو عرف أنها ليست ابنته .. وقد كادت تعود على تقبيل يده لولا أنه رفض لها هذه العادة وقال لها ضاحكا وجهه وحنانه يفيض عليها :

— إنك تذكريننى بأيام زمان عندما كان الابن والابنة يقبلان يد الأب والأم .. وأنت لست من بنات زمان ولأنا ربيتك لتكونى من بنات زمان .. إنك الجيل الجديد الذى لا يعرف تقبيل اليد .. بل يعتبر تقبيل اليد إهانة وإذلالا حتى لو كانت يد الأب .. وبنتى وبينك .. فلبنى أحب قبلك على خدى أكثر مما أحبها على يدى .

واستطاعت أن تفلح عن تقبيل يد بابا رفعت .. ربنا يبقبه لها فهو ينقذها حتى من نفسها .

ولكن التغيير الأكبر الذى حدث فى حياتها هو مصيرها مع حبيبها وخطيبها ياسر .. إنها لا تستطيع أن تصارحه بأنها ابنة حرام .. ولن تصارحه بأنها ليست ابنة هذا الأب ولكنها ابنة رجل آخر .. وهى لا تستطيع أن تعيش معه وهى تخفى عنه حقيقتها .. ولا تستطيع أن تكون زوجة كاذبة مخادعة وترك زوجها يحبها ويعيش معها على أنها ابنة حلال .. ويجب أن تهرب منه حتى لا تنسج حياة الكذب التى

تعيشها .. حياة المظهر الكاذب الذى لا يستطيع أن يعيش الواقع الصريح .. وبدأت فعلا تهرب منه إلى أن صارحته بأنها لن تزوجه .. لن تزوج أبدا .. وقامت ضجة بين العائلتين .. ولكنها تصر إلى حد أن اتهموها بالجنون .. أو ربما أحبت آخر تريد أن تزوجه .. وأنها قد ازدادت حالتها المرضية خطورة كأنها تسعى بنفسها إلى الموت .. وبابا رفعت تشتد خيبته فيها واقتناعه بأنها لم تعد طبيعية .. وهى بينها وبين نفسها متأكدة أنها لن تزوج أبدا .. إلا إذا تقدم إليها واحد يعرف مقدما أنها ابنة حرام ويصل حبه لها إلى أن يقنعها بالزواج .

والأيام تمر بكل هذا الثقل وكل هذه المرارة التى تهرى فى حياتها وحياة أمها وتنعس بابا رفعت ..

وتمر بها شهور .. وكلما مرت بها شهور .. تجد نفسها يوما تسير فى الشارع وتقف أمام باب العمارة التى يقع فيها مكتب ممدوح .. وتنتظر طويلا إلى أن تراه من بعيد وهو يخرج إلى الشارع .. إنه لم يتغير .. إنه هو كما هو وجهه أنيق وشعره الأصفر الداكن فوق رأسه .. إن الذى يلقى بعقب سيجارة ممتعة فى بطن امرأة لا يتغير ولا يتأثر ولا يندم على السيجارة التى انتهت من تدخينها ..

وتطيل النظر إليه من بعيد وهى ترى نفسها فيه .. ترى نفسها ابنة حرام .. ترى نفسها عقب السيجارة الذى ألقاه فى بطن أمها .. وتهمر دموعها .. إنها لم تأت إلى هنا إلا كأنها تزور قبر حياتها وتترحم على نفسها ..

وتاهت بعد العمر الطويل

كانت ناهد زوجة سعيدة .. عاشت واحدا وثلاثين عاما وهي زوجة سعيدة ..

لم تتعرض حياتها الزوجية أبدا لما يمكن أن يعكرها .. وهي نفسها لم تفكر أبدا في تغيير أى شيء في حياتها الزوجية أو إدخال أى جديد عليها ولو لمجرد مقاومة الملل والزهرق .. أبدا .. لم يطرأ عليها أبدا أى لمحة إحساس بالملل أو الزهرق .. لقد كانت تحس منذ اليوم الأول الذى تزوجت فيه أنها وصلت إلى قمة السعادة وليس هناك شيء فوق القمة يمكن أن يغريها بأن هناك سعادة أكبر يمكن أن تجذبها .. وقد أصبحت كل أيامها تمر على وتيرة واحدة منظمة بالساعة والدقيقة .. والبيت الذى تزوجت فيه لا يزال هو البيت الذى تقيم فيه .. وحتى قطع الأثاث لم تغير فيها شيئا ولم تحرك أى قطعة منها إلى مكان غير مكانها .. وحتى بعد أن انجبت ابنتها شهاب وابنتها لوتس اتسعت حياتها ولكن لم يشملها أى تغيير .. ظلت حياة منظمة بالساعة والدقيقة دون أن تصادف ما يعكرها أو ما يمسها بالملل أو الزهرق ..

وقد كانت في صباح كل يوم تقوم من النوم في الساعة السادسة والنصف وتترك زوجها مراد في الفراش وتذهب إلى ابنتها وابنتها وتوقظهما في رقة وحنان وتبدأ في إعدادهما للذهاب إلى المدرسة .. وفي الساعة السابعة تماما تعود إلى زوجها لتطمئن إلى أنه قد ترك الفراش .. فهذا هو مواعده .. ثم تتركه يدخل الحمام ويستكمل إعداد

نفسه للذهاب إلى عمله في مؤسسة الغزل بينما هي تدخل المطبخ لتعد طعام الإفطار للعائلة كلها .. وتحرص وهم على مائدة الإفطار أن تسأل كلا منهم عما يريد في يومه لتعده له .. ثم يخرجون من البيت ويتركونها وحدها .. وتبدأ بمنتهى الهمة والنشاط في تنظيف البيت وتنظيمه وتسوية كل ما فيه .. إنها لا تحاول أن تعتمد على عزيزة الشغالة ولا تتركها أبدا تعمل بعيدا عنها .. وبعد ذلك تخرج من البيت إلى الأسواق لشترى ما تحتاج إليه .. إنها وحدها التى تشتري كل شيء حتى ما يخص زوجها .. ثم تعود لتدخل المطبخ وتبدأ في طهو وإعداد الغذاء وعزيزة بجانبها ولا تترك المطبخ لها وحدها .. إلى أن يعود ابنتها وابنتها من المدرسة وقد تقدم لهما طعام الغذاء وحدهما في حين أن زوجها مراد ليس له موعد محدد لعودته من عمله .. قد يعود في الثانية والنصف أو الثالثة وأحيانا الرابعة .. وهي في انتظاره دائما لتتناول معه الغذاء .. ومن عادته بعد الغذاء أن ينام .. إنه يقول إنه يستريح ولكنه في الواقع ينام .. وإن كان نومه لا يستغرق إلا ساعة ونصف .. لا أكثر .. ويقوم من النوم ليخرج من البيت .. قد يكون لديه اجتماع في مؤسسة الغزل .. إنه يتقدم سريعا في عمله ويرتقى في مناصب المؤسسة .. وحتى لو لم يكن مرتبطا باجتماع عمله فقد يخرج لزيارة أصدقاء عمل .. وبعد أن يخرج تنفرغ هي للمجلوس مع الولد والبنت للإشراف على مذاكرة ومراجعة المواد الدراسية .. إنها خريصة على الإشراف على مذاكرتهما حتى بعد أن كبرا وأصبحا في المدرسة الثانوية .. بل إنها كانت هي نفسها تذاكر المواد الدراسية التى يدرسانها حتى تستطيع أن تجلس بينهما كأستاذة .. وفي الساعة التاسعة يعود زوجها إلى

البيت .. إنه لم يتأخر أبداً عن الساعة التاسعة .. ويكون أشرف ولوتس قد ناما .. وتقضى معه أجمل ساعات اليوم .. يشاهدان معا التلفزيون وهما يتناولان طعاما خفيفا للعشاء تبذل كل يوم مجهودا خاصا لاختيار أصنافه حتى يكون لذينا شهيا .. وفى أغلب الليالى لا يتفرغان لمشاهدة التلفزيون بل يأخذ زوجها مراد فى التحدث عن عمله .. عن كل ما حدث له فى يومه .. كل ما يفرحه وكل ما يتعبه .. وهو يتحدث كأنه يفرج عن نفسه ويريح صدره مما يحمله دون أن ينتظر غالبا رأيها فيما يقول ودون أن يبدو وكأنه يستشيرها .. ولكنها بلا تعمد كانت أحيانا تقول رأيها وبلا تعمد أيضا كان يبدو أنه فى انتظار هذا الرأى .. وهى من طول ما تحدث معها عن عمله أصبحت تفهم هذا العمل بكل تفاصيله وأسراره .. وتستطيع أن تحكم على كل من يعملون معه ويساعدونه أو يضايقونه ويتعبونه حتى دون أن تعرفهم شخصا .. لاشك أنها المستشارة الأولى لزوجها ولو أنها لا تفرض عليه ما تشير به .. ولا تقيم لنفسها شخصية المستشارة .. وتظل هذه الساعات الحلوة تجمعهما كل ليلة حتى الساعة الحادية عشرة على الأكثر .. إلا فى ليالى يشدهما فيها ما يعرضه التلفزيون حتى الساعة الثانية عشرة .. ثم يجتمعهما الفراش .. وتضمهما ليالى الشتاء وتبعد بينهما ليالى الصيف ..

كان هذا هو كل يوم من أيام حياتها .. أيام منتظمة بالساعة والدقيقة .. يضاف إليها الأيام التى يدعون فيها إلى الخارج أو يقومون بدعوة بعض الأصدقاء ولكنها كانت أياما قليلة فلم تكن هى نفسها من هوة الدعوات .. وكانت تتخلل هذه الأيام فترات يسافر فيها الزوج بعيدا عن بيته .. وقد يغيب أحيانا .. بل إنه سافر أكثر من مرة إلى أوروبا

وكان يغيب أسابيع .. ولكنها أيضا فترات لأيام منتظمة بالساعة والدقيقة .. وقد تغير بعض ما يفرضه هذه الساعات والدقائق من ناحية التنظيم مع كبر سن شهاب ولوتس والتحاقهما بالمدارس الثانوية .. ولكنها دائما ساعات ودقائق فى منتهى التنظيم ..

وكبرت وكبر زوجها مراد حتى أحيل على المعاش بحكم السن .. لقد وصل إلى الستين وهى فى التاسعة والأربعين .. إن الفارق بين عمريهما إحدى عشرة سنة .. ولكنها لم تحس أبدا بهذا الفارق .. بل إن مراد لا يزال حتى الآن وبعد أن وصل الستين وهو فى منتهى الصحة والنضارة والحيوية والنشاط .. وهما لم يفكرا أبدا فى إحالته على المعاش إلا قبل أن يحل موعده بشهور قليلة .. كأن سعادتهما واكتفاءهما الذاتى بكل ما يعيشان فيه قد ألهاهما عن التفكير والإعداد للمستقبل .. المستقبل الذى ينزعه عن عمله ويلقى به على أرض جرداء خاوية .. أرض المعاش ..

وعندما تذكرنا مستقبل المعاش وبدآ يفكران فيه كان زوجها مراد يبدو فى منتهى الاطمئنان .. لقد اكتسب اسما لامعا محترما بين كل قادة صناعة الغزل .. ومن السهل بعد إحالته على المعاش أن يجد عملا رئاسيا فى شركة من الشركات الكثيرة التى تنتج الغزل .. بل إن هناك شركة غزل أسست فى السعودية وهو يعرف أصحابها ومؤسساتها معرفة شخصية ولا شك أنهم يتلهفون على أن يعمل معهم .. وسيقتضى منهم مرتبا يوازى أضعاف المرتب الذى يتقاضاه من هذه المؤسسة الحكومية التى يعمل فيها .. إن إحالته على المعاش تعتبر فاتحة خير تفيض عليه وعلى العائلة كلها بالرخاء وتوفر لهم أرقى وأغلى ما يمكن أن تقدمه

الحياة .. ولكن الواقع أن مراد لم يحاول قبل أن يحل موعد إحالته على المعاش أن يتصل بأحد ممن يمكن أن يوفر له عملاً آخر .. لم يحاول أبداً أن يبذل أى جهد ليضمن لنفسه مجالا جديدا للعمل والكسب ..

وحل يوم إحالته على المعاش ..

وبدأ كل شيء فى حياتها يتغير ..

وقد قالت له فى اليوم الأول :

— هل اخترت العمل الذى ستلتحق به ..

وقال مبتسما وهو يتمدد على فراشه :

— لقد قررت أولا أن أمنح نفسى إجازة على الأقل لمدة شهر ..

وبعدما أبداً فى اختيار ما عمله .. ربما كان على حق .. إنه طوال هذا العمر الطويل الذى قضاه يتهك نفسه فى العمل لم يكن يمنح نفسه إجازة .. بل لم يكن يتحمل الإجازات الرسمية وكان يقضيها داخل المكاتب والمصانع متنازلا عنها بحجة تطلوعه بالإشراف على العمل وإن كانت دوافعه الحقيقية هى الهرب من الإجازة فقد كان لا يجد شيئا فى حياته إلا العمل .. ولعله يستسلم الآن للإجازة ويمنحها لنفسه لأنها إجازة مفروضة عليه بحكم المعاش .. إنها ليست إجازة .. إنها حكم بطرده من العمل ..

وبدأت تحس به كأنه طرد فعلا من العمل وليس فى إجازة .. فالتناس تستغل أيام الإجازات فى إمتاع أنفسهم بمتع الحياة .. فى التزهات والزيارات والسفريات واللعب .. ولكن مراد لا يحاول أن يستغل إجازته فى شيء .. إنه يقضى كل أيامه إمارقا فى الفراش أو جالسا على مقعده المريح أمام التليفزيون .. ويقضى ساعات طويلة يقلب فى

الصحف اليومية والمجلات دون أن يبدو عليه أنه يجد فى كل ما يقرأه شيئا يشيره أو يهيمه .. ويقضى ساعات أطول مما تعود فى الحمام .. وساعات أطول مما تعود وهو على المائدة يتناول إفطاره أو غداءه أو عشاءه .. ولا يحاول أبداً أن يخرج من البيت ولو حتى لزيارة عائلته .. بل لا يحاول حتى أن يتحدث فى التليفون مع أحد .. حتى أحاديثه معها بدأت تتباعد وتختصر .. وهى فى عجب .. كيف انقلب مراد من إنسان يفرط فى العمل والنشاط إلى إنسان يفرط فى الكسل ويعيش فى اللامبالاة .. ربما كانت هذه هى طبيعة كل من يتميز بالإفراط .. فهو إما أن يفرط فى العمل وإما أن يفرط فى الكسل .. وهى تدعو الله بأن يعود زوجها إلى الإفراط فى العمل ..

وبعد أن مر الشهر الذى قد حدده كإجازة يستريح بها ، إذا به لا يزال قابعا فى البيت لا يتحرك .. وسألته وكأنها تنهره فى رقة :

— ألن تبدأ فى البحث عن عمل ؟!

ورد عليها بمنطق تسمعه منه لأول مرة .. صاح قائلا :

— كيف تريدنى أن أبحث عن عمل .. هل أدور على الناس أستجديهم ليتفضلوا بالإشفاق علىّ ويمنحونى عملا .. هل تريدنى أن أنسى كل ما قدمته للبلد وأنقلب إلى شحاذ .. لا .. إنهم هم الذين يسعون ورائى ويتوسلون أن أقبل العمل الذى يعرضونه .. وقد أقبل أو لا أقبل .. إنى أستاذهم وسيد سيدهم ..

ولم يسمع أحدا وراءه ..

وبدأت تحس به وهو قابع فى البيت كأنه قابع على صدرها .. أصبحت تحس بكل ساعات ودقائق يومها كأنها مشارط تمزق فى إحساسها .. لم تعد تستطيع أن تجد ما تعودته .. إنها لا تستطيع أن

توقفه في الساعة السابعة صباحا لأنه ليس في حاجة لأن يكون له موعد يصحو فيه .. وابتها شهاب وابتنتها لوتس قد يخرجان إلى المدرسة دون أن يريا وجهه ثم لا تستطيع أن تنظف البيت وترتبه وتشرف عليه وهو فيه .. إنها تراه كأنه أصبح قطعة من الحجر أو الصخر تشوه جمال ونظام البيت .. وقد فقدت متعة انتظاره التي تعودت عليها .. متعة الشوق .. أصبحت تعيش وهي في انتظار متعة أن يخرج من البيت ويريحها من وجوده .. حتى بعد أن تدخل المطبخ لم تعد تحس بمتعة إعداد الطعام بينما هو جالس في الصالة وكأنه جالس فوق كتفها .. ولم تعد ساعات الليل التي تجمعهما بعد أن ينام شهاب ولوتس تجد فيها المتعة التي كانت تهنأ بها في نهاية كل يوم .. كيف تهنأ بحديثه في هذه الفترة وهو طول اليوم بجانبها يتحدث كلما أراد ..

ثم زحف عليها إحساس بأن مجرد وجوده في البيت أصبح يفسد ابتها وابتنتها .. إنه طول عمره هائم في حب ابنه شهاب وقد أصبح في كل يوم بعد أن يعود ابنه من المدرسة يأخذه بجانبه ويجلسان أمام التلفيزيون .. فيلهيه عن مذاكرة دروسه .. كما كان طول عمره عنيفا بالنسبة لابنته لوتس .. ويغار عليها من الهواء ويحرضه عليها خياله الرجعي .. أين تذهب .. ماذا تلبس .. كيف تحطو في مشيتها .. ولماذا تطل من الشباك .. وقد أصبح وجوده في البيت عذابا لابنته لوتس .. لا يمر يوم إلا وتبكي وتهرب من أمامه حتى لا يجرحها بكلماته .. والمهم المذاكرة .. وناهد كأم لم تعد تستطيع أن تقوم بالإشراف على مذاكرة الولد والبت لدروسهما .. فإذا استطاعت أن تأخذها بعيدا عن أبيهما وتجلسهما بجانبها للمذاكرة وجدت نفسها

لا تستطيع أن تركز ذهنها وإحساسها فيما يذكرانه كما تعودت .. فبين كل سطر وآخر مما يقرانه تجد ذهنها وإحساسها يشتت إلى الحال الذي أصبح فيه زوجها .. والولد والبت أيضا لا يستقران بين الكتب والكراريس ويقفزان بين كل لحظة وأخرى إلى أبيهما بحجة أنهما يسألانه سؤالا فيما يدرسان .. وهو نفسه قد يناديهما ويخطفهما من أمام كتب المذاكرة ليبرا مشهدا أعجبه على شاشة التلفيزيون .. لقد أصبحت تخاف على الولد والبت ألا ينجحا في امتحان المدرسة بعد أن كانت تعيش وهي تعتبرهما من الطلبة العابرة ولا تخاف عليهما من أى امتحان ..

وحتى عزيزة التي تعمل في البيت منذ أكثر من عشر سنوات بدأت تتغير .. ربما لم يعد البيت هو نفس البيت .. لقد كانت عزيزة تعمل وهي لا تتلقى الأوامر ولا تخضع إلا لست البيت .. ولم يكن رجل البيت يأمرها أو يطلب منها شيئا .. بل ربما كان لا يحس بوجودها إطلاقا .. لم يكن يطلب شيئا إلا من زوجته ست البيت .. وكانت ست البيت وحدها هي التي تتعامل مع عزيزة .. ولكن رجل البيت أصبح الآن مقيما طوال النهار والليل في البيت وأصبح يتعامل مع عزيزة .. أصبح لعزیزة سيدان لا سيد واحد .. لم تعد ملكا لست البيت وحدها ولكنها أيضا ملك لرجل البيت .. ولا شك أن عزيزة ترتاح أكثر في التعامل مع رجل البيت .. على الأقل هو جاهل بكل أعمال البيت ويكون أرحم عليها فيما يكلفها به وهي تستطيع أن تخدعه وتكذب عليه بسهولة .. وأصبحت ناهد تعاني حتى من عزيزة .. وقد أصبحت ناهد مقتنعة بأنها يجب أن تغير من نظام أيامها التي

تعودتها .. إن الأيام مع زوج يعمل لاتصلح لتفضيها مع زوج على المعاش .. زوج عاطل .. وقد بدأت تفكر فى إقامة الدعوات للأصدقاء .. وفى قبول الدعوات .. إذا كان زوجها لا يريد أن يخرج من البيت وحده فلتخرجه معها .. ومجتمع الدعوات والجلوس بين الأصدقاء قد يعيد إليه رغبته فى العمل ويدفعه إلى البحث عن مجال يعمل فيه .. خصوصاً وأن بين الأصدقاء من كان يعمل معه ومن المتخصصين فى صناعة الغزل ..

وكان زوجها مراد يقاوم مقاومة عنيفة أى فكرة لدعوة أصدقاء أو قبول دعوة .. لم يعد يطيق أن يستقبل أى أحد فى البيت أو يخرج من البيت .. أصبح كأنه يعيش وهو حى فى مقبرة جميلة لا ينقصه فيها شيء .. ولكنها كانت تستطيع أن تتحايل عليه وتلج إلى أن يقبل توجيه أو قبول دعوة .. وكانت توجه إليه الأسئلة عن العمل الذى قرر أن يقوم به بعد أن أحيل على المعاش .. وكيف يقضى أيامه ويملاً فراغه .. وكان يكذب .. كان يقول إنه بعد دراسة واسعة عن صناعة الغزل سينشرها فى كتاب .. وأحياناً يقول إنه يكتب مذكراته .. وأحياناً يقول إن شركات الغزل قد عرضت عليه العمل معها ولا يزال يختار بينها .. وكل ذلك كذب .. إنه يقضى كل أيامه وهو يقلب صفحات الصحف والمجلات ويشاهد ما على شاشة التلفزيون ..

ويست ناهد ..

إن زوجها لن يعود إلى العمل أبدا ..

إنه مفرط فى الكسل وليس هناك أى دافع يقاوم به كسله .. وهو فى حالة اكتفاء تام .. ولا يطمع حتى فى الكسب وزيادة دخله .. ومالديه

يكفيه قيمة معاشه لا تقل عن قيمة المرتب الذى كان يتقاضاه إلا عشرة جنيهات .. وقد جمع مبلغاً كبيراً بفضل إرادة زوجته وقدرتها على التوفير .. وهو مبلغ يضعه فى البنوك ويدبر عليه أرباحاً .. علاوة على العشرين فدناً التى ورثها عن أبيه ضمن الأرض الواسعة التى يديرها أخوه الأكبر .. ثم إنه سعيد مع زوجته .. وسعيد بابنه وابنته .. وسعيد ببيته .. وسعيد حتى بعزيزة الشغالة .. فلماذا يترك كل هذه السعادة ويتعب نفسه فى البحث عن عمل .. ثم إنه تعود العمل فى مؤسسات عامة تملكها الدولة .. تعود على أن يتعامل مع الدولة .. ولا يريد أن يجازف ويتعامل مع أصحاب أعمال خاصة .. قد يفقد هيئته .. هية الدولة ويمرط شخصيته بين أصحاب رؤوس الأموال ..

ولم تعد ناهد تطيق أيامها مع زوجها الملقى أمامها كأنه جثة حية .. ولم تعد تطيق اليأس ..

ودون أن تحس وجدت نفسها تتركه .. وترك ابنها وابنتها .. وترك البيت .. وتهرب دون أن تفتح أحدهما بما قررت .. بل إنها هى نفسها لم تكن تعلم ماذا قررت .. وأخذت تجوب الشوارع طوال النهار إلى أن وجدت نفسها تذهب إلى بيت أختها الكبرى وتعلن أنها ستقيم عندها ..

واتصلت أختها بزوجها مراد بالتليفون وصاح مراد :

— لقد كدت أجن وأنا فى انتظارها .. إذا لم تعد إلى البيت خلال

ساعة واحدة فسأتى أنا إليها ..

وقالت أختها فى هدوء :

— أفضل أن تتركها عندي حتى تهدأ وتسترد أعصابها ..
واطمأن ..
وتركها مراد إلى أن تعود ..

وناهد تعذب .. إنه لم يمض على إحالة زوجها إلى المعاش سوى تسعة شهور ورغم ذلك لم تحمله فكيف تحمله بقية عمرها .. ولكنها لا تستطيع أن تعيش بعيدا عن ابنها وابنتها .. وهى فى كل صباح وكل مساء تطلب من أختها أن تطلبهما فى التليفون لتحديثهما وتحادث عزيزة لتعطى إليهما تعليمات بخصوصهما .. لم تكن هى التى تدير رقم التليفون حتى لا تواجه بصوت زوجها مراد .. ولكن رغم كل شئ فهى تحب مراد .. لا تستطيع أن تهرب من ثلاثين عاما من عمرها عاشتها فى حبه .. ثم ماذنبه .. إن هذه هى طبيعته .. كما كان يتحمل الإفراط فى العمل فهو يتحمل الآن الإفراط فى الكسل .. إنه لا يعتمد شيئا ولكنها طبيعته .

ولم تبق فى بيت أختها سوى ليلتين وفى الصباح التالى وجدت نفسها تعود إلى البيت .. وقد عادت فى الساعة السادسة والنصف صباحا حتى تطمئن على الولد والبنت وتعددهما للذهاب إلى المدرسة .. وفوجئت بأن وجدت زوجها مراد متيقظا وأنه واقف مع عزيزة يشرف عليها فى إعداد الإفطار .. وفرح بعودتها فرحة كبيرة ولكنه ما كاد يقلبها مرجبا حتى تركها ودخل حجرة النوم وألقى بنفسه على الفراش .. وهى مذهولة بالدهشة بعد أن وجدت مراد متيقظا ويتولى إعداد الإفطار للولد والبنت .. وبدأت تقتنع بأن مراد ليس من طبيعته الاستسلام للكسل إلى حد أن يهمل الاطمئنان على مسيرة شؤون البيت .. وقد كان يعتمد

عليها اعتمادا كاملا ويلقى نفسه بين الصحف والمجلات وأمام شاشة التليفزيون .. ولكن عندما غابت عنه وعن البيت نفى عن نفسه الكسل وبدأ يشرف على شؤون البيت بمنتهى النشاط .. بل عرفت أنه خرج أمس إلى السوق واشترى اللحم والخضار واشترى أيضا بطيختين .. واكتشفت أنه ليس جاهلا بأسرار السوق .. إن ما اشتراه يتوفر فيه جودة الصنف والأسعار المعقولة .. لم يستطع أحد فى السوق أن يغشه أو يخدعه ..

وبدأ تفكيرها يتجه اتجاها جديدا ..

إنها لن تستطيع أن تقتنع زوجها بأن يعود إلى العمل فى المجال العام وفى تخصصه بصناعة الغزل .. ولكنه على استعداد لأن يعمل داخل البيت فى إدارة شؤونه والإشراف على ما تحتاجه العائلة ..

وهى نفسها تحس بأنها تستطيع أن تعمل خارج البيت .. بل إنها طوال عمرها كانت تمر عليها فترات تخيل نفسها وهى تعمل فى إحدى الشركات الكبيرة المتخصصة فى مد الأسواق بالملابس النسائية وملابس الأطفال .. أو تشارك إحدى صديقاتها الكثيرات اللاتى افتتحت كل منهن « بوتيك » لبيع لوازم النساء المستوردة وحققن أرباحا طائلة .. ولكنها لم تقدم على أى عمل وظلت طوال عمرها متفرغة للبيت لأنها كانت تتصور أن البيت لا يستطيع أن يستغنى عنها ولو ساعات من يومها ..

والآن يمكن أن يتغير الوضع العائلى .. لقد كان وضعاً قائماً على أن يعمل زوجها خارج البيت وتعمل هى داخل البيت .. ومقلب هى هذا الوضع .. ستعمل هى خارج البيت ويتحمل زوجها العمل على إدارة

البيت وتدير شؤون العائلة ..

ولم تناقش زوجها في هذه الأفكار التي بدأت تتحكم فيها إلا بعد أن استطاعت أن تتفق على أن تعمل في شركة « المرأة السعيدة » التي تدير عدة مصانع لإنتاج الأقمشة والملبوسات النسائية ولها عدة محلات منتشرة في القاهرة وفي كل عواصم مصر تباع إنتاجها .. وقد رحب رؤساء هذه الشركة بأن تعمل ناهد لديهم .. إنها سعيدة يحترمها كل المجتمع ومعروفة بشطارتها وذكائها وجديتها ..

وفاجأت مراد قائلة :

— اتفقت على أن أعمل في شركة « المرأة السعيدة » .. يمرتب ماثنى جنيه في الشهر ..

ورد عليها في دهشة :

— إننا لسنا في حاجة إلى هذا المرتب .. ولمن تتركين البيت ؟
وقالت وهي تبتسم له الابتسامة التي تعلم أنه يجدها ويضعف أمامها :
— لقد تعودنا على أن يعمل أحدنا في الخارج ويعمل الآخر في الداخل .. وبما أنك أصبحت تقيم في البيت فلا أعمل أنا خارج البيت ..
وصاح من خلال دهشته :

— لماذا ؟

وقالت من خلال ابتسامتها :

— كي لا يخسر أحدنا متعة انتظار الآخر حتى يعود إليه .. متعة الشوق ..

وربما كانت ساعتها على استعداد لأن تعدل عن كل أفكارها ومشروعاتها لو أن مراد صمم على أن تبقى متفرغة للبيت ويعدها بأن

يخرج هو للعمل .. ولكن مراد لم يصمم ولم يعد وقال ساخرا :

— لنجرب حياة جديدة ..

وخرجت للعمل ..

ولم تكن تتعبد قبل أن تخرج أن تلقى على مراد تعليمات بخصوص إدارة البيت واحتياجات العائلة .. لم تكن تريد أن تشعره بأنه قد أصبح الزوجة وهي الزوج .. ولكنها كانت تلقى مطالبها الخاصة بالبيت في كلمات عابرة لا تحمل لهجة الأمر كما تعود الأزواج وهم يفرضون على الزوجات مطالبهم ..

وكان أول ما عاودها منذ أن بدأت تعمل خارج البيت هي متعة الشوق .. الشوق إلى الأولاد .. والشوق إلى البيت .. والشوق إلى مراد .. الشوق إلى أن تعود إليه بعد أن كانت تعيش في شوق أن يعود إليها .. وكان العمل يفرض عليها كل يوم غيبة طويلة .. كانت تخرج مع شهاب ولوتس في الصباح ولا تعود إلا في الساعة الرابعة بعد الظهر وأحيانا الخامسة .. بل كانت أحيانا تضطر إلى الخروج في المساء لتعود للإشراف على العمل ..

المهم أن مراد تغير كثيرا ..

تعب وهو سعيد .. بل يبدو أنه أكثر سعادة ..

إنه يشرف بنفسه على إعداد البيت بعد أن تخرج ناهد .. وينزل إلى السوق ليشتري كل ما تحتاجه العائلة ..

بل أصبح يدخل المطبخ ومعه عزيزة .. لقد كان يدخل المطبخ أحيانا وهو معها .. وكان يتفاخر بأنه أمهر من يعد طبق البيض الأوملت .. ولكنها لم تعرف عنه أن هوايته للمطبخ تصل إلى حد إجادته

طهو كل هذه الأصناف .. وأكثر من ذلك .. لقد بدأ بنفسه يتحمل مسؤولية الإشراف على شهاب ولوتس في مذاكرة دروسهما .. لقد قال لهما إن أمهما أصبحت مشغولة وهو وحده الذى يتحمل مسؤوليتهما .. وطبعاً لم تستطع أن تستسلم كل الاستسلام لمسئولية زوجها على البيت . من المستحيل أن يصل إلى مستواها كست بيت .. وكانت بعد أن تعود إلى البيت فى كل يوم تصصح بعض ما قام به .. أو تتعمد أن تفعل شيئاً لم يفعله .. وكانت لا تستطيع أن تهجر المطبخ هجرة كاملة .. كانت تدخل وتتعمد أن تطهو بنفسها صنفاً تعلم أن زوجها يستحيل عليه أن يطهوه .. إنه صنف يحتاج إلى عبقرية المطبخ .. وهى حريصة على أن تبرز عبقريتها أمام ابنها وابنتها وتحدى بها زوجها .. بل إنها كانت لا تعود إلى البيت إلا بعد أن تمر على السوق حتى بعد أن تعودت على أن يشتري زوجها كل شيء .. وتتعمد أن تشتري ما تتصور أنه لم يخطر على بال زوجها شرائه .. فقط لتقنعه بأنه لن يصل أبداً إلى مستواها كست بيت .. لن يستطيع الرجل أن يستغنى أبداً عن المرأة فى البيت .. وكل ما فى الحياة أصبح يحيطها بمنتهى السعادة .. ولكن ..

إنها تخذع نفسها عندما تتصور سعادتها بالعمل خارج البيت وترك زوجها يعمل داخل البيت .. إنها تعيش مشدودة إلى البيت رغم كل ما يشغلها به العمل فى الشركة .. لا تمر بها دقائق متفرغة من العمل حتى تجد عقلها يشت إلى تصور ما يجرى فى البيت .. بل إنها بدأت تحس كأنها مغتابة من زوجها مراد لأنه أخذ منها مسؤولية البيت .. ثم بدأت تطراً على بالها فكرة أخرى ..

لماذا لا تحيل نفسها على المعاش وترك العمل فى الشركة وتعود وتستقر فى بيتها بجانب زوجها .. سيكون الاثنان — هى وزوجها — فى حالة واحدة .. كلاهما محال على المعاش .. وكلاهما اختار التفرغ لحياة البيت بلا عمل بعيداً عن البيت ..

ولكنها لا تزال فى الخمسين من عمرها .. ولم ينقض على عملها فى شركة « المرأة السعيدة » سوى عام واحد .. أى ليس من حقها أن تحيل نفسها على المعاش .. وليس هناك قانون يفرض عليها الإحالة على المعاش كما يفرض على زوجها .. حتى يكون الاثنان فى حالة واحدة .. وهى لا تزال تفكر .. ويشتد ضعفها يوماً بعد يوم ..

إن متاعب البيت ومتاعب الزوج أرحم من متاعب البعد عن البيت وعن الزوج ..

إني سعيدة .. فقد أكلوا لحمي ..

كانت مغرورة بذكائها أكثر من غرورها بأنوثتها .. وقد استطاع هذا الذكاء أن يجعل عمرها كله كأنه صفقة مربحة .. وكانت قد حصلت على الشهادة الثانوية والتحق بالعمل في مكاتب مصانع الغزل والنسيج التي يملكها الثرى ورجل الأعمال الكبير بلتاجي جمعة .. واستطاعت بذكائها أن تستغل بهرة وحرارة أنوثتها فانتقلت خلال عام واحد للعمل كسكرتيرة للسيد بلتاجي جمعة نفسه .. كانت إحدى تيرات ولكنه خصص لها مكتباً وحدها .. وكانت كل مهمتها كسكرتيرة قاصرة على أن تدخل على السيد بلتاجي عندما يدق لها الجرس أو ترد عليه عندما يدق لها التليفون .. وبعد عام واحد تزوجها السيد بلتاجي مع احتفاله بزواجه الأولى ..

وقد انقطعت عن العمل كسكرتيرة والتردد على المصنع منذ تزوجت وتفرغت لزوجها في الشقة الرائعة التي خصصها لتكون بيت الزوجية في أرقى أحياء القاهرة .. والسيد بلتاجي رجل منظم إلى آخر درجات التنظيم في حياته الخاصة كما هو منظم في عمله .. وقد خصص لها ثلاث ليالي زوجية في الأسبوع .. ليلة السبت .. وليلة الاثنين .. وليلة الأربعاء .. وكانت متأكدة أنها في كل ليلة تزيد ارتباطاً بها .. دون أن تحاول أن تزيد من عدد هذه الليالي لتأخذ أكثر من زوجته الأولى .. إن ثلاث ليالٍ تكفيها وتريحها الليالي الباقية من الجهد الذي تبذله فيها .. ولم يكن جهدها محصوراً في استغلال أنوثتها .. بل

كان يعتمد أكثر على ذكائها .. وكان أهم ما يشغل ذكاءها هو فهم تفاصيل عمل زوجها .. وعلى أسرار مصانع الغزل والنسيج .. كانت كأنها تريد أن تطمئن على نفسها إذا ما تركها زوجها فجأة .. أو يتوفاه الله وخصوصاً أن فارق السن بينهما كبير .. تريد أن تطمئن على الاحتفاظ بنصيبها في أملاكه الواسعة ودخله الكبير .. وحتى قبل أن يموت فهي تريد أن يكون نصيبها على الأقل في مستوى نصيب زوجته الأولى وأولاده منها ويوفر لها نفس مستوى الرخاء .. وكانت تستطيع وهو معها أن تشده إلى الكلام عن أعماله .. ووصل تمتعه بالحديث إليها إلى حد أنه كان أحياناً يستشيرها في بعض مشاكل العمل العابرة .. وأحياناً كان يرسل إليها الرسومات المعدة لتقول رأيها فيها وفي اختيار ألوانها قبل أن يحولها إلى أقمشة .. أصبحت كأنها مستشارته الخاصة بجانب أنها زوجته .. وكل رؤساء العمل في المصنع أحسوا بنفوذها عليه وبدأوا يحسبون حسابها .. وهي لم تحاول أن تجاهر بهذا النفوذ حتى لا تعرض نفسها لخلافات ومناقشات سافرة ، ولكنها عملت على اكتساب صداقة بعض العمال وبعض الرؤساء .. صداقة عائلية بريئة .. كانت تستطيع من خلالها أن تكتشف تفاصيل أكثر من تفاصيل العمل لم تستطع أن تصل إليها من أحاديث زوجها ..

وقد أنجبت من زوجها ابنتها ليلي .. وبعد عامين أو ثلاثة تأكدت أنها لن تنجب منه أكثر .. وهي المسئولة .. فقد تعرضت في وضع ابنتها لما يحرمها من الاستمرار في الإنجاب .. وعلى كل حال فإن زوجها هو الآخر قد وصل من السن ما يخبره مع اهتمامه بالإنجاب .. ومنذ وضعت ليلي وهي تحيطها بذكائها بجانب أمومتها .. إنها

يجب أن تعدها لتحمل مسئولية مصانع أبيها وثروته بعد أن يموت وبعد أن تموت هي الأخرى .. حتى تستطيع ليلي أن تحتفظ دائماً بنصيبها وتحمي نفسها في مواجهة ولديه الآخرين من زوجته الأولى .. ولو أنهما أخوها غير الشقيقين إلا أن التباعد بين البيتين يصل إلى حد التباعد الكامل .. حتى إنها لم تلتق أبداً بهذه الزوجة الأولى وابنتها ليلي لم تلتق أبداً بأخويها .. وإن كانت تعلم أن لها آخرين وهما يعلمان أن لهما أختاً ..

ومنذ بدأت ليلي تكبر وأمل أمها فيها يخيب يوماً بعد يوم .. لقد أخذت عنها أنوثتها وإن كانت تشوبها بعض خطوط جافة ورثتها عن أبيها .. ولكنها لم تأخذ شيئاً أبداً من ذكائها .. ولا بارقة لطيفة من هذا الذكاء .. وربما كان غياب ابنتها هو الذى جعل منها فتاة مستسلمة استسلاماً كاملاً لكل ما يطلبه منها .. ولكن ابنتها مهما استسلمت فهي لا تستطيع أن تصب الذكاء في رأسها .. بل لا تستطيع حتى أن تثير فيها الإحساس بالطموح لتكون فتاة قادرة على تحقيق مصالحها .. إنها لا تستطيع حتى أن تثير فيها الرغبة في العلم .. وكانت دائماً تلميذة خائبة .. وعجزت عن أن تثير فيها الإصرار على النجاح في المدارس بعد أن نقلتها من المدارس الفرنسية إلى المدارس الإنجليزية ثم إلى المدارس العربية .. حتى وصلت إلى السادسة عشرة من عمرها دون أن تحصل على شهادة لها وزن وإن كانت قد وصلت إلى القراءة والكتابة والتعلم ببعض الكلمات الفرنسية والكلمات الإنجليزية ..

إن كل ما تحس به هذه الفتاة .. ابنتها ليلي .. هو أنها أنثى .. وكل ما تسعى إليه هو التمتع بأنوثتها .. حتى لو خرجت عن استسلامها لأمها ..

واختارت ليلي بعد أن تعدت السادسة عشرة ابن الجيران .. مصطفى .. وبدأت تحدثه في التليفون .. ثم بدأت تلقاه .. وأنها تعرف .. ولكنها لا تعتبر أن ابنتها وقعت في حب مصطفى .. إن ذكاءها لا يعترف بالحب إطلاقاً .. فالحب وحده لا يكفي لبناء المستقبل .. وترك ابنتها مع مصطفى على أنها فقط تلهو بأنوثتها .. ولكن مصطفى تخرج في الجامعة وتقدم بطلب الزواج .. وصرخت الأم .. لا .. مستحيل .. إنه شاب يسعى للانحياز بوزارة الخارجية ليبدأ حياته موظفاً في إحدى السفارات .. إنه مستقبل لا يصلح لابنتها .. إنها تريد لها شأناً يعد نفسه للأعمال الحرة .. يستطيع أن يقف بجانبها في حماية حقوقها التي سترثها عن أبيها .. إذا كانت ليلي لا تستطيع فعلى الأقل تنزوج من يستطيع ..

ومصطفى يلح .. وليلي تلح .. أريد أن أتزوجه ياماما .. إلى أن وافق الأب على هذا الزواج .. إن الأب لا يمكن أن يطرأ على خاطره أن يبحث عن يحمى ابنته من ولديه الآخرين .. واضطرت الأم أن توافق .. وسافرت ليلي مع زوجها حيث عين موظفاً في إحدى السفارات في الخارج .. وأحست الأم بعد أن سافرت ابنتها أنها فقدت كل ما قضت حياتها تسعى إليه وتحتفظ به .. فقدت مصانع الغزل والسيح وفقدت كل ما سيخلفه زوجها بلناجي من ثراء .. من سيحمي حقوق ابنتها بعد أن يموت ..

وقد مات زوجها فعلاً بعد عام واحد من زواج ابنتها .. ووقفت الأم وحدها تدافع عن حقوقها لا في تقدير الإرث فقط بل وفي إدارة هذا الإرث .. وأن تعرف أين كل مليم تركه زوجها المرحوم .. وتعرف كل

تفاصيل إدارة المصانع .. وولده رغم تباعدهما عنها .. ورغم الجفاء الذى يجمع بينهما .. لا يتخذان موقفا منها .. ولا يثيران أى مشكلة يمكن أن تؤدى بالعائلة كلها إلى القضاء .. بل إنهما سمحا لها بالاشتراك فى الإدارة وكونا مجلسا للإدارة تكون من بين أعضائه .. ولكن الأم لا تأخذ كل هذا على أنه حكمة منهما وحرصا على سمعة العائلة بل تأخذه على أنه نتيجة قوة ذكائها ..

وهى تشيخ .. إنها تخاف أن تموت هى الأخرى .. ولعلها بعد أن تموت ينفرد الولدان بكل شيء ولا يبقى لابتها شيء ..

وكانت ابتها قد جاءت فى إجازة مع زوجها مصطفى فانفردت به الأم بعد أن تعمدت أن تستقبلهما بترحاب كبير .. وقالت له :

— لماذا لا تستقبل وتفرغ لإدارة المصانع التى لزوجتك نصيب كبير فيها ..

واعترض مصطفى .. إنه مصمم على أن يبقى فى السلك الدبلوماسى حتى نهاية عمره .. هذا هو استعداد وهويته .. وطال إلحاح الأم واشتدت المناقشات حتى يفت ..

وبدأت تركز كل ذكائها على السيطرة على ابتها .. إنها تحاول أن تقنعها بأن مستقبلها ليس مع زوجها ولكنه مستقبل مع هذا الثراء الضخم الذى ورثته عن أبيها .. وسيضيع منها هذا المستقبل إن لم تعش له .. ويجب أن تعيش له حتى لو اضطرت أن تترك زوجها .. الطلاق .. واستسلمت ليلى لإلحاح أمها حتى بدأت المشادات بينها وبين زوجها ثم رفضت أن تعود معه إلى مقر منصبه بعد أن انتهت إجازته .. صارحته

بأنها تريد الطلاق .. ولم يطلقها قبل سفره ولكنه تركها مع أمها لعلها تعود إليه .. إنه يحبها ..

وذكاء الأم ينطلق بها كصاروخ .. إنها حتى تحتفظ بإصرار ابتها على الطلاق فيجب أن تشغل أنوثتها .. وهى لن تشغل أنوثتها إلا إذا وضعتها فى طريق زواج آخر .. وقد اختارت هى هذا الزوج الآخر .. إنه مهندس شاب يعمل فى مصانع الغزل والنسيج منذ أكثر من عامين .. وكل من فى المصنع يشيدون بعمله .. إنه موهوب إلى حد العبقريته .. وهى قد عرفت شخصيا وكان الوحيد الذى تستريح للمعلومات التى ينقلها إليها والآراء التى ينصحها بها .. المهندس رفعت ..

وبدأت تدعو رفعت إلى البيت وترفع الكلفة بينه وبين ابتها ليلى كأنه واحد من أفراد العائلة .. وقد عرف أن ليلى طلبت الطلاق من زوجها .. ووجد أنه يستطيع أن يتمنى زواجها .. ثم بدأ يطلب الزواج فعلا .. ولعل ليلى لم تحب رفعت ولكن الجو الذى كانت تحيطها به أمها كان جوا يثير كل أنوثتها .. وكل ما تستجيب له أنوثتها مباح لها ..

إلى أن يش منها زوجها مصطفى وأرسل لها الطلاق .. وستزوج رفعت .. ولكن رفعت يطلب التأجيل فترة إلى أن يتم زفاف أخته التى أعلنت خطوبتها .. ولكنه بدأ يتغير .. لعله قدر أن زواجه بليلى سيضعه فى نوع جديد من العلاقات مع أخويها اللذين يديران المصنع الذى يعمل فيه .. وهو يحترم الأخوين بل ويخافهما .. إنهما أقوى مما تقدر الأم .. ولعله قدر أنه لكى يعيش زواجه بليلى فيجب أن يعيش بين أصابع الأم .. وهو من الذكاء بحيث يقدر ذكاء هذه الأم ويخافه ويخشاه .. إنه ذكاء محصور فى الأنانية والملكية الخاصة ..

إلى أن جاء يوم فوجئت فيه الأم ومعها ابنتها باستقالة رفعت من العمل في مصانع بلتاجي .. وجاء إليها معتذرا بأن الدولة عرضت عليه أن يعمل في مصانع المحلة متحملا مسئولية رئيسية وبعد إرساله في بعثة إلى موسكو لدراسة آلات النسيج هناك التي تنوي مصر استيرادها .. وهي بعثة قد تطول إلى أكثر من عام .. لذلك فهو يطلب تأجيل الزواج .. ويترك ليلى حرة ..

وجئت الأم .. كأنها طعنت في ذكائها .. وألحت على رفعت في استجداء أن يعدل عن قراره .. أن يستسلم لما رسمته له .. وصعقت ابنتها ليلى .. إنها لا تحب رفعت ولكن أنوثتها كانت قد تعودت عليه واستقرت معه .. ووصل إلحاحها عليه إلى حد أن أمضت ليالى في فراشه .. وأما تعلم وتتركها تعريه بكل أنوثتها .. ولكن كان رفعت يكرر وهي بين أحضانه .. لا تستطيع أن بقرر شيئا الآن .. لترك حينا في يد القدر ..

إنه يهرب ..

والأم ليست من الضعف حتى تستسلم للقدر أو تترك ابنتها تستسلم له ..

وكان بين مهندسى مصانع بلتاجي شاب آخر .. عباس مختار .. إنه في منتهى النشاط .. وإن كان نشاطه محيرا .. نشاط يثير دائما ضجة متعبة ولكنه إذا وضع نفسه في عمل ينجح دائما فيه .. وقد عرفته هو الآخر شخصا .. كان هو الذى استطاع أن يصل إليها ويكسب رضاءها باعتبارها من ورثة بلتاجي وعصوة في مجلس الإدارة .. وربما سعى إليها لأن ولدى بلتاجي كانا يتعمدان إبعاده والحد من نشاطه مع

احتفاظهما به .. فأراد أن يستند عليها .. لماذا لا يكون هو من تسعى إليه ليرعى مصالح ابنتها بعد أن تموت .. لماذا لا يكون هو الزوج المطلوب .. الزوج الذى يغنيها عن انتظار ما يخفيه القدر على يد رفعت .. ودعته إلى البيت .. وتركته منذ اليوم الأول يفهم أن ابنتها تبحث عن زوج .. ثم تركه يطلبها .. وليلى لم تفكر أبدا في الرفض أو القبول .. بل لعلها لم تهتم بأن تعرفه أو حتى تهتم بالتدقيق في ملامحه .. إنها منكوبة بما حدث لها مع رفعت .. وتريد أن تهرب من نكبتها .. وعباس يملأ دنياها بنشاطه ولا يكف عن إشغالها بنفسه وإضحاكها وتسليتها وشدها بعيدا عن نكبتها .. لماذا لا تتزوجه .. على الأقل حتى تغيظ رفعت وكأنها تقول له إنها تستطيع أن تجد مثله عشرات يتقدمون إليها بإشارة من أصبعها ..

ولم تنتظر الأم مدة كافية حتى يعيش عباس معها كخطيب لابنتها .. وحتى تختيره وتعرفه أكثر .. لقد قررت أن يتم الزواج في الحال .. وعندما عرف أخوا ليلى وقبل عقد القران ذهبا إلى الأم بنصحانها برفض هذا الشاب .. إنه شاذ .. مجنون .. ورغم كل مظاهر نشاطه إلا أنه لا يوثق به .. ولكن الأم صممت أكثر .. لعلهم لا يريدونه لأنهم يخافونه .. يخافون من قوة وعيه تقف في وجوههم حماية لحقوق ابنتها وهم يديرون المصنع ..

واستسلم الأخوان حتى إنهما حضرا عقد القران حرصا على المظهر العائلي .. وقد مضت الأسابيع وعباس يبدو كزوج مثالى .. هادئ .. حاد .. حريص على مظهره الجديد كزوج ابنة عضو مجلس الإدارة .. ولكنه بدأ يضيق بهذا المظهر وهذا الهدوء والجدية .. وكأنه عاد إلى

طبيعته .. عاد نشطا هذا النشاط المجنون .. ولم يعد يستجيب لمطالب الأم ولا يراعى خواطر ليلي .. إنه ينطلق حرا .. ولا يقلع إلا في العمل الذي يختار أن يضع يديه فيه .. ولا أحد يدري كيف ولا ماذا يختار .. وفي نفس الوقت لم يكن يحاول أن يجعل من نفسه شخصية بجانب شخصية ولدى بلناجي .. إنه لا يريد أى مسئولية جادة من مسئوليات العمل .. والولدان يعاملانه كما تعودا معاملته .. يتركانه مجنوناً دون أن يحاولا التخلص منه ..

وبدأت الأم تفقد أملها فيه .. بل بدأت تحس بأن قيمتها تنهار فى المصانع بنسبة هذا المجنون إليها كزوج لايتها .. ولىلى تنهار يوما بعد يوم مستسلمة لليأس .. إن هذا الزوج لا يحقق لها شيئا .. لا يستطيع أن يملأ حياتها .. ولا يستطيع أن تعيش مكنتية به .. بل إنه حتى لا يستطيع أن يرضى أنوثتها ..

واتخذت الأم قرارها .. يجب أن يتم الطلاق .. وفرحت ليلي .. إنها فعلا تريد الطلاق دون حاجة إلى إلحاح أمها كما كانت تلح عليها لتطلق زوجها الأول مصطفى .. وأصبحت ليلي وحيدة ..

وعادت الأم منطلقة وراء ذكائها تبحث عن طريق آخر يضمن لابنتها حقوقها ويصون شخصيتها كوريثة بلناجي بعد أن تموت هى .. وكانت تحاول أحيانا تعليم ابنتها أسرار العمل فى المصانع .. بدأت تحدثها كثيرا عن تفاصيل إدارة المصانع وإدارة أملاك أبيها .. بل إنها صحتبتها أكثر من مرة إلى المصانع وفرضت حضورها معها فى اجتماعات مجلس الإدارة .. لعلها تتعلم وتفهم وتستطيع الاعتماد على نفسها .. ولكن ليلي لا تستطيع

أن تفهم .. بل لا تستطيع أن تهتم بما تلقته لها أمها .. وعندما تذهب معها إلى المصنع تتعلق عيناها بوجوه الشبان من المهندسين وكبار الموظفين كأنها تختار واحدا منهم ..

ولكن ليلي كانت تمر بها ليلالى تقضيها مع دموعها وهى تستعرض كل حياتها .. إنها لم تمر بها أيام سعيدة هادئة مستقرة أحست فيها بأهميتها واستكمال كل شخصيتها .. أيام بعيدة عن هذا الضجيج الذى يضح فى خيالها .. ضجيج آلات مصنع الغزل والنسيج .. وضجيج رنات الذهب الذى تركه أبوها .. لم تمر بها أيام سعيدة إلا أيام زواجها من مصطفى .. لقد كانت تعيش اليوم كله ويعيشه لها .. وكانت تفرح فى العاصمة كلها التى يعمل فيها وفى المساء تبلو ملكة صغيرة بين سيدات السلك السياسى .. لقد كانت تحبه .. ولكنه كان حبا سهلا بين يديها حتى لم تكن تحس بأن هذا هو الحب .. ولكن أين مصطفى الآن .. لقد أصبحت فى عالم غير عالمه .. وهى تندم اليوم لأنها لم تنجب منه .. لقد كانت واثقة من أنه سيقبى لها العمر كله حتى أجلت أمومتها لستمع معه بمزيد من شبابه .. ربما لو كانت قد أنجبت منه لكان ابنتها الآن بجانبها يخفف من وحدتها ونكبتها .. ولكن أين الآن مصطفى على الأقل لتنجب منه وليدا يتركه لها ..

وهى من خلال كل دموعها لا تحس بأنها تلوم أمها .. هى التى طلقتهما من مصطفى .. وقذفت بها إلى رفعت .. وزوجتها من عباس .. ولكنها لا تحس كأنها تلومها .. إن استسلامها لا يتيح لها الإحساس بها إلا كأم .. ولا يمكن أن يصل بها إلى حد لومها ..

ومضت شهور والأم وابنتها تائهتان .. لا يقيصهما شيء .. ولكنهما تائهتان وسط عواصف الذكاء التي تنطلق من عقل الأم .. إلى أن وقع الحدث الأكبر ..

لقد أمتت مصانع بلتاجي وصودرت كل ثروته .. وحتت الأم .. وهمت أن تطوف بصرخاتها .. ولكنها خافت أن يقبض عليها وتعتقل كما اعتقل ولدا بلتاجي .. واختبأت هي وابنتها في شقتها التي صودرت أيضا وإن كانوا قد تركوا لها حق الإقامة فيها هي وابنتها .. وقد صرفوا لها إعانة حكومية قيمتها سبعون جنيه في الشهر لتعيش بعد أن صودر كل ممتلكاته .. ولكن كان ذكاؤها كأنه يتنبأ بالغيب فكانت دائما تحتفظ بأموال لا يدري أحد مكانها حتى الحكومة .. ولم تكن تسحب من هذه الأموال إلا قروشا فقط لتستكمل الضروري من مطالب الحياة حتى لا يظهر عليها أى مظهر يدل على أنها تخفى شيئا عن الحكومة .. عن الثورة ..

ومضى شهران وهما يعيشان في الشقة كأنهما يعيشان في قبر .. ولا يجدان حتى من يزورهما في القبر ليترحم عليهما .. ودق جرس الباب ذات يوم ..

إنه مصطفى ..

جاء من عمله في إجازة ويمر عليهما ليطمئن .. ربما دفعه حافز الاطمئنان على ليلي وحدها .. إنه رغم كل ما حدث لا يزال يحبها .. أو على الأقل لا يزال يذكر أنه كان يحبها ..

وصرخت فيه الأم .. إنه الآن قد أصبح في مركز السلك السياسي ولا شك أنه على صلة بكل الشخصيات المهمة في البلد .. إنه يستطيع

أن يتقدها .. يستطيع أن يرد لهما على الأقل بعض ما كان لهما .. ولكن مصطفى يعتذر .. إنه لا يستطيع شيئا .. وكلماته تقطر لوعة وشفقة عليهما ..

وليلي استسلمت لدموعها وهي ترى مصطفى أمامها .. لا تجد ما تقول .. بل لا تستطيع أن تنطق بكلمة .. ومصطفى يربت عليها صامتا هو الآخر .. لا يدري ما يقوله .. ولكنه لا يستطيع أن يتركها .. وبعد أن تركها عاد إليها .. عاد كأنه عاد إلى حبه .. إنه لم يكن يعرف ما حدث لها بعده إلا أنها تزوجت وفشل زواجها .. وهو يقدر أنها لا شك تزوجت استسلاما للأم .. ولكنها لم تستطع أبدا أن تجد رجلا آخر غيره .. إنه يشعر بأنها مظلومة .. بأنها ضحية أمها .. ولم يعد هناك الآن ما يدفع الأم إلى حرمانها منه .. لم تعد هناك مصانع تريد لابنتها زوجها يديرها ويحفظ حقوقها فيها .. إنهما في حاجة لمن يحمي مجرد وجودهما على قيد الحياة في هذا المجتمع ..

وقال للأم إنه يريد أن يعيد ليلي زوجه له .. وهو يستطيع أن يصحبها لتقيم معه ومع ابنتها في الخارج .. وسكتت الأم وهي راقدة على فراش المرض وقد ازدادت شيخوخة حتى كأنها تلفظ نهايتها .. لم ترفض .. ولم يهن عليها أن تتنازل عن كبريائها وتوافق .. إنها إذا وافقت على هذا الزواج فكأنها وافقت على ضياع كل جامع ذكاؤها خلال العمر كله ..

ومصطفى متعجل قبل أن تنتهي إجازته ويعود إلى عمله في الخارج .. وتم الزواج فعلا .. وخرجت ليلي من كل نكبتها ومن كل ضياعها ومن كل نكباتها .. لم تعد تحس بأنهم أخذوا منها أو من أمها

شيئا .. لقد عادت إليها الدنيا كلها بعد أن عادت إلى مصطفى .. إلى حبها .. أصبح كل ماتريده الآن هو أن تنجب فورا .. حالا .. حتى يعطيها ولدا يحمىها من وحدتها .. إنها لا تزال تخشى الماضي .. تخشى الوحدة .. والضياح .. بعيدا عن مصطفى ..

وقالت تسأل مصطفى ورأسها راقد على صدره :

— لا أدري لماذا أخذوا منا كل شيء ؟..

وقال مصطفى في بساطته الحلوة :

— إنها الاشتراكية ..

وقالت ليلى ضاحكة :

— إنى أحب الاشتراكية .. فهي تعطيني نظير ما تأخذ .. لقد أعطتني

الاشتراكية حبي .. أعطتني أنت ..

وكانت ليلى بسذاجتها تحس فعلا أن ما يسميه زوجها بالاشتراكية

هو ما أعاده إليها .. لقد كانت المصانع التي ورثتها هي وأمها هي التي

مزقت حياتها .. والاشتراكية هي التي أعادت إليها الحياة ..

ووقفت أمام أمها الراقدة الفراش تصيح ضاحكة :

— لقد أصبحت اشتراكية ياماما ..

وصاحت الأم وهي تزفر أنفاسها :

— إنك كما أنت .. غبية .. حمارة .. حتى لو مزقوك وأخذوا

لحمك فلن تشعري بأنه كان لك لحم ..

وأغمضت الأم عينيها الغمضة الأخيرة ..

مهندس ميكانيكي

لم يكن محروس في طفولته وصباه يتعمد أن يتعلم أى شيء .. كان مجرد واحد من إخوته الثلاثة أبناء الباشاويش مجاهد .. عسكري وليس بثلاثة أشربة وأحد أفراد قوة حرس الوزارات .. وكان يعيش كل دنياه وكل عقليته داخل حارة الشيخ بر كه بحى إمبابة .. ولكنه منذ بدأ يعي وهو يتميز عن إخوته بأنه يمد أصابعه إلى كل شيء أمامه ويحاول أن يلعب به .. ولكنه كان نوعا غريبا من اللعب .. إنه يفتح كل غطاء يصادفه .. ويفك كل مسمار تصل إليه أصابعه .. ويشد كل خيط أمامه .. كان كأنه لا يريد أن يلعب فى الحارة مع بقية الصبية ولكنه يقضى كل فراغه فى اللعب بكل ما فى البيت .. ورغم الضرب العنيف الذى كان ينهال عليه به أبوه أو أمه كلما أفسد شيئا كان لا يلبث أن يعود ويمد أصابعه إلى كل شيء ..

ولم يحاول أحد فى البداية أن يفسر سر اختيار محروس لهذا النوع من اللعب .. ربما كان شاذاً أو مجنوناً .. وليس أمام الوالدين إلا الاستسلام لما كتبه الله عليهما فى أبنائهما .. ولم يكتشف أحد أن سر تمادى محروس فى مد أصابعه إلى كل شيء هو أن فى طبيعته حافز يسيطر عليه ويدفعه إلى معرفة أسرار كل شيء .. وقد وقعت بين أصابعه مرة الساعة الوحيدة التى يملكها أبوه ويعتز بها ويتفاخر بها .. فإذا به يتحایل بأصابعه حتى يستطيع أن يفتح غطاءها ثم يبدأ فى فك التروس ، المسامير من داخلها .. يريد أن يعرف كيف تدور هذه الساعة ،

ولماذا يعتز بها أبوه كل هذا الاعتزاز .. إلى أن خاف بأن يعود إليه أبوه ويضبطه يلعب بساعته .. وحاول أن يعيد كل شيء في الساعة إلى ما كان عليه فلم يستطع .. وضبطه أبوه .. وانهاه عليه ضربا حتى كاد يهشم رأسه وهو يهدد أن يطرده من البيت ويرسله إلى القرية ليعيش فيها .. وحمل أبوه الساعة إلى محل الساعاتي ليعيدها إلى حالتها .. وبعد أيام كان محروس قد نسي آثار « العلقه » التي ناله وكان يعرف محل الساعاتي الذي يتعامل معه أبوه على ناصية الحارة فذهب إليه ، وقال في براءة :

— أبى يسأل عن ساعته ..

وقال الساعاتي مبتسما مرحبا :

— ذكرتني .. كنت قد نسيتها رغم معزة أبيك ..

ثم التقط الساعاتي حطام الساعة وأخذ يعيد منها كل شيء إلى مكانه ومحروس بجانبه يطل عليه بعينين مبهورتين .. يريد أن يعرف كيف تعود الحياة إلى هذه الساعة .. وربما لم يعرف كل شيء ولكنه على الأقل عرف بعض الأسرار التي تدور بها الساعة ..

وأكثر من ذلك .. لقد اختلى مرة بالمسدس الميرى الضخم الذى يحمله أبوه كأحد رجال حرس الوزارات .. المسدس الذى يحمى به كل وزير يقوم على حراسته .. وأيضاً أخذ يقلب هذا المسدس بين يديه وهو يسائل نفسه في إلحاح .. كيف تعمل هذه الآلة الثقيلة .. إنه يعلم أنها تقتل ولكن ماذا فيها حتى تقتل .. وقد حدث وهو يقلب المسدس بين يديه ويحشر أصابعه في كل ما يستطيع أن يصل إليه منه .. حدث أن انطلقت منه رصاصة .. والحمد لله .. لقد أصابت الرصاصة حائط

الغرفة .. لم تصبه .. وهجم عليه أبوه وكل من في البيت ونزع المسدس من يده ثم انهاروا عليه جميعا ضربا .. وصمم أبوه على أن يطرده من البيت ليقمع مع خالته .. والأب يكاد يجن .. كيف يخفى الخبر عن الحكومة التي تحاسبه على كل رصاصة تنطلق من المسدس وكيف يحصل على رصاصة أخرى يضعها مكان الرصاصة التي أطلقها محروس .. ولم يمض أسبوع حتى كان الأب قد هدأ وربما قد استطاع أن يحل مشكلة الرصاصة الناقصة .. وعاد محروس إلى البيت ..

وربما كان أول ما برز في شخصية محروس هو اهتمامه بحفريات المياه .. كيف تصل المياه إلى الحنفية .. وما هو سر هذه الحنفية التي تدور عليها المياه .. وأقدم وهو لا يزال في صباه وانتهر فرصة خلوه في البيت بعيدا عن أفراد العائلة ومد أصابعه إلى الحنفية .. واستطاع أن يفكها من مكانها وانطلقت المياه تغرق الحمام ولكنه كان من الذكاء بحيث استطاع أن يعود بالحنفية إلى مكانها ويوقف انهيار المياه .. بل إنه كلف نفسه بتجفيف الحمام حتى لا يعرف أحد من أفراد العائلة ما حدث ويوفر على نفسه العلقه التي تنتظره .. ولكنه في مرة ثانية عندما مد أصابعه إلى الحنفية لم يستطع أن يعيدها إلى مكانها ويوقف انهيار المياه حتى أغرقت البيت كله .. ونال العلقه الساخنة إلى أن استدعت العائلة سبكا ليعيد إصلاح الحنفية .. ورغم أنه كان لا يزال يعاني من آثار العلقه إلا أنه تسلى ووقف بجانب السباك .. الأسطى عوض .. وقد كان رجلا عجوزا طيبا لاحظ اهتمام محروس بتتبع ما يعمل فأخذ يشرح له كل شيء كأنه يعلمه .. وقد أحب محروس الأسطى عوض وأصبح يتردد عليه في دكانه ويجلس بجانبه يراقب يديه وهي تعمل .. وأحب

الأسطى عوض محروس ويفرح بتردده عليه ويكلفه بأعمال الصبية الصغار .. بل إنه كان عندما تسنح الفرصة يصحب محروس معه عندما يستدعى لإصلاح دورة مياه فى بيت من البيوت .. وتعلم منه محروس الكثير .. ولم يعد يمد أصابعه إلى حنفيات البيت فقد أصبح على علم بكل أسرارها .. فإذا تعطلت حنفية قام هو بإصلاحها دون أن تضطر العائلة إلى استدعاء سباك .. بل أصبح يتولى إصلاح كل ما يخص دورات المياه .. السيوفون .. والباليغ .. والمجارى .. واعترفت به العائلة على أنه ابن شاطر تفخر به .. بل إنه ذاع صيته فى الحي كله كواد شاطر يستطيع أن يصلح كل ما يصيب دورات المياه .. فإذا حدث عطل فى أى بيت جاء أهله يستغيثون به .. ويستجيب لهم فرحا كأنه سيلعب لعبة المفضلة .. وكان أهل هذا البيت يكرمونه بعد أن ينتهى من الإصلاح ويقدمون له حنفية من البلح أو حبات من الفاكهة، وفى مرة قدمت له سيدة البيت ساندويتش من الجبن .. كأنهم يدفعون له أعباءه

وكان ذلك لم يؤثر على استمراره فى الدراسة فقد كان أهم ما يحرص عليه أبوه أن يحصل أبناءه على شهادات دراسية رسمية .. وأخوه الأكبر الآن فى الثانوية العامة .. وهو قد نال الشهادة الإعدادية ووضع أبوه فى المدرسة الثانوية .. ولكنه رغم أنه ينجح فى المدرسة دائما إلا أنه لا يميل إلى الدراسة .. ويحس فى قرارة نفسه أنه يضيع وقته فيما لا يهيمه .. إن كل ما يهيمه هو تحريك أصابعه مع عقله .. وكان لا يزال يردد على الأسطى عوض ويساعده فى أعمال السباكة تطوعا .. بلا أجر .. ولم يعصب الأسطى عوض عندما بدأ يعرف أن محروس يتطوع

أيضا لإصلاح دورات مياه بيوت الحي .. وكأنه يغنيهم عن الحاجة إلى سباك .. أى أنه يتسبب فى قطع بعض رزقه عنه .. ولكن الأسطى عوض لم يعصب .. وربما كان مقتنعا بأن محروس رغم غرامه بأعمال السباكة فهو لن يكون سباكا أبدا .. إنه فى المدرسة ووصل إلى التعليم الثانوى ولا شك أنه طامع فى وظيفة من الوظائف الحكومية المحترمة .. وكان الأسطى عوض قد صحب محروس معه يوما إلى محل بيع الأدوات الصحية الذى يملكه المعلم إبراهيم عبد المسيح ليشتري منه بعض ما يحتاج إليه فى عمله .. وقدمه عوض إلى صاحب المحل قائلا : — محروس فى المدارس .. فى الثانوى .. إنما سباك شاطر .. ده تلميذى ..

ونظر إليه المعلم عبد المسيح فى إهمال وبلا ترحيب .. وقد عرف محروس فيما بعد أن المعلم عبد المسيح ليس فقط صاحب محل الأدوات الصحية بل إن كثيرا من البيوت وخصوصا بيوت الأحياء الراقية تتصل به كلما حدث خلل فى دورات المياه ليذهب لإصلاحها وهو فى الغالب يرسل بدلا عنه واحدا من السمكرية الذين يعملون معه ..

وبدأ محروس يفكر فى العمل مع المعلم عبد المسيح .. إنه يعانى الملل فى دراسته الثانوية .. لا يحس بأنه يستفيد شيئا يريده أو يتطلع إلى مستقبل يمتناه .. ومن الأفضل أن يستغل نفسه فى شيء يريده .. ولكنه قبل أن يتخذ قرارا حدث أن كان أبوه يقوم بمهمة حراسة أحد الوزراء وسمع منه صدقة شكواه من متاعب دورة المياه فى بيته .. فقال أبوه كعادته فى التقرب إلى من يخدمهم :

— هل تسمح لى سيادتك بأن آتى إلى البيت بمن يحل كل المشكلة ..

وقال الوزير :

— ياليت ! ..

وعاد أبوه يقول :

— إنه ابنى .. وأنا واثق أنه يستطيع أن يصلح أى شىء فى أى دورة مياه ..

وقال الوزير فى دهشة :

— هل هو سباك .. هل يحترف السباكة ..

وقال أبوه فوراً كأنه يدافع عن نفسه :

— لا يابيه إنه الآن فى المدرسة الثانوية .. ولكنه موهوب ونحن

والحى كله نعتمد عليه كأن الله أرسله إلينا ليريحنا من متاعب دورات المياه ..

.. وقال الوزير ضاحكاً :

— أرسله يحاول إنقاذنا ..

وأخذه أبوه إلى بيت الوزير وهو طوال الطريق يوصيه ويلح عليه بأن يبذل كل ما وهبه الله من ذكاء وجهد .. إن إصلاح دورة مياه الوزير قد تؤدى إلى ترقيةه إلى رتبة صول .. ثم تركه ليدخل بيت الوزير وحده .. وقد بذل محروس فعلاً منتهى جهده حتى أصلح فعلاً دورة مياه الوزير بعد أن تعب أكثر من أربع ساعات .. بل إنه استطاع أن يصلح كل شىء دون حاجة إلى شراء قطع غيار جديدة حتى يأخذ عمولة من المحال التى يشتري منها كما يفعل السباكون المحترفون .. وقد أشاد الوزير بقدراته

مرحاً به ثم مد يده وأعطاه جنيهه واحداً أتعاباً له ..
وأخذ محروس الجنيه الواحد صامتاً وخرج إلى أن وصل إلى أبيه الذى ينتظره على باب العمارة وأعطاه الجنيه الذى أخذه .. وصرخ أبوه فيه :

— كيف تأخذ منه .. إننى تبرعت بك لخدمته ..

ثم أخذ الجنيه وصعد به إلى الوزير .. ولا يدري محروس هل استرد الوزير الجنيه من أبيه أم أعطاه جنيهه آخر فقد عاد إليه دون أن يقول له شيئاً إلا أن الوزير كان سعيداً بما قام به من إصلاحات ..
وكان هذا هو أول جنيه يصل إليه نظير هوايته لإصلاح دورات المياه ..

وبعداً قرر أن يذهب إلى محل المعلم إبراهيم عبد المسيح .. واستقبله المعلم فى برود وهو يقول له أنه سيجريه .. وسيرسله للقيام بعملات إصلاح .. والنصف بالنصف .. أى يكون من نصيبه نصف ما سيخرج به من أتعاب والنصف الآخر من حق المحل الذى كان صاحب الفضل فى تشغيله .. وأرسله فى نفس اليوم إلى بيت فى حى راق من أحياء الزمالك ..

وأتهم محروس العملية على أكمل وجه .. وناولته ست البيت جنيهها .. واحداً أتعاباً له .. ربما كان الجنيه هو السعر الرسمى للسباكين .. فإن الوزير أيضاً لم يدفع له أكثر من جنيه .. ولكنه عندما ناول الجنيه للمعلم عبد المسيح ليحاسبه عليه صرخ فى وجهه :

— ما هذا .. هل أنت مجنون .. هل ذهبت لتعمل أم تشحذ ..

وقال محروس فى براءة :

— لقد كانت عملية صغيرة سهلة ..

وعاد عبد المسيح يصرخ في وجهه :

— لمجرد أن تضع يدك لا تخرج بأقل من ثلاثة جنيهات .. حتى لو ركبت جلدة حفية ثمنها قرشان صاغ .. وسأسمحك هذه المرة لأنك لازلت جاهلا .. ولكنك لا تخرج بعلم .. لن يكون لك نصف هذا الجنيه .. لأن عبد المسيح لا يقبل أن يبيع نفسه بخمسين قرشا .. وتركه يذهب دون أن يحقق الاتفاق بأن يكون لكل منهما نصف الأتعاب .. واحتفظ بالجنيه كله لنفسه .. ورغم ذلك ففي اليوم التالي هرب من المدرسة وذهب إلى محل عبد المسيح .. إنه لم يعد يذهب إلى المدرسة وتفرغ لعمل السمكرة .. واستطاع بسرعة أن يفهم السوق .. إنه يخرج من أصغر عملية يقوم بها بثلاثة جنيهات .. وأحيانا يصل إلى خمسة جنيهات .. بل إنه في عملية كبيرة وصل إلى عشرة جنيهات .. إن المعلم عبد المسيح يرسله دائما إلى بيوت ناس أغنياء يستطيعون أن يدفعوا .. وكانوا عندما يجادلونه يكتفي بأن يقول كأنه يغطي صغر سنه :

— هذه هي أسعار المعلم عبد المسيح ..

وتعود أن يرفع من قيمة المبلغ الذي يطلبه كأتعاب له حتى إذا طالت المناقشة تنازل عن بعض ما طلبه دون أن يخسر شيئا ..

وقد وصل مكسبه في شهر واحد إلى ستين جنيها .. أكثر من مرتب أبيه الباشويش .. ولم يكن يعطى لأمه شيئا مما يكسبه يوما بيوم ولكنه بعد أن جمع مكسب الشهر فاجأها بأن أعطاها خمسين جنيها وهو يقول ضاحكا :

— حذى كل هذا المبلغ .. وإما أن تشتري به كله ما يلزمنا أو

تدخري لى شيئا منه .. أنت حرة ..

وفرحت أمه وهلت وأخذت تدعو له .. وعندما عرف أبوه لم يستطع أن يخفى فرحته .. وأخذ يسأل ابنه عن كل شيء إلى أن قال له :

— والمدرسة يا بني ..

وقال محروس وهو مزهوا بنفسه :

— ماذا أفعل بالمدرسة .. على كل حال إنني أستطيع أن أحصل على

الشهادة وأنا في البيت مادمت تريد شهادة ..

ولم يفكر أبدا في الحصول على شهادة .. وتفرغ كله لعمله ..

سمكري .. وقد عرف بين كل من ذهب إلى بيوتهم بأنه عبقري في

السمكرة .. وهو يعتمد فعلا أن يبذل كل جهده في كل عمل .. ويعتمد

أن يتعلم وسائل جديدة للإصلاح وأن يكتشف كل الأسرار .. وكان

علاوة على ذلك مهذبا بطبيعته وكان الزبائن يستريحون له حتى أصبحوا

يطلبونه باسمه من المعلم عبد المسيح كلما احتاجوا إليه .. وقد وصل

ما يحققه من دخل في الشهر إلى مائتى جنيه وأحيانا يصل إلى

ثلاثمائة .. فلماذا يشاركه المعلم في نصف ما يكسبه بحجة أنه يستعمل

اسم المحل .. إنه لم يعد في حاجة إلى اسم المحل .. إن اسمه الآن

أصبح معروفا .. الأسطى محروس .. وبدأ يضع لنفسه خطا جديدا ..

فكان إذا أرسله المعلم عبد المسيح إلى أى بيت وبعد أن ينتهى من عمله

فيه يترك لأهل البيت رقم تليفون ليتصلوا به إذا احتاجوا إليه .. ولم يكن

رقم تليفون محل عبد المسيح ولكنه رقم تليفون مقهى مجاور .. وكان

قد اتفق مع صاحب المقهى على أن يستغل تليفونه نظير أتعاب .. وبدأ

لا يقضى يومه داخل محل عبد المسيح إلى أن يأتيه بعمل يقضيه في المقهى .. وهو يخفى عن عبد المسيح كل شيء .. كل ما يقوله له إنه يستطيع أنه يناديه من المقهى إذا أراد .. ولكنه كان يناديه فلا يجده .. ويكون تلفون المقهى قد استدعاه إلى عمل .. إلى أن اكتشف عبد المسيح أنه بدأ يعمل لحسابه ويحرمه من مناصفته في الأرباح وقامت بينهما مجادلات حادة انتهت بأن انقطع ما بينهما .. واتخذ محروس من المقهى محلا له بل إنه اتفق مع صاحب المقهى على أن يخصص له ركنا يستأجره منه ..

وقد بدأ عبد المسيح يحاربه وكان إذا طلبه أحد زبائنه قال له إن محروس سافر ليعمل في الكويت .. أو يقول له إنه لم يعد يصلح للعمل .. ولكن محروس لم يكن يهتم فإن زبائنه أصبحوا أكثر من زبائن محل عبد المسيح للأدوات الصحية .. إنه كلما ذهب للعمل في بيت قدمه هذا البيت إلى عشرات البيوت الأخرى .. عشرات الزبائن .. حتى زبونه الأول الذي كان وزيرا يقوم أبوه الباشاوش على حراسته لا يزال يتعامل معه ويرسل إليه عشرات الزبائن .. وكان لا يزال يجامل الوزير في أتعابه ولكنه لا يجامل أحدا غيره .. بل إنه من شدة ثقته بنفسه ابتكر نظاما جديدا للتعامل مع الزبائن .. فهو أولا يطالب بمبلغ يدفع له نظير الكشف عن الجانب المعطل .. وبعد الكشف يطالب بأتعاب أخرى منفصلة نظير القيام بعملية الإصلاح .. إنه كطبيب متخصص بمعالجة دورات المياه .. وكان الزبائن غالبا ما يستسلمون لما يطلب .. إن زبائنه كلهم من طبقة الأثرياء .. وقد وصل إلى أن أصبح الحد الأدنى لما يكسبه في الشهر إلى ثلاثمائة جنيه .. وأحيانا يرتفع إلى أربعمائة .. أو

خمسائة .. وقد أصبح يقبل مسئولية أعمال كبيرة تحتاج إلى أن يستعين فيها بعامل آخر أو اثنين .. وهو يكرم كل من يعمل معه حتى أحبه كل العاملين في مجال السباكة .. وأصبح كأنه زعيم أو رئيس بينهم رغم أنه لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره .. وأحلامه لا تنتهى .. لماذا لا يقيم محلا تجاريا للأدوات الصحية وقد اكتشف كل أسرار هذه التجارة منذ كان يعمل مع عبد المسيح ؟ .. لماذا لا يصل إلى أن يكون مقاولا لتركيب الأدوات الصحية في العمارات الجديدة التي بدأت مشروعاتها تملأ القاهرة ؟ ..

* * *

وكان محروس منذ بدأ يعمل ويكسب وهو يتطلع إلى حياة أرقى يعيش فيها .. إنه لا يحقق على الأغنياء ولكنه يريد أن يتمتع بما يتمتعون به .. وقد بدأ لا يطبق الحياة في حارة الشيخ بركة .. واستطاع بعد أن بدأ يربح أن ينقل العائلة كلها إلى شقة في عمارة في إمابة على الشارع الرئيسي وتطل على النيل .. ثم بدأ يضع مظهرها جديدا للسكركى .. لماذا يذهب السكركى إلى عمله وهو مرتد زيا مبهدلا متسخا كأنه يعلن عن فقره وانحدار مستواه ؟ .. وبدأ يعتمد أن يكون دائما نظيفا كأنه من أولاد الطبقة القادرة .. وقد وصل إلى أن أصبح يرتدى بدلة كاملة من « البلوجينز » الأمريكية .. ينظفون وجاكت .. ودائما نظيفة فإذا اتسخت في إحدى العمليات لم يذهب بها إلى العملية الأخرى .. فقد أصبح عنده أكثر من بدلة .. وأصبح يحمل الأدوات التي يعمل بها في حقيبة أنيقة زاهية كأنها حقيبة أحد كبار رجال الأعمال .. ثم أصبح له صبي خاص يحمل له الحقيبة ويعمل معه .. بل إنه بعد أن زاد دخله

استطاع أن يشتري سيارة صغيرة .. كانت قديمة واشترها مستعملة ولكنها كانت أنيقة .. وأصبح يقودها مزهوا والصبي يجلس خلفه كعادة أولاد النوات عندما يقودون السيارة ويجلسون الخادم خلفهم لا بجانبهم .. ويذهب بهذا المظهر الأنيق لإصلاح حنفية أو سيفون أو بالوعة مياه .. وقد بدأ يمتنع نفسه بالتردد على المحال الأنيقة المعروفة التي لا يتردد عليها إلا الأغنياء خصوصا ساعة تناول الغداء .. وقد يتناول الغداء في فندق من الفنادق الكبيرة أو في مطعم مشهور .. أما طعام العشاء فقد كان يفضل دائما أن يتناوله في البيت فهو لا يستغنى أبدا عن طبق البضارة التي تعدها أمه .. وهو مع كل هذا الطموح في الارتقاء بمرتبة الحياة لم يجرفه الانحلال .. فلم يطرأ على باله أبدا أن يجرب الخمر .. بل إنه لا يريد أن يتردد على الملاهي ويكفيه ما يشاهده في التلفزيون الملون الذي اشتراه للعائلة ..

وقد وجد نفسه يوما يذهب لتناول الغداء في مطعم على الطراز الأمريكي يبيع اللحم المشوى والفراخ المشوية .. إنه يعتبره أحد المحال الراقية بالنسبة له ولو أنه لا يجمع إلا ربائن الطبقة الوسطى .. وكان مرتديا البدلة البلوجينز الأنيقة النظيفة .. وهو يحس بأناقته ووسامته .. وصادف أن حاول أحد الواقفين في الطابور الذي يشتري أفراد الغداء أن يتعدى الفتاة التي تسبقه في الطابور .. وقامت حنافة وتدخل نصالح الفتاة لينقذها من المعتدى عليها .. ونظر إلى الفتاة وأحس بمجرد النظرة أنها تشده .. أحس أن لها طعما يفتح شهيته .. إنها أول فتاة في حياته يحس نحوها بأى شيء .. وشكرته الفتاة على إنقاذه لها .. وبعد أن حمل كل منهما طعامه لم يجد مائدة يجلس إليها

إلا بجانبها .. وبدأ الحديث بينهما .. كانت تبدو وكأنها هي الأخرى فشدت إليه .. وقال لها من خلال الحديث :

— أنا اسمى محروس .. هل أستطيع أن أعرف اسمك ..

وقالت في دلال ليس متعمدا :

— اسمى كريمة ..

ولم يتوقف الحديث بينهما وكلاهما لا يبدو عليه أنه يعتمد الافتعال في حديثه .. كأنهما ليسا غرباء .. إلى أن سألته عن عمله .. وقال فورا وقد ارتفع صوته قليلا :

— أنا مهندس ميكانيكى .. وأنت ؟ ..

وقالت مع ضحكة خافتة :

— أنا طالبة في معهد التدريب المنزلى .. وإن كنت أعتبر نفسي

أستاذة ..

وعاد الحديث بينهما حتى تنبها إلى الوقت الطويل الذى مضى رغم أن كلاهما كان قد عاد واشترى طبق طعام آخر ربما للمجرد أن يظلا معا ..

وقال لها وهو يهم بالانصراف وفي لهجته تباه :

— هل تسمحين بأن أوصلك بسيارتى ؟ ..

وقالت وعيناها تحتضنان عينيه :

— لا .. شكرا .. إن البيت قريب ..

ولم يلح .. يكفي أن تعلم أنه يملك سيارة .. وقال لها :

— هل يمكن أن نلتقى ؟ ..

وقالت فورا :

— الأحد القادم .. مثل اليوم .. هنا ..

ولم يلح .. ليس له تجربة في الإلحاح على البنات وإغرائهن بما يريد .. ووقف يتتبعها بعينه وهى تتبعت عنه كأنه يستعرض قوامها ويتفرج على اهتزازها مع خطواتها .. إنها لاشك تأسره .. ولكن لماذا حددت اللقاء يوم الأحد ؟ .. لماذا اختارت هذا اليوم ؟ .. لا يهم .. وطال اللقاء التالى أكثر مما طال اللقاء الأول وقيلت فى النهاية أن تتركب معه فى سيارته ليوصلها إلى بيتها .. وقد تركته عند ناصية شارع من شوارع الزمالك حتى لا يصل بها إلى باب البيت .. لا تريد أن يراها أحد وهى تنزل من سيارة غريب .. لاشك أنها من عائلة كبيرة راقية غنية مادامت تقيم فى حى الزمالك .. حتى قالت له إن أباه يعمل مزارعا .. لا بد أنه مزارع راق يملك عشرات الأفدنة .. وأيضاً حددت له موعد اللقاء التالى فى يوم الأحد .. لماذا يوم الأحد ؟ .. إنه لا يدري .. وقبل الموعد استدعى بتليفون المقهى للعمل فى بيت أحد الأجناب بحى الزمالك .. إنه نفس الشارع الذى كان قد أنزلها على ناصيته .. وسعد إلى الشقة وهو مرتد الزى البلوجينز ومن خلفه الصبى يحمل حقيبته الأنيقة .. ودق جرس الباب .. وإذا به يفاجأ بأنها هى التى تفتح له .. كريمة .. ونظر كل منهما إلى الآخر فى دهشة .. إنها لا يمكن أن تكون من أهل البيت .. إنه بيت عائلة أجنبية .. ثم إنها تضع فوق ثوبها هذه « المريلة » البيضاء التى تعود أن يراها على المربيات أو الخادومات فى بيوت العائلات الكبيرة .. ولم يتكلم .. وقادته وهى صامتة إلى حمام البيت .. وقال لها دون أن ينظر إليها :

— إبنى أنقضى مقدما خمسة جنيهاً نظير الكشف ..

وقالت دون أن تتحرك من جانبه :

— اكشف ..

ولم يرد عليها .. وبدأ يحرك يديه بين الحفريات والمواسير ثم توقف فجأة وانفتحت إليها قائلاً :

— أنا لم أكذب عليك .. فإن عملى هو عمل مهندس ميكانيكى وإن

كنتم تسمونه سباك ..

وقالت وهى تستسم فى صوت مترنح كأنه خجول :

— لا أنا كذبت عليك .. فإن عملى هو التدبير المنزلى .. وإن

كانوا يسمونه كمريرة ..

وعاد إلى العمل وهو يتكلم قائلاً :

— إن الناس تستهين بنا رغم أنى أكسب على الأقل مائة وخمسين

جنيهاً فى الشهر .. وأخى الكبير موظف يتقاضى أربعين جنيهاً لا غير ..

وقطع الحديث حتى يتفرغ لعمله .. وهى تتركه إلى داخل البيت

وتعود إليه كأنها لا تريد أن تحرم عينها منه .. إلى أن أتم عمله وجاءت

سبت البيت وشكرته كثيراً كأنها بهرت بما قام به ودفعت له كل ما حددته

من أتعاب ..

وقال لكريمة وهى تصحبه إلى باب الخروج :

— لماذا يوم الأحد ؟ ..

وقالت ضاحكة :

— إنه يوم إجازتى ..

وقال وهو يضمها بعينه :

— لن نكون فى حاجة إلى إجازة حتى أراك ..

وبعد شهور تزوجا واستطاع أن يجد شقة فى حى إمبابة قريبا من بيت العائلة حتى لا يتعد عن أمه وإن كان قد اضطر أن يدفع خمسمائة جنيه كخزل أو كرشوة .. وإن كان قد دفعها بالتقسيط .. كل شهر مائة جنيه ..

وأصبحت كريمة حاملا .. وقال من خلال فرحته :

— سيكون ولدا بإذن الله ..

وقالت وهى تميل عليه :

— ماذا تريد أن يكون ابنك ..

وقال متباهيا :

— مهندسا ميكانيكيا كأبيه ..

وقالت وهى تبعد رأسها عنه :

— حرام عليك .. إنى أريده أن يكون وزيرا .. أو طبيبا .. أو

سفيرا .. أو محاميا .. إنه لن ينقصه شيء ..

ولوى شفتيه سخطا وأدار لها ظهره غاضبا .. حتى زوجته تعتبره

مجرد سمكرى ..

كلهم يدخلون .. وكلهم يخرجون ..

كان بشير جالسا يعد لنفسه كوبا من الشاى داخل المطبخ الواسع .. إن المطبخ هو المكان الوحيد داخل البيت الذى يستطيع أن يجلس فيه حرا .. وكان يبدو سرحان ساخطا وهو يعد الشاى حتى إنه أسقط الإبريق الذى يغلى فيه الماء من يده فوق البوتاجاز .. ودخلت عليه أم عزيزة المسئولة فى البيت عن خدمة الست الكبيرة .. وقالت فى لهجة أمرة :

— البية يريد القهوة ..

وقال فى لهجة ساخطة دون أن ينظر إليها :

— قولى له أن ينتظر حتى أنتهى من شرب الشاى ..

وفغرت أم عزيزة فاها دهشة وصاحت :

— عجيبة .. هل جنت يارجل ؟ .. سيدك البية يريد القهوة وأنت

تتجراً وتطلب منه أن ينتظر إلى أن تشرب أنت الشاى ! ..

والفتت إليها بشير وقال ساخطا كأنه ينهرها :

— من حق البية أن يطلب منى أن أعديل له مزاجه بالقهوة ..

ولأستطيع أن أعديل مزاجه إلا إذا عدلت مزاجى أنا أولا بشرب

الشاى .. ثم لا تقولى عنه إنه سيدى .. انتهى هذا اللقب من قاموس

الخدمة .. ولم يعد لى سيد إلا الله ..

وقالت أم عزيزة وهي تنظر إليه متحدية :

— وكيف تريدني أن أتحدث معك عن البية ؟ .. هل أقول لك إن صديقك عصمت بيه يريد فنجانا من القهوة ؟ .. إنه سيدك وسيد سيدك ..

وصاح بشير في وجهها :

— إنك امرأة عجوز ولا تدرين أن عصر الأسياذ قد انتهى .. تحدثني عنه على أنه سعادة البية .. أو صاحب البيت .. أو السيد عصمت .. ولكن لا تقولي عنه إنه سيدى أو سيدك .. كل واحد فينا أصبح سيد نفسه .. بل إنه لا يستحق حتى أن تسميه سعادة البك .. لقد ألغيت الألقاب .. هو السيد عصمت وأنا السيد بشير ..

وصرخت أم عزيزة :

— لا تكن مجنوناً .. دع كل ما في يدك وأعد القهوة لسعادة البية .. سيدك ..

وأدار لها ظهره وقال لها بلامبالاة :

— قولى له إني سأقدم له القهوة بعد أن أنتهى من شرب الشاي .. وقالت أم عزيزة وهي تخرج من المطبخ كأنها تهرب منه :

— والله العظيم مجنون ..

ودخلت إلى رجل البيت عصمت بيه وهو جالس في غرفة المكتب المخصصة له يقلب في أوراق انتظاراً لفنجان القهوة .. وقالت في عصبية :

— لا تكلفوني مرة ثانية بأن أطلب شيئاً من بشير .. إنه مجنون .. ولن يكون لى معه بعد اليوم ولا كلمة واحدة ..

وقال عصمت وهو يتنسم من خلال طبيعته الهادئة :

— ماذا حدث ؟

وصاحت أم عزيزة كأنها تفجر قبلة :

— إنه لا يريد أن يعد لسعادتك القهوة إلا بعد أن ينتهى من شرب الشاي .. تصور سعادتك !

وقال عصمت من خلال ابتسامته :

— ولا يهملك يأمى .. دعيه كما يشاء ..

واختفت أم عزيزة من أمامه وهو جالس إلى مكتبه ساهما متعجبا ولا ينظر في الأوراق التى أمامه ، فقد تعود ألا يبدأ العمل إلا بعد أن يشرب فنجان القهوة حتى أصبح من المستحيل عليه أن يبدأ قبل القهوة .. ومرت به فترة أحس أنها طويلة .. أكثر من ربع ساعة .. حتى دخل إليه بشير يحمل فنجان القهوة وهو يرتدى قفطان العمل الرسمى كسفر جى مثالى .. وقد قدم القهوة فى حركات جامدة دون أن يتنسم هذه الابتسامة التى يتعمدها السفر جى المثالى ليفتح شهية من يخدمه لما يقدمه إليه ..

وهم بشير أن يتعد خارجاً من الغرفة فاستوقفه عصمت قائلاً :

— انتظر يا بشير .. ماذا بك ؟ .. إنك متعبر منذ أيام بل منذ أسابيع .. حتى إن الست بدأت تشكو منك .. لقد أصبحت الآن تقدم الغداء وتتغيب عن تقديم العشاء .. دون إذن .. وأصبحت تبسو فى كل تصرفاتك كأن هناك ما يتعبك .. ونحن لم نسألك فى انتظار أن تبدأ وتقول لنا ما يتعبك ..

وقال بشير فى لهجة جافة وهو يتنهد ساخطاً :

— الدنيا كلها أصبحت متعبة يا سعادة البية ..

وقال السيد عصمت وهو لا يزال محتفظا بابتسامته :

— اسمع يا بشير .. لقد مضى عليك الآن وأنت معنا فى البيت أكثر من ثماني سنوات .. وأنت تعلم أنى لم أعد أعتبرك غريبا تعمل فى البيت .. بل أعتبرك واحدا من أفراد العائلة .. كأنك ابن من أبنائى .. والأبناء يصارحون دائما آباءهم بما يتبعهم ..

وقال بشير وهو يحنى رأسه حتى لا يواجه بعينه عيني عصمت :

— إن أبناء سيادتكم يعمل واحد منهم الآن فى لندن والثانى فى أمريكا .. وفقهما الله .. وزادهم من الريح ..

وأحس عصمت بنفسه فى هدوء وقال :

— وهل تريد أنت الآخر أن تعمل فى الخارج ؟ ..

وقال بشير وهو يرفع رأسه وينظر فى عيني عصمت كأنه يواجه بالحقيقة :

— كل الناس يا سعادة البية تطفش الآن من مصر وتعمل بالخارج .. السفرجية والدكاترة والمهندسون وأبناء سيادتكم .. كل واحد يبحث عن الرزق الحلال ..

وسكت عصمت وابتلع ابتسامته وانكمش وجهه كأنه أصيب بصدمة .. إن بشير يفكر فعلا فى ترك خدمته ولعله وجد عملا آخر فى الكويت أو السعودية أو فى أوربا .. أو لعله وجد عملا فى إحدى السفارات الأجنبية .. إن السفرجية الذين يعملون فى السفارات يعتبرون أنهم كأنهم يعملون فى الخارج .. ثم قال عصمت فى صوت هادئ :

— أنت حر دائما يا بشير فى البحث عن رزقك سواء فى مصر أو خارج مصر .. ولكنى أحب أن أقول لك إن ماتجده هنا لن تجده فى الخارج أبدا .. إن الذى يعمل فى بيت من بيوت الأجانب لا يعتبر من أهله أبدا .. فى حين أنك هنا تعتبر واحدا من أفراد العائلة .. والحجرة المخصصة لك فوق السطوح تعتبرها غرفة من غرف البيت .. ولم يحدث أن طلبت شيئا وحرمت منه .. بل أعتقد أن زوجتى تحتمل متاعبك كما تحتمل متاعب أبنائها ويخفف عنها أنك لاشك تتصف بالشطارة والأمانة .. والمجتمع كله الذى تعيش فيه فى مصر يشعر بأنه مجتمع عائلتك .. وأقاربك .. وأصدقائك .. كل ذلك لن تجده فى الخارج .. إن ابني الذى فى أمريكا يفكر أن يعود بزوجته وأولاده إلى مصر لأنهم كلهم يعيشون هناك كغرباء رغم أنه يحقق أرباحا قد لا يستطيع أن يحققها فى مصر .. وابني الثانى يخفف من غربته فى لندن أنه فى كل عام يقضى إجازة طويلة معنا هنا فى مصر كما تعلم .. ثم إن هناك شيئا لا يقدره المندفعون للعمل فى الخارج .. وهو أنه إذا كان يكسب خمسين جنيه فى مصر مثلا فهو تساوى مائة جنيه يكسبها فى الخارج .. فتكاليف الحياة هناك مع غربته تساوى أضعاف أضعاف تكاليف الحياة فى بلده .. فى مصر ..

وقاطعه بشير قائلا :

— ليست مائة جنيه يا سعادة البية .. إن ابن عمى إدريس ترك مصر وهو يعمل بخمسة عشر جنيه فى الشهر وبدأ يعمل فى سفارة عربية فى باريس .. إنه يقول إن مرتبه هناك خمسمائة جنيه .. ونحن نعتقد أنه يكسب أكثر .. ربما ألف .. وقد اشترى خمسة أفدنة فى قريتنا بجوار

أسوان .. وتزوج ابنة عمى رغم أنه لا يراها إلا كل عامين أو ثلاثة ..
وسمعا أنه متزوج من امرأة أخرى فرنسية تقيم معه فى باريس .. الدنيا
واسعة بإسعاد البية .. والرزق مفتوح وكثير ..

ونظر عصمت إلى بشير فى حسرة كأنه يودعه الوداع الأخير :

— أنا لألح عليك يا بشير .. ولكنى أنصحك .. وأنت حر .. ولن
أغضب منك إذا وجدت أى عمل آخر .. بل إنى أريد أن أحس بك كإبن
من أبنائى حتى لو تركت البيت .. وأرجو إذا عملت فى الخارج أن تراك
كلما أمكن حتى نطمئن عليك ..

وقال بشير وهو ينسحب من أمامه :

— أبقاك الله لنا يا سعادة البية .. عن إذن سيادتكم ..

وانحنى عصمت فوق مكتبته مستسلما لخواطره وبين شفثيه ابتسامة
ساخرة كأنه يسخر من الحياة كلها .. لقد تعود أن يرتبط فعلا بالخدم
الذين يعملون فى بيته ارتباطا عاطفيا خصوصا الذين تطول مدة خدمتهم
له .. إنها عاطفة تنطلق من التعود .. وربما كان أساسها أنه نشأ وتربى
فى عائلة لم تكن تعتبر من يعمل فى خدمتها خدما .. بل كانوا فعلا
يعتبرون من أبناء البيت ومن أفراد العائلة .. فقد كانت عائلته مرتبطة
ارتباطا كاملا بالقرية وأهل القرية .. وكانت عائلة متواضعة حتى بعد أن
أصبح أبوه موظفا كبيرا وصل إلى منصب وكيل وزارة .. وكان والده
أول فرد من العائلة التى تقيم فى القرية يتم تعليمه فى القاهرة ويستقر
فيها .. ولم يكن فى البيت خدم .. بل كانوا يستدعون من القرية من
يقوم بمساعدة الأم فى أعمال البيت .. وعندما يولد لهم طفل يستدعون
له من القرية صبية تقوم على خدمته وتربيته .. وتبقى الصبية فى البيت

لا كخادمة ولكن كفرد من العائلة والطفل يناديها بلقب « أمى .. أمى ..
سوية .. وأمى سنية .. وحتى تكبر الصبية ويكبر معها الطفل فتتولى
العائلة بنفسها اختيار زوج لها من أبناء القرية .. ولا تعيدها إلى القرية
إلا وهى محلاة بمصوغات ذهبية ، وتدفع لها كل نفقات زواجها
« تجهيزها .. وتظل تعرف فى القرية بأنها ابنة الطنطاوية وإذا حدث لها
أى شئ جاءت إلى القاهرة لتشكو إلى العائلة .. وهكذا كانت أم
عزيرة .. إنه ليس لها ابنة اسمها عزيرة .. ولكنها جاءت من القرية وهى
حسبية اتقدم على تربية عصمت .. وقد نشأ يناديها قائلا .. أمى عزيزة ..
إلى أن كبر عصمت وأعادتها العائلة .. إلى القرية لتزوجها ..

وظلت مرتبطة بالعائلة إلى أن مات زوجها فعادت بعد سنوات طويلة
إلى القاهرة فعادت لتعيش فى خدمة العائلة .. وفى خدمة ابنها عصمت
الذى كان قد تزوج وأصبح له بيت وعائلة وحده .. وظل عصمت
يناديها حتى اليوم .. أمى عزيزة .. وانتقلت المناداة إلى ألسنة الناس
محرفة باسم .. أم عزيرة ..

وهو منذ تزوج وهو فى حاجة إلى من يعين زوجته فى خدمة البيت
والأولاد حتى بعد أن استقرت معه أم عزيزة .. وقد عاش عمرا طويلا
شاهد خلاله تطورا كبيرا فى طبيعة المدين يخدمون فى البيوت حتى
وصلوا إلى أن أصبحوا كالتحف الثمينة النادرة من الصعب أن تجدها ..
وأصبح الشاب الذى يبدأ استقلاله بحياته أسهل عليه أن يجد فتاة
يتزوجها وتقوم بخدمة بيته من أن يجد امرأة تكفى بأن تكون خادمة أو
خدما يعاونه على خدمة البيت .. لذلك فكثير من الشبان أصبحوا
يتزوجون لمجرد البحث عن يتحمل معهم مسئولية خدمة البيت ..

وسعت الابتسامة الساعمة بين شفتي عصمت وهو يعيش حواطره .. إن هذا التطور في لبعة خدم البيوت لم يبدأ في السنوات الأخيرة بعد ما يسمونه بالانفتاح بعد إطلاق حرية السفر إلى الخارج كما يتصور البعض .. ولكن هذا التطور بدأ من قبل ذلك ومنذ قامت الثورة عام ٥٣ .. ومنذ فتحت الثورة أبواب الحكومة لتعيين ملايين الموظفين دون دقة أو اهتمام بشروط التعيين .. ودون اهتمام للبحث عن عمل لكل موظف .. يكفي أن يحمل لقب موظف ويقبض مرتباً أول كل شهر دون أن يعمل شيئاً .. لقد قضت الثورة على مجتمع الأغنياء بلا عمل وأقامت مجتمع الموظفين بلا عمل .. ولم يكن المتعلمون فقط هم الذين يقبلون على التوظف في الحكومة بل أيضاً الطبقة التي لم تعلم أو تكاد كما يقولون تفك الخط تسعى إلى وظائف الحكومة وتجد الأبواب مفتوحة لها .. إنها نعملاً تكون موظفاً في الحكومة .. تأخذ مرتباً كل شهر .. ومعاش .. وألبن .. ولا تعمل للحكومة شيئاً إنما تبحث لنفسك عن عمل آخر إلى حين وأنت موظف حكومة .. وعصمت يذكر أنه بعد أن تزوج وذلك قبل الثورة كان قد أصبح بعيداً عن القرية ولم يفكر في استئناء أحد من أهلها لمساعدة زوجته في أعمال البيت .. ولذلك طلب أبواب العمارة أن يبحث له عن صبي حتى يكبر داخل العائلة ويصعب من أفرادها .. وقد جاءه البواب سليمان .. ولم يكن صبياً صلباً ولكنه كان في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره .. ولكن زوجته ارتاحت إليه لنشاطه وأمانته .. وكبر في البيت وزوده تعلمه كل شيء حتى أصبح طباًخاً يقوم بإعداد الطعام لهم بجانب مسؤوليته عن كل أعمال البيت .. ومرتبه

ارتفع مع ارتفاع مسؤولياته .. لقد بدأ عمله في البيت بمرتب ثلاثة جنيهات وارتفع خلال عشر سنوات إلى خمسة عشر جنيهاً .. وقامت الثورة .. وبدأ المجتمع يتغير .. إن سليمان يتغير تغيراً يبدو في شخصيته وفي المواضيع التي يسأل فيها وفي اللهجة التي يسأل بها .. ولم يكن هذا غريباً فعصمت نفسه يتغير .. وبعد سنوات منذ قامت الثورة أمتت الشركة الكبيرة التي كان يعمل فيها مديراً للحسابات وأصبح رئيساً لمجلس إدارة هذه الشركة .. وفوجئ بعد فترة قصيرة من تعيينه رئيساً لمجلس الإدارة وهو حريص على أن يكون مثالياً في تحمل مسؤولية هذا المصنع وإن كان قد قمص شخصية جديدة وأصبح حريصاً على أن يبدو في مظهر جديد .. فوجئ بسليمان السفرجي يطلب منه في بساطة أن يعين موظفاً في الشركة التي أمتت .. وسأله عصمت في دهشة :

— لماذا ؟ ليس هناك عمل يصلح لك في هذه الشركة .. والمربى الذى ستحصل عليه لا يزيد عن مرتبك الآن .. وقال سليمان فى إصرار :

— إن كل من أعرفهم أصبحوا موظفين .. وأنا لن أترك العمل عندك فى البيت .. كلهم توظفوا بفضل وساطة من يعملون عنده دون أن يتركوهم ..

ورفض عصمت أن يعينه فى الشركة .. إنه لا يريد أن يعرف عنه أنه عين من يعمل فى بيته .. وكأنه يفرض على الشركة أن تدفع مرتب من يقوم على خدمته الخاصة .. ولكن سليمان لم يكف عن الإلحاح .. وكان يلح لا عليه وحده بل على كل أصدقائه ومعارفه سعياً لإقناعه

بتعيينه .. إلى أن لانت زوجته لهذا الإلحاح .. وسعت هي نفسها لدى
أصدقاء العائلة حتى عين سليمان موظفاً في الحكومة .. وبمجرد أن
أصبح موظفاً اختفى .. لم يحاول أن يتردد عليه ولو لشكر زوجته على
ماقدمته له .. بل إن عصمت رآه مرة يسير في الشارع القريب وهو
متأكد أن سليمان رآه أيضاً ولكنه لم يتقدم إليه ولو لتحيته .. لقد رآه
وكأنه يهرب منه .. وبعد مدة سمع من يواب العمارة أن سليمان افتتح
محلا للخردوات في إحدى حواري حي بولاق الذي أصبح يقيم فيه
وذلك مع احتفاظه بوظيفته .. موظف الحكومة .. ومن يومها بدأ
عصمت يقدر مصير الإدارات الحكومية والشركات المؤممة .. لا أحد
يعمل لها .. ولكنه إلى الآن وبعد أن مرت كل هذه السنوات لم يستطع
أن يفعل شيئا رغم أنه لا يزال رجلا مهما في الدولة ..

وبعد أن خرج سليمان من خدمة البيت بدأ البيت يعاني من أشكال
جديدة تعمل فيه .. وقد جاءوا له يوما بالسفرجي عوض .. وهو رجل
ليس صغيرا ومعروف أنه سبق أن عمل مع كثير من البيوت الراقية .. ورغم
أن عصمت رفع مرتبه إلى عشرين جنيتها في الشهر إلا أنه لم يستمر معهم
أكثر من أيام .. وخرج بلا سبب .. وتعجب عصمت وزوجته .. إلى
أن قالت إحدى الجارات :

— احمدا الله على خروجه .. إن يده طويلة ..

واكتشف عصمت أن سبب خروج عوض هو أن سيدة البيت
معروف عنها أنها سيدة حريضة منتهى الحرص .. ليست بخيلة ولكنها
لا تلبس أبداً أن تكون مغفلة أو يسرقها أحد .. إنها قد تدفع جنيتها كهيبة
ولكنها لا تقبل أن يغالطها أى واحد في ملهم واحد .. وكانت حريضة

أيضا على أن تحتفظ بمفاتيح كل ما في البيت في يدها .. ليس في البيت
كله دولا ب أو درج يمكن أن يفتح غريب دون إذنها .. وربما حاول
عوض أن يفتح درجا أو دولا ب ليمد فيه يده الطويلة وعندما عجز ثم
اكتشف حرص ربة البيت خرج من الخدمة ..

ورغم ذلك لم يكن كل حرص زوجته فوق المستحيل على الأيدي
الطويلة .. لقد قبلوا مرة أن تعمل في البيت امرأة شابة قالت إنها
مطلقة .. وذلك بعد أن عجزوا عن العثور على رجل لخدمتهم ..
وعصمت وزوجته كانا يفضلان دائما خدمة الرجال .. وإنهم رغم
متاعهم أخف في تحمل مسئولية المرأة العاملة .. وكانت سنية يبدو
عليها أنها امرأة جادة لا تحاول أن تسلط أنوثتها على حولها ولا يبدو
عليها أنها تبحث عن رجل ليتزوجها .. وربما كان الأكثر أمانا أنها لم
تكن امرأة جميلة مغرية .. وقد استطاعت فعلا بشطارتها ونشاطها
وجديتها أن تكتسب ثقة ست البيت .. واستطاعت أن تكسب حب أم
عزيزة التي كانت قد أصبحت مستقرة في البيت .. حتى إن أم عزيزة
بدأت تعتبرها وتعاملها على أنها ابنتها التي تفخر بأخلاقها .. ولكن لم
ينقض على وجودها سوى شهرين حتى وقفت تستأذن في ترك الخدمة
بحجة أنها عرفت أن ابنها مريض ويجب أن تنفرغ لرعايته .. ودهشت
ست البيت .. حتى لو كان ابنها مريضا فإنها تستطيع أن تراعيه دون ترك
الخدمة .. بل إنها ليست واثقة أن لها ابنا .. لقد مضى الشهران دون أن
تذكر عن هذا الابن شيئا أو تستأذن ساعة لمشاهدته .. وليس هناك أى
سبب آخر يدفعها إلى ترك الخدمة .. واضطرت أن توافقها والشك
يعصف بها .. وانتظرت حتى جمعت حاجتها داخل حقيبتها قبل أن

تصفى لها حسابها .. وإذا بها تلاحظ أن الحقيبة منفوخة أكثر من اللازم
و كأنها تحمل أكثر بكثير من حاجات سنية .. وقالت لها ست البيت وهي
تحاول أن تكون هادئة ..

— هل تسمحين بفتح حقيبتك .. لا مؤاخذه .. ولكن هذه هي
عادتي قبل أن يغادر أحد من العاملين البيت ..

وصاحت سنية وهي تقف أمام حقيبتها كأنها تحميها :

— حرام عليك ياستى .. لا يصح .. أنا لست من هؤلاء ولا أسمع
بأن أفتش كأني متهمة بالسرقة ..

وأزاحتها ست البيت من أمامها وانحنت بنفسها تفتح الحقيبة ..
وسنية بدأت تبكي وتحاول وقف أيدي سيدتها عن التفتيش .. ولكن
ست البيت أقوى .. ورفعت قطعاً من الملابس كلها من ملابس سنية ثم
بدأت تكتشف قطعاً من ملابس زوجها وأولادها ..

وصرخت ست البيت صائحة في أم عريضة :

— أقفلى أبواب البيت كله وأمسكى هذه الحرامية إلى أن استدعى

البوليس ..

ثم رفعت سماعة التليفون واتصلت بزوجها عصمت في مكتبه وطلبت
منه أن يرسل أحد مسكرتيه ليقوم بإبلاغ البوليس والقبض على سنية ..
وسنية تصرخ باكية وهي تلطم خديها وتشد شعرها ثم تتحنى على
الأر من تقبل أقدام سيدتها :

— سامحيني ياستى .. احنا غلابة ياستى والشيطان أشطر منا ..

سأفك حبيك ياستى وافعلنى بى ماتريدين .. ولكن لا تتركينى
البوليس ..

وانتهى اليوم بأن عفت ست البيت عن سنية وتركتها تخرج دون
تقديمها للبوليس وبعد أن استردت منها كل ما سرقته .. إنهن فعلاً
غلابة .. ولكنها ظلت أياماً وهي لا تفكر ولا تتحدث إلا عن هذه
السرقة .. كيف استطاعت سنية أن تسرقها .. من الغريب أنها لم تسرق
إلا ملابس الشتاء مع أننا فى الصيف .. وهي قد تعودت أن تجمع
الملابس التى لا تستعمل وتحفظ بها فى دولاى السندرة القريبة من
السقف وتغلقها بالمفتاح الذى تحتفظ به فى سلسلة مفاتيحها التى
لا تفارقها .. ولكنها أحياناً تترك سلسلة المفاتيح بجانب فراشها عندما
تدخل الحمام مثلاً .. وربما انتهزت سنية فرصة استطاعت فيها أن تنفرد
بسلسلة المفاتيح ثم تفتح دولاى السندرة وتعود وتتركه مغلقاً دون أن
يكون مغلقاً بالمفتاح .. وبعد ذلك أصبحت تنتهز الفرصة أو تقوم فى
الليل والبيت كله نائم وتصعد إلى السندرة وتأخذ ماتريد .. وهي
مطمئنة إلى أن سيدتها لن تشك وستظل دائماً مطمئنة إلى أن باب دولاى
السندرة مغلق بالمفتاح .. وإذا كان هذا هو ما حدث فمباداً تفعل ست
البيت .. هل تمر كل يوم وكل ساعة على كل الدوايب والأبواب
لتطمئن أنها مغلقة بالمفتاح ولم يتركها غريب مغلقة بلا مفتاح .. إنها
لا تستطيع أن تعيش كل هذا الشك وكأنها أصبحت عسكري البوليس
الذى يمر بالليل على الحوايت ليتأكد أنها مغلقة بالأقفال .. وقضت
عمرها طويلاً وهي تفكر كيف تحمى بيتها بوسائل وتنظيم جديد ..
وارتفعت ابتسامة عصمت الساخرة إلى شفثية وهو يستعرض
ذكرياته مع الخدم ..

لقد عملت فى البيت امرأة أخرى تختلف عن سنية .. لقد كانت

شابة أيضا وتدعى أيضا أنها مطلقة .. ولكنها كانت جميلة هذا الجمال
البلدى المثير .. وكانت تعتمد أن تنبأى بهذا الجمال .. إن ثوبها دائما
محرق عليها ويبرز تفاصيل هزة رديفها من مؤخرتها وهى تسير كأن كل
خطوة غنجة تتفتح بها .. وذراعها دائما مكشوفتان .. وعنقها يترنح
من فوق كتفها كأنه عنق بطة .. وحاجباها دائما يتحركان .. وشعرها
منكوش فوق رأسها .. وعصمت منذ رآها وهو يحس كأنه يقاومها
حتى إنه كان يعتمد ألا يكلفها بشئ ويعود نفسه ألا يتبعها بنظراته ..
وولده هشام ووليد استقبلاها بدھشة .. وقالا لأمه ضاحكين :
— ماذا جرى يا ماما ؟ .. هل اتفقت مع أرتست للعمل عندنا ؟ .. إنها
نجمة سينمائية ..

ولاشك أن الأم لم تكن مرتاحة إلى هذه الخادمة .. واسمها
هدى .. لعله لم يكن الاسم الذى ولدت به ولكنه الاسم الذى اختارته
تجملا .. ولكن الأم كانت تتحملها لأنها أثبتت منذ اليوم الأول
شطارتها فى خدمة البيت وقدرتها على تغطية كل احتياجاته .. ولكنها
كانت لا تكاد تنتهى من عملها حتى تقفز فى العمارة كلها .. أحيانا
تكون عند البواب .. وأحيانا تكون فى زيارة خدم وخادومات هذه الشقة
أو تلك .. ولها دائما عذر فى تغييرها هذه اللحظات عن البيت .. ولكن
حكايته بدأت تنتشر فى العمارة كلها .. والأم ساكنة محتملة مادامت
هذه الحكايات لا تمس بيتها .. بل إن ابنها هشام .. وكان قد وصل
فتوة الشباب .. دخل مرة على أمه محتدا صائحا :

— هذه المرأة يجب أن تخرج من البيت .. لم أعد أحتملها .. إنها
تحاول أن ترفع الكلفة بينى وبينها .. بل إنها تحرصنى على نفسها ..

وفى الليلة الماضية دخلت حجرتى وأنا أنام بحجة أنها نسيت المقشة
تحت السرير .. وبقيت تتمحك حتى طردتها من الغرفة بعد أن كدت
أنهال عليها ضربا ..

وضحك الأب وهو يسمع شكوى ابنه .. إن هدى على استعداد لأن
تحرصه هو الآخر على نفسها لولا تصميمه على الاستمرار فى تجاهل
وجودها ..

وقالت الأم وكأنها تستجدى ابنها هشام :

— يا ابنى كلهن من هذا النوع .. المهم تصرفاتك أنت معها
ومعاملتك لها .. وتستطيع أن تتركها تياس من حركانها وتصبح
مؤدبة .. ولكن الواقع أنها بنت شاطرة .. إنها تريحنى فى البيت ..

ولم ينقض على هدى فى البيت أربعة شهور حتى جاءت تعتذر عن
اضطرارها لترك الخدمة .. وبنفس الحجة التى سبق أن اعتمدت عليها
سنية .. إن ابنها مريض .. واضطرت الست أن توافقها على ترك
البيت .. أوريا كانت قد ضاقت بها .. وتركها هدى ببساطة تفتش
حقيقتها قبل أن تخرج .. إنها لا تسرق .. ولكنها قالت كأنها تطالب
بحق :

— سأخذ الراديو يا سيدتى ..

وصاحت ست البيت :

— بأى حق تأخذين الراديو ؟ ..

وقالت هدى بلا اهتمام وهى تتفخخ :

— ألم تتركه لى فى المطبخ لأتسلى بسماعه ؟

وصاحت ست البيت :

— أنا لم أتركه لك .. ولكنى أتركه فى المطبخ ليتسلى به كل من يعمل عندى ..

ولم تصمم هدى على أخذ الراديو .. وخرجت .. ولكن الغريب أنهم اكتشفوا بعد يومين أن هدى أصبحت تعمل فى شقة أخرى من شقق العمارة .. وقال عصمت لنفسه إنها لاشك استطاعت أن تغرى جاره أو أحد أبنائه .. إنهن يعتمدن على دخل الإغراء أكثر مما يعتمدن على دخل الخدمة .. وقد تنقلت هدى فى خلال عامين بين أكثر من ثلاث شقق فى العمارة نفسها للعمل فيها .. ثم خرجت من العمارة كلها لتعمل فى عمارة بعيدة .. والغريب أيضا أنها بعد كل هذه السنوات جاءت إلى بيت عصمت تطلب العودة إلى العمل فيه .. ولكنهم رفضوها .. رغم إشفاقهم عليها .. فقد ظهر عليها المرطة والبهذلة وتهدل جمالها الذى كانت تنباهى به ..

وذكريات عصمت تجمع بين عشرات عملوا فى خدمة بيته .. وضحك عندما تذكر حسن .. إنه صبى فى الثانية عشرة من عمره جاء لهم به البواب وقال لهم إن أباه يعتبر من الشخصيات المعروفة بين أهل النوبة وأنه يعمل مشرفا على خدمة السفارة البريطانية .. ورحبت العائلة بحسن لأنهم يستبشرون خيرا بأن يبدأ العمل عندهم صبية صغار حتى يصبحوا بعد أن يكبروا كأنهم من أفراد العائلة .. وتقديرا لأهمية والد حسن قدروا مرتبه بخمسة عشر جنيها فى الشهر .. إنه مرتب كبير بالنسبة لسنه .. وقد بدأ حسن مدللا يتحرك فى البيت كأنه من أفراد العائلة فعلا رغم أنه لم يمض عليه فى العمل سوى أربعة أيام .. إلى أن فوجئت به ست البيت فى اليوم الخامس بأن دخل الحمام .. حمام

العائلة .. وأخذ يستحم فيه مستعملا كل الأدوات التى يجدها حوله .. وصرخت ست البيت وأخرجته من الحمام وهى تصيح فيه :

— إن لك حماما خاصا بحجرتك فوق السطح .. وقال وهو يعافرها :

— إنه ليس حماما خاصا بى .. إنه لكل من يقيم فوق السطح .. وصاحت :

— ولو .. إنه الذى تستحم فيه .. وقال كأنه يهم باليكاء :

— إنى أحب أن أستحم هنا فى الحمام .. وصرخت فى وجهه :

— لا يمكن .. أتفهم .. لا يمكن .. وإياك أن أراك ثانية تستحم هنا ..

وجرى من أمامها وخرج من البيت ولم يعد ..

ولم تكن ثورة ست البيت تعبر عن نوع من التعالى والتفريق بين أصحاب البيت ومن يعملون عندهم .. ولم تكن قد قرفت من حسن وهى تراه تحت الدش الخاص بهم كأنه يلونه .. ولكنها تؤمن بأن دورات المياه فى البيت غير دورات المياه العامة التى تقام فى الشوارع .. إنها تحتاج لنوع من الألفة والتعود بين الذين يدخلونها ويستعملونها .. ولكل منهم فيها أدوات خاصة قد تكون بينها أسرار يستعملها فى معاملة جسده لا يعرفها الغرباء .. وحتى أم عزيزة التى تعتبر فعلا من أفراد العائلة وعصمت يناديهما .. أمى عزيزة .. لا تستطيع أن تدخل حمام العائلة لتستحم فيه أو تستعمل باقى دورات المياه .. إنها

لا تدخل هذا الحمام إلا لتنظيفه وتكس وتمسح فيه .. وقد تركت دور المياه الأخرى فى البيت الضيقة المخصصة للضيوف لتستعملها أم عزيزة ..

وقد تأثر عصمت بخيبة أمله فى الصبى حسن .. لقد كان وسيما مرحا ودمه خفيف وكان يتمنى فعلا أن يعيش معه كأحد أبنائه .. وهو يذكر أيضا بين من دخل يخدم فى البيت .. محروس .. لقد كان رجلا مهيبا جاء يخدم مطبقا منتهى الرسميات .. حتى إنه سأل مثلا فى أول يوم عن موعد تقديم طعام الغداء .. وقيل له إنه يقدم فى الساعة الثانية والنصف .. ولكن عصمت تأخر بعد يومين فى العودة إلى البيت .. شغلته أعماله .. وتقدم محروس إلى سيدة البيت يقول فى لهجة مهذبة رسمية :

— موعد تقديم الغداء هو الثانية والنصف .. والساعة الآن الثالثة ولم يصل السيد بعد .. وأنا آسف .. مضطر أن أنهى عملى وأخرج .. عن إذن سيادتكم ..

وأنهى عمله وخرج وسيدة البيت صامنة مذهولة .. ولكنهم تحملوا .. يجب فعلا أن يضعوا للبيت نظاما صارما محترما يتقيد الخدم به ولا يتحملون مسئولية الخروج عنه .. إنهم يريدون أن يرتفعوا بالبيت إلى المستوى الراقى .. مستوى اللوردات وأولاد الذوات .. وبعد أربعة أيام نادى عصمت على محروس ليتفق معه على المرتب كما تقضى الأصول .. وكان قد قرر أن يدفع له أكبر مرتب دفعه حتى اليوم .. وقال له :

— سأخصص لك أربعين جنيها فى الشهر .. وذلك غير المكافآت

التي تحصل عليها فى كل مناسبة أو كلما أقمنا دعوة .. وابتنس محروس ابتسامة مهذبة وقال :

— آسف يا أفندم .. إنك تعلم أنى كنت أعمل فى بيروت .. فى بيت ابن عم رئيس الجمهورية .. وكان مرتبى يصل إلى مائى مائتين وخمسين جنيها مصريا .. ثم جئت إلى مصر وعملت فى السفارة البولندية وكان مرتبى يساوى مائة وخمسين جنيها .. وأنا أقدر طبعا طبيعة وإمكانية كل مكان أعمل فيه .. ولا أستطيع أن أعمل عند سيادتكم بأقل من مائة جنيه فى الشهر .. وأنا واثق أن وجودى فى رحابكم يعوضنى عن كل الفارق فى المرتب ..

ونظر إليه عصمت طويلا .. إن كل مايقوله محروس حقيقى .. ولكنه لم يحسب حسابه .. وقال فى لهجة حاسمة :

— آسف يا محروس .. لا أستطيع ..

وقال محروس محتفظا بابتسامة :

— يكفينى شرف التعرف إليكم .. السلام عليكم ..

وخرج من البيت ..

ودهش عصمت ثم بدأ يلوم نفسه .. قد يكون هو الذى أخطأ عندما ارتفع بنفسه إلى مستوى ابن عم رئيس جمهورية لبنان وإلى مستوى السفارات الأجنبية ويحاول أن يكون له نفس مستوى خدمة البيت .. أى أن يخدمه محروس .. إن خدمة البيوت تختلف باختلاف طبقات أصحاب البيوت .. وهو ليس من الطبقة العالية التى يخدمها محروس .. وعاد البيت يستقبل وجوها وشخصيات مختلفة من الخدم والخادومات .. وتطول مدة بقاء كل منهم أو تقصر ولكنها لا تزيد أبدا

عن بضعة شهور .. إلى أن جاءهم بشير .. إن شكله غريب .. طويل وتخين ووجهه الغامق السمار مكون بين أنفه وفمه وذقنه وعينه تكويننا غريبا .. إنه ليس وسيمًا ولكنه ليس منفرا ومن السهل أن تعود على منظره وشكله سريعا .. ومنذ اليوم الأول ظهرت مواهبه في الخدمة وحيويته الدائمة .. وهو يفهم في كل شيء .. وهو لا يكتفى بالخدمة العادية بل يستطيع أن يقف في المطبخ ويعد أطباقا معينة من الطعام .. وأكثر من ذلك .. إنه يغنى البيت عن استدعاء سمكرى ويصلح يديه الحفريات .. وأحيانا يغنيهم عن استدعاء نجار ..

وفي أيام اكتشاف عصمت أن بشير يعيش كل حياته وحيدا .. فهو لم يتزوج رغم أنه وصل إلى سن الأربعين ولا يبدو عليه في أسلوب حياته أنه سيتزوج أبدا .. وليس له علاقة مع أهل قريته في بلاد النوبة قريبا من أسوان .. كل ما يعرفه عن قريته هو اسمها .. ثم إنه ليس مختلطا اختلاطا تاما بأصدقاء من المهنة .. إنه يعرفهم ولكنه لا يعيش حياتهم .. ويبدو أن الجميع يحبونه كما يحبه بواب العمارة الذي جاء به .. ولكنهم يحبونه كأنه إنسان شاذ بينهم ويشفقون عليه ويتحملونه .. وربما كانت وحدة بشير قد ربطته بالبيت أكثر .. فهو غالبا مقيم فيه أو في الغرفة المخصصة له فوق السطح .. وبسرعة استطاع أن يعتبر نفسه من أفراد العائلة .. إنه يعيش بينهم في بساطة دون مظاهر الفرق .. ودون أن يبدو عليه مظاهر من الحقد أو الغيظ الطبقى .. إن كل الفارق بينه وبينهم كما يحس به هو اختلاف المسؤوليات .. ولكنهم اكتشفوا شذوذه منذ البداية .. إنه قد بقضى شهرا أو شهرين وهو يعمل بنشاط زائد ويقدم للبيت أكثر مما يطلب ثم فجأة وبلا أى مقدمات تصيبه نوبة

من الكسل .. فلا يعمل شيئا إلا التظاهر بالعمل .. ويتكاسل فيما يطلب منه .. وشفاته تصبحان دائما مقلوبتين في سخط وقرق .. وكل ذلك دون أن يعرف أحد السبب أو يقول هو السبب .. وقد تستمر هذه النوبة أسبوعا أو أسبوعين ثم فجأة أيضا تعود الانسامة إلى شفثيه ويعود إلى منتهى نشاطه .. وأيضا دون أن يعرف أحد السبب ..

ومن شذوذه أيضا أنه كان غالبا قليل الكلام .. وكان الصمت الدائم يغلب عليه .. وهو يعمل ومعه دائما الراديو يسمع منه الأغاني والكلام .. وينتقل به من غرفة إلى غرفة .. وإن كان دائما حريصا على ألا يحمل الراديو معه عندما يستدعيه أحد من أصحاب البيت .. إنه حريص على المظهر المؤدب المذهب .. ولكنه كان أحيانا تنابه نوبة تنطلق به متكلما ويصل به الكلام إلى حد الصياح حتى يغطي على كل ما يذيعه الراديو .. دون أن يفهم أحد شيئا مما يقول .. وأحيانا يبدو أنه يصب كلامه متعار كما مع أم عزيزة التي تحبه هي الأخرى وتشفق عليه .. ولا تفهم أم عزيزة لماذا هو ثائر عليها وتحمله صامته رغم أن هذه النوبة التي تصيبه قد تستمر ساعات ..

ولعل شذوذه الأكبر أنه كان يشرب الخمر .. ولكنه كان في العادة حريصا على ألا تؤثر الخمر على عمله فلا يشربها إلا في يوم إجازته الأسبوعية .. وكان في يوم الإجازة يأتي ليعد الإفطار ويجهز البيت ثم يختفى منذ الصباح حتى اليوم التالي .. وكان بمجرد أن يختفى يتجه إلى حانة من الحانات الرخيصة المعدة لهذه الطبقة من شربى الخمر .. ويبدأ في تناول الكئوس .. ويظل يشرب طول النهار حتى تهدد الخمر وإما أن يستطيع أن يعود إلى غرفته فوق السطح وإما أن يلقى بنفسه على

أى دكة من ذلك البوابين الذين يعرفهم .. وينام .. ويعود إلى البيت فى اليوم التالى طبيعيا دون أن يتكلم وإن كان أحيانا تبدو فيه بعض الاهتزازات من بقايا ما فى حوفه من خمر .. ولكنه كان أحيانا يخرج عن القواعد التى وضعها لهذا الشذوذ وخصوصا فى الليالى التى يكون فى البيت سهرة تجمع الأصدقاء وتقدم فيها الخمر .. وكان بشير كان يجد نفسه لا يستطيع أن يقاوم فكان يدخل إلى المدعوين ويجمع من أمامهم الأكواب ليغيرها .. وغالبا ما تكون فى هذه الأكواب بقايا خمر بل لعل بشير أحيانا كان يعتمد أن يرفع الكوب من أمام الضيف قبل أن يتم شرب ما فيه .. ثم يدخل المطبخ ويبدأ فى شرب ما تبقى من خمر فى أكواب الضيوف .. وفى ليلة يبدو أن بشير حمل الكثير من الأكواب حتى تلاعبت به الخمر .. وفوجئ عصمت به وهو يدخل إلى قاعة الضيوف وهو يترنح والراديو فى يده مفتوح إلى آخره .. وبلا استئذان وفى منتهى البساطة جلس بشير على مقعد بين الضيوف يستمع إلى الراديو .. ولم يثر عصمت ويضربه مثلا ويسحبه خارج القاعة .. ولكنه بالعكس ابتسم له وأخذ يداعبه كما جاءت أم عزيزة وراءه وأحذا يضحكان معه وهما يجذبان فى رفق حتى غادا به إلى المطبخ .. وانقضت السهرة كلها والضيوف يضحكون ويتندرون على بشير ، وعصمت يعتمد أن يروى النوادر حتى يعطى خجله من بشير .. كأنه يغطى عورة من عورات البيت ..

ورغم هذه الغرابة فى شخصية بشير وكل مظاهر شذوذه فقد كان البيت يتحمله فى محبة وإشفاق .. وكان يعوضهم دائما عن غرابته وشذوذه بتفانيه فى العمل من أجل البيت والعائلة .. وبأمانته المطلقة ..

وبوحده التى تتركه متفرغا لهم .. وكانت ست البيت تقول دائما : — إن بشير لا يمكن أن يتركنا ليعمل فى مكان آخر .. فإن أحدا لا يستطيع أن يتحمله إلا أنا ..

وفعلا كانت العائلة كلها مطمئنة إلى أن بشير سيبقى فى خدمتها إلى الأبد .. ولا يمكن أن يرتاح إلا معهم .. وليست له مطالب لا يستطيعون أن يحققوها له .. حتى بالنسبة لمرتبه الذى يدفعونه له .. إنه لم يطلب أبدا أى زيادة .. وعندما جاء إليهم عرض عليه عصمت أن يدفع له ثلاثين جنيه فى الشهر .. وقبل بشير فوراً دون مجادلة .. ولم يطلب خلال السنوات أى زيادة .. ولكن عصمت من تلقاء نفسه يرفع من هذا المرتب حتى وصل الآن وبعد ثمانى سنوات إلى خمسين جنيها .. وحتى المكافآت التى كان من المفروض أن يدفعها له عصمت فى كل مناسبة أو فى كل دعوة يقيمها فى البيت نظير خدمة الضيوف .. كان بشير لا يسأل عن هذه المكافأة ولا يبدو عليه أنه فى انتظارها بل لا تبدو عليه الفرحه الكبيرة بها .. وهو ما كان يدفع عصمت كثيرا إلى نسيان دفعها له .. إنه غريب فى تنظيم حياته حتى إنه كان يجمع مدخرات من هذا المرتب .. وكان يحتفظ بهذه المدخرات لدى أم عزيزة .. وأم عزيزة تحتفظ بها بالتالى عند ست البيت .. إن له من المدخرات الآن حوالى خمسمائة جنيه وهو أكمل من أن يفكر فى استغلالها فى بنك .. إلى أن فوجئ عصمت أخيرا ببشير يحدثه عن العمل فى الخارج ويبدو أنه مصمم على ترك خدمته والعمل فى الخارج أو فى إحدى السفارات أو لدى أحد من الأجانب الذين امتلأت بهم مصر ..

وجلس عصمت وزوجته يتحدثان عن مصير الخدمة في البيت بعد أن يتركهم بشير .. وكان من رأى زوجته أنه بعد بشير فلن يجدوا أبداً أحداً يحل مكانه .. وعصمت يترحم على أيام زمان عندما كانوا يستدعون بنات وصبية من القرية ليتولوا خدمة البيت .. كانت القرية زمان تعتبر كلها عائلة واحدة يتعاون بعضها مع بعض .. ولكن القرية الآن أصبح فيها كل بيت منفصلاً عن الآخر ولا يهتم به .. بل أصبح البيت الواحد يضم إخوة لا يهتم أحدهم بالآخر .. وكل منهم متفرغ للاهتمام بنفسه .. هكذا أصبحت الحياة لا يستطيع فيها الإنسان أن يتحمل إلا مسئولية نفسه .. وقالت زوجته إنهم يجب أن يستسلموا للتطور .. وتعيش العائلات كما تعيش في أوروبا وأمريكا .. كل فرد من أفراد العائلة يخدم نفسه .. لقد تطوروا إلى حد أنهم لم يعودوا في حاجة إلى سبائك أو نجار أو كهربائي فكل أفراد العائلة أصبحوا يجيدون هذه المهام .. لا يمكن أن تستدعى العائلة سبائكاً ليصلح جلد حنفية المياه .. أى طفل يستطيع أن يتعامل مع جلد الحنفية .. حتى أن كل هذه المهن الفردية .. السبائك والنجار والكهربائي قد اختفت من البلاد المتقدمة .. وحتى إذا احتاجت العائلة إلى عامل يساعدها في مطالب البيت أو مربية ترعى الأطفال فهم يستأجرون هذا العامل على حساب مدة ساعة العمل .. قد يدفعون له أجر ساعة أو ساعتين أو ثلاث .. ولا يحتاجونه إلا يوماً واحداً في الأسبوع أو يومين .. لماذا لا نطبق هذا النظام عندنا ونرتاح من متاعب وتكاليف الخادم المقيم ؟ ..

ولكن عصمت بدأ تفكيره يأخذ في اتجاه آخر .. إن مهنة الخدمة

داخل البيوت هي مهنة غير معترف بها لارسمياً ولا اجتماعياً .. إن خدم البيوت يؤلفون الهيئة الوحيدة التي ليس لها نقابة .. نقابة تحمي حقوقهم وتفرض مطالبهم .. إنه حتى نساء الشوارع في باريس قد أصبح لهن نقابة .. ولكن خدم البيوت عندنا ليس لهم نقابة .. وإن كان قد قيل إنهم هم أنفسهم لا يريدون نقابة ولا يريدون أى اعتراف رسمى بهم لأنهم يكسبون من حريتهم المطلقة أكثر .. لا يريدون أن يتقيدوا بأى قيود تحرمهم من التنقل بين بيت وبيت أو باختيار نوع العمل .. وربما أكثر من ذلك .. فإن العاملين في البيوت يرفضون هم أنفسهم الاعتراف بمهنتهم ويتبرعون منها كأنها عورة .. ولا يقبل أى واحد منهم أو واحدة بأن يعرف عنه أنه خادم أو خادمة .. أو سفرجى أو كمريرة أو دادة .. حتى بعد أن حرم لقب خادم ووضع مكانه لقب عامل .. عامل في بيت .. رفضوا أيضاً اللقب الجديد مع أن رئيس الجمهورية يتفاخر بأن مهنته هي مهنة خادم .. خادماً الشعب .. وخادماً الأسرة يساوى خادم الشعب .. إن اللقب الذى يقبلونه على أنفسهم هو لقب « موظف » ..

ثم قال عصمت لنفسه كيف يفاجأ أو يدهش عندما يبدأ بشير في محاولة زيادة دخله ؟ .. إنه هو شخصياً بعد أن تخرج في الجامعة لم يكف يوماً عن التفكير في زيادة دخله .. لقد بدأ يعمل بمرتبة اثني عشر جنيهاً في الشهر .. وارتفع مع السنين إلى خمسة وعشرين .. ثم إلى ستين .. وبعد الثورة ارتفع مرة واحدة إلى مائة وعشرين .. وكان هو نفسه الذى سعى إلى هذه الزيادة باعتباره من أفراد الجيل الجديد .. ثم عندما عين رئيساً للمجلس الإدارة أصبح مرتبه أربع مائة وعشرين جنيهاً

بعد خصم الضرائب .. إن كل رئيس مجلس إدارة يتقاضى خمسة آلاف جنيه في العام سواء أكان يستحقها أم لا يستحقها .. ورغم ذلك فهو نفسه لا يزال يفكر في زيادة دخله ويصل تفكيره إلى العمل في الخارج كما ساعد ولديه على العمل في لندن وفي أمريكا .. فلماذا لا يكون بشير مثله ؟ .. إنه بنى آدم هو الآخر وحقه لا يختلف عن باقي البني آدمين .. الاختلاف لا يكون إلا في نوع العمل أو نوع المسؤولية دون اختلاف في طبيعة احتياجات البشر .. ولكن بشير يهمل نفسه .. إنه في خلال ثمانى سنوات لم يزد دخله سوى عشرة جنيهات أو عشرين .. ويجب أن يتولى هو حماية بشير .. سيرفع مرتبه مرة واحدة إلى ستين جنيها .. وسيقدم له الحقوق التي كان من المفروض أن تكون له لو كانت له نقابة .. سيعد له سجل تأمين في هيئة التأمينات حتى يضمن له معاشا إذا انقطع عن العمل .. ولعل بشير بعد ذلك يقبل أن يبقى في خدمته ..

وكان عصمت قد عاد إلى البيت في نفس المساء ووجد بشير في المطبخ فدخل إليه وبدأ حديثه قائلا :

— إنك لن تكون في حاجة إلى ترك البيت والعمل في الخارج .. ونظر إليه بشير وقال وهو يبدو مترنحا :

— من قال هذا الكلام ؟

وقال عصمت في دهشة وقد تذكر أن هذه ليلة السبت التي تعود بشير فيها أن يعود سكران :

— أنت ..

وقال بشير ولسانه يترنح بين شفتيه :

— وهل هذا معقول يا سعادة البيه ؟ .. أترك البيت وأذهب إلى أين ؟ .. هنا بيتى وعائلتى ..

وتعجب عصمت .. لا بد أنه كان في نوبة من نوباته الشاذة عندما كان يحدثه عن العمل في الخارج .. وتركه في المطبخ دون أن يرد عليه ..

ولكنه ليس مطمئنا إلى بقاء بشير في خدمة البيت ..

هكذا تزوجا ...

جلست في الغرفة التي تجلس فيها دائما طالما كانت في البيت .. وعلى نفس المقعد الذي أصبح معروفا أنه مقعدها الخاص حتى بالنسبة للضيوف .. فكل من يدخل هذه الغرفة يعلم أن ليس من حقه أن يجلس على هذا المقعد .. وأمامها جهاز تليفزيون من أكبر وأحدث طراز ويلتصق به جهاز فيديو ومن حوله عشرات من شرائط الأفلام ملقاة في إهمال .. وقرىبا منه جهاز راديو كاسيت من آخر طراز هو الآخر وحوله مجموعة كبيرة من شرائط الكاسيت .. ومكتبة لا تغطي الجدار كله ولكنها مكتبة متوسطة الحجم .. وفي أعلى المكتبة أرفف تحمل عشرات الكتب .. وأغلبها كتب أدبية تضم معظم القصص التي نشرها كبار الكتاب .. وأسفل المكتبة دولا لا يزال مفتوحا وتتجمع فيه عشرات من اللوسيهات ..

في مثل هذا اليوم منذ عشر سنوات مات زوجها .. وهي ليست مستسلمة للحزن في ذكراه .. إنها لم تفاجأ بموته وكانت منذ تزوجته وهي تنتظر أن يموت قبلها .. فقد تزوجته وهي في السابعة عشرة من عمرها بينما كان هو في الأربعين من عمره .. أي كان الفارق بينه وبينها ثلاثة وعشرين عاما .. وربما اختاره أهلها لها لأنهم قدروا أنه يستطيع أن يوفر لها حياة أرقى من مستوى الحياة التي يعيشونها .. وهي لم تعترض .. فلم تكن من البنات اللاتي يحلن بأنواع معينة من الرجال .. ولم تكن عواطفها قد تحركت نحو أي شاب برغم أن كثيرا من الشبان

كانوا يحاولون ملاحقتها والوصول إليها .. ثم إنه كان رغم سنه وسيما وسامة الرجل وكان ممشوق القوام كأنه من أبطال الرياضة .. وقد أحست منذ اليوم الأول للزواج بارتباطها به .. ولا تدري هل كان ارتباط حب أم ارتباط الزوجة العاقلة بزوجها .. ولكن ما كان يطفى على إحساسها به هو أنه أستاذ يعلمها الحياة ويفتح أمامها أبوابا لم تكن تدري أن في الحياة مثل هذه الأبواب .. وقد كان رجل أعمال متخصصا في عمليات التصدير والاستيراد .. وكان يقوم بهذه العمليات بطريقة غريبة .. فلم يؤسس مثلاً شركة تحمل مسئولية أعماله .. بل لم يكن له مكتب خاص .. ولكنه كان يقوم بعملياته عن طريق اتصالاته الشخصية معتمدا على نفسه فقط .. ولكنه منذ تزوجها وهو يعتمد أن يشرح لها أسرار كل عملية يقوم بها ويعرفها بالشخصيات التي يحتاج إليها في كل عملية ويعلمها كيف تتعامل معهم وكيف تقيم لهم الدعوات .. إنه يعتبرها شريكته ويخلق منها سيدة أعمال .. وسيدة الأعمال يجب أن تتوفر فيها مواهب التعامل مع الرجال .. كيف تجتذب الرجل .. وكيف تصل به إلى إثارة كل آماله حتى الآمال البعيدة عن العمل .. آماله فيها هي شخصيا .. وقد تعرضت لكثير من محاولات الرجال للوصول إليها .. بل كانت هي أحيانا تثير في الرجل أن يقدم على هذه المحاولات حتى يضعف أمامها فيبذل مجهودا أكثر من إتمام العملية التي يقوم بها زوجها مرضاة لها .. ولكنها لم تستسلم أبدا لأي رجل .. كانت من النباهة بحيث تستطيع أن تحفظ بآمال الرجل فيها دون أن تستسلم لهذه الآمال .. كانت مثلاً تترك الرجل يحدثها في التليفون أو تحدثه هي وتتركه يعتقد أن حديث التليفون لا يعلم به زوجها .. إنها تحدثه أو

(١٢٢ - وتاهت ..)

تتركه يتحدث خفية عن زوجها .. وكانت قادرة على أن تستمر بهذه المحادثات التليفونية شهرا أو شهرين دون أن تستسلم للرجل ودون أن يفقد أمله فيها .. إلى أن تتم العملية التي يقوم بها زوجها .. وكان لها أسلوبها بعد ذلك في قطع هذه المحادثات التليفونية دون أن تغضب هذا الرجل .. تبعده دون أن تخسره .. وزوجها يعلم أولا بأول كل اتصالاتها بالرجال الذين يتعامل معهم .. ويسكت لأنه يعتبرها اتصالات تتطلبها العمليات التي يقوم بها .. يسكت وهو مطمئن إليها .. إنه واثق أنها لن تقدم على أكثر من ذلك .. لقد علمها أن العمل لا يفرض عليها أن تعطى أكثر .. وهي لا تدرى إذا كانت لا تعطى استجابة لتعليماته أم لأنها تحبه .. ولكنها واثقة أنها لا تعطى لأنها تخاف الله .. إنها منذ نشأتها وهي تخاف الله .. ربما لو استسلمت للحرام لعاقبها الله وصب غضبه على أولادها أو لهدم بيتها .. وقد مرت عليها حالات أحست فيها كأنها تكاد تستسلم .. وكان الرجل يغريها كما تغريه .. ولكنها كانت تقاوم إلى حد أنها تعاني عذاب الحرمان .. ولم تكن تستمد القدرة على المقاومة من حبها لزوجها أو اقتناعا بتعليماته ولكن كانت تستمدها من خوفها من عقاب الله .. خوفها من الحرام .. وقد أنجبت من زوجها ولدين .. هشام وعصام .. وقد بالغت في رعايتهما وإحاطتهما بأومئتهما .. كانت الأمومة هي الحب الوحيد الذي عاشت فيه .. إن الأمومة ليست مجرد ارتباط كارتباطها بزوجها أو بأهلها .. إنها حب .. وهو حب ركزت عليه كل حياتها وكل مستقبلها .. إن زوجها سيموت قبلها ولن يبقى لها في حياتها إلا ولداها .. إنها حتى قبل أن يموت زوجها هما كل مالها ..

وقد مات زوجها وهو في الستين بعد أن عاش شهورا يعاني من أزمة قلبية .. وكانت خلال هذه الشهور هي التي تتولى إدارة كل أعماله .. إنها تعرف كل ما في هذه الأعمال من أسرار .. ولم يصيبها أى انهيار بموته ولم تحزن حزنا عميقا يؤثر في تماسكها بنفسها أو في الحرص على ترتيب كل خطواتها .. فلم يكن الموت مفاجأة .. كانت تنتظر دائما أن يموت .. واستطاعت بسرعة أن ترتب كل حياتها وحياتها ولديها .. واستطاعت أيضا أن تستمر في عمليات الاستيراد التي تركها لها .. إن بينها عمليات تدر دخلا ثابتا يمكن أن يغنيها عن السعي وراء عمليات أخرى .. لقد تركها زوجها وهي غير محتاجة .. تركها وهي تستطيع أن تعتبر نفسها مليونيرة ولو أنها تعتمد دائما أن تخفى عن الناس أنها وصلت إلى درجة مليونيرة ..

وفوجئت بعد شهور من موت زوجها بمن يتقدم لها عارضا الزواج .. ربما قدروا أن زوجها المرحوم لا يستحق أكثر من هذه الشهور حزنا عليه واحتفاظا بذكراه .. ثم إنها لا تزال شابة في السابعة والثلاثين من عمرها .. وهي جميلة هذا الجمال الهادئ .. جمال يست البيت .. إن كل رجل يتصانها زوجة له ويجرى كل منهم إليها قبل أن يسيقه آخر ..

ولكن لا ..

مستحيل ..

لن تنزوج أبدا ..

كيف تدخل على ولديها رجلا غريبا .. لم يعد في حياتها مكان إلا لولديها .. ثم من أدراها بالدوافع التي تدفع كل هؤلاء الرجال للتقدم

إليها .. ربما لم يكن مجرد أنها لاتزال شابة أو لأنها تعتبر جميلة .. إنما لأنهم يعرفون أنها غنية .. وكلهم يطمعون فى أن يتزوجوا أموالها .. حتى صديقاتها اللاتي يغربنها بالزواج ربما كانت كل منهن ستأخذ من العريس عمولة أو قيمة السمسة فى تزويجه من امرأة غنية .. إنها لن تتزوج أبدا.. وإذا حدث وفكرت فى الزواج فهى على الأقل لن تتزوج إلا رجلا تعرفه معرفة تامة .. معرفة الحب الذى تسمع عنه .. وقد تزوجت زوجها المرحوم دون أن تعرفه .. ولكنها أيامها كانت صغيرة ومستبلمة لإرادة أهلها .. ولم تكن كما هى الآن .. أما لولدين .. وسيدة أعمال .. وغنية .. ولكن ..

مع مرور السنوات بدأت تعاني من الوحدة .. تحس بفراغ واسع .. إنها امرأة ناقصة .. كل امرأة بلا رجل هى امرأة ناقصة .. كأنها نصف مخلوقة .. وولداها لهما حياتهما الخاصة التى لاتستطيع أن تعيشها معها .. كما لاتستطيع أن تخرجهما من مجالهما ليعيشا مجالها .. إنهما أحيانا يجاملانها ويقضيان اليوم معها .. أو يصحبانها إلى السينما أو إلى مسرح وتحس وهى معها بأنها تحرمهما من شبابيهما .. وتكلفهما بأعمال منزلية ليست من اختصاصهما .. ثم إنها لم تعد ترحب بدعوات إلى الحفلات الاجتماعية .. إنها لاتطبق أن تدخل إلى حفل وحدها وتخرج وحدها .. امرأة بلا رجل .. امرأة ناقصة .. ولم تعد تستطيع أيضا أن تقيم مثل هذه الحفلات فى بيتها تدعو إليها الأزواج مع الزوجات .. ليس فى البيت رجل يستقبل الرجال .. وليس من الطبيعى أن تجعل ولديها يقفان لاستقبال رجال كبار لا يعرفانهم وليس

بينهما وبينهم أى موضوع لأى حديث .. وأصبح من عاداتها عندما تضيق بوحدثها أن تدعو واحدة من صديقاتها أو اثنتين ليخفقا عنها مللها وزهقتها .. حتى أصبح يقال عنها إنها بخيلة لاتفتح بيتها للدعوات .. وهى ليست بخيلة .. وقد تكون حريصة على ما تنفقه .. فهى لاتترك القرش يخرج من يدها إلا بعد أن تقتنع بمصير هذا القرش وأين يذهب .. وهى ليست مستعدة لأن تترك آلاف القروش تخرج من يدها لتقيم فى بيتها حفلا إلا إذا تأكدت مقدما أنها لن تكون فى هذا الحفل امرأة ناقصة .. أو إلا إذا تأكدت أنه سيكون فى هذا الحفل الرجل الذى تريد أن تستكمل به نقصها .. ولكنها لاتدرى كيف تجد هذا الرجل لتدعوه إلى كل حياتها ..

وكانت قد مضت خمس سنوات وهى تعاني وحدثها .. تشغل نفسها ببيتها ولديها وبعض العمليات التى ورثتها عن زوجها والتى أصبح القيام بها روتينيا ليس فيه جديد ولم تضيف إليها جديدا يثير اهتمامها ويشعل حماسها وينسيها وحدثها .. ومعاونة الوحدة تشدتها بها فى الليل فتجلس أمام التلفيزيون أو تدير أشربة الفيديو أو تقرأ فى كتاب أو تستمع إلى موسيقى أو أغنية على شريط كاسيت .. ولاتستطيع أن تدخل إلى الفراش الخالى إلا إذا تغلب عليها النوم قرب الفجر وكأنه قد أغشى عليها !.. وكانت أحيانا تحاول أن تقنع نفسها بالزواج من واحد من هؤلاء الغرباء الذين يتقدمون إليها .. بل إنها كادت توافق على الزواج من عبد المقصود منصور .. إنه مليونير .. ومعروف كواحد من أغنى أغنياء مصر .. وقبلت فعلا أن تلقاه فى دعوة لدى إحدى صديقاتها .. ولكنه رغم ما يتمتع به من الصحة والعافية فى الستين من

عمره .. أكبر منها أيضا بعشرين سنة .. وهى لا تريد أن تكرر مأساتها مع زوجها المرحوم فتزوج رجلا تنتظر موته منذ يوم الزواج .. كما أنها تريد أن تحقق أملها فى ألا تتزوج رجلا إلا بعد أن تعرفه معرفة تامة .. بعد أن تحبه .. إلى أن استطاعت أن تقاوم إغراء ملايين عبد المقصود وتعذل عن زواجه ..

إلى أن قابلت مدحت عبد الله ..

لقد قابلته صدفة وفى دعوة غير مقصودة لدى صديقتها ميرفت .. لقد جذبها إليه منذ اللقاء الأول .. إن مجرد كلامه يجذبها .. إنه يتكلم جادا ولكن جديته تكسر ها بساطة مريحة وتحفظ الابتسامة على شفاه كل من يسمعه .. وهو ليس رجل أعمال كأغلبية الرجال الذين عرفتهم .. إنه موظف كبير فى درجة وكيل وزارة .. ويملك أرضا زراعية واسعة تجعله فى مستوى طبقة الأغنياء .. وهو أكبر منها قليلا .. إنها الآن فى السابعة والثلاثين وهو فى الواحدة والأربعين .. إن فارق السن مادام أقل من عشر سنوات هو أصلح فارق بين زوج وزوجة .. والأهم من كل ذلك أنه فى مثل وضعها .. لقد كان متزوجا وزوجته توفيت منذ خمس سنوات فى نفس الموعد الذى توفى فيه زوجها .. وتركت له زوجته ابنتين كما ترك لها زوجها ولدين ..

ولكن يجب أن تعرفه أكثر .. وقد وفر عليها التفكير فى الطريق إلى معرفته عندما قال لها وهى تنصرف عن الحفل :

— هل أستطيع أن أوصلك مادمت وحيدة ؟..

وكانت ساعتها تمنى أن توافق ولكنها قدرت أنه من الأفضل ألا تستسلم لأمنيتها وقالت :

— شكرا .. إن معى سيارة ..

قال فى هدوء وفى لهجته الجادة البسيطة كأنه لا يتجراً بطلب ليس من حقه :

— هل أستطيع أن أتحدث إليك فى التليفون ؟..

وقالت وهى تخفى عينها عنه كأنه قد بدأ شئ بينهما :

— أنا فى انتظارك ..

وحدثها فى اليوم التالى مباشرة .. وكانت فى انتظاره فعلا .. وأحست ربما لأول مرة فى حياتها بقليلها يخفق وهى تسمع صوته .. إنها تتحدث معه فى التليفون كما لم تعود التحدث مع رجال الأعمال أو الموظفين الكبار الذين لهم دخل بالعمليات التى كان يقوم بها زوجها وتولتها بعده .. إنه ليس بينه وبينها أى عمل .. كل ما بينه وبينها بادرة حب قد ينتهى إلى زواج ..

وقد طال الحديث بينهما أياما وأسابيع قبل أن يصل إلى موضوع الزواج .. كأن كلا منهما كان يحاول أن يكشف أعماق الآخر ويدخل فى شخصيته .. وهى لا تشبع أبدا من هذه الأحاديث .. ولم تكن تقبل أبدا أن تستجيب لرغبته فى لقاء خاص بهما .. كان كل ما يحصل عليه هو لقاء آخر عند صديقتها ميرفت .. بل لم تقبل أيضا أن يوصلها فى سيارته بعد زيارة ميرفت .. دائما منفصلة بسيارتها .. إنها تحكم عقلها قبل أن تستسلم لعواطفها .. إلى أن فاتحها فى الزواج وهو يحدثها بالتليفون ..

وعلى عكس ما تصورت وجدت نفسها مترددة .. حائرة .. إنها تعيش الآن حياة منظمة مرتبة ترتيبا يشمل اليوم والساعة والدقيقة ..

فكيف تقلب هذا الترتيب وتزوج ..

إنها أولا لا يمكن أن تتزوج إلا بموافقة ولديها هشام وعصام .. إنها أصبحتا كأنهما وليا أمرها .. هما المسئولان عنها .. حتى ولو كانت مجرد مسئولة عاطفية .. وقد كبرا .. هشام الآن فى السنة النهائية بكلية التجارة .. وعصام فى الجامعة الأمريكية يدرس إدارة الأعمال .. إن كلا منهما يعد نفسه ليسير فى نفس الطريق الذى كان يسير فيه والدهما .. طريق الأعمال الحرة .. معتمدين على ماورثاه منه وماصناته لهما أمهما ..

ولنفرض أنهما وافقا على زواجهما .. وهى لا تستبعد موافقتها .. إنها معترفان بأنها ضحت بنفسهما من أجلهما وعاشت كل هذه السنوات فى حرمان .. عاشت نصف امرأة .. حتى تتفرغ لهما .. بل كان ابنها هشام يصحك معها قائلا :

— سأزوجك يا ماما ..

وترد ضاحكة :

— إبنى متزوجة من اثنين .. أنت وأخيك ..

فيرد وكأنه جاد رغم أنه يضحك :

— الزواج الثالث سيشترك معنا فى إسعادك .. على الأقل يحمل معنا مسئولة الشهر معك .. ولانلوم أنفسنا كلما تركناك وحيدة ..

ولكنه كان مجرد كلام أقرب إلى تبادل النكات .. ولا تدرى ماذا سيكون عليه إحساسهما عندما تقلب النكته إلى واقع يعيشان فيه .. عندما تتزوج فعلا ..

ولنفرض أنها تزوجت فأين تعيش مع زوجها .. هل يكون لهما بيت حديد .. بيت الزوجية .. لا .. مستحيل أن تترك الشقة التى تعيش فيها .. ومستحيل أن تترك ولديها وحدهما مهما ضمنت توفير مطالب الحياة لهما .. إنها تحس أنها لا تستطيع أن تعيش خارج هذه الشقة .. لقد وضعت فيها يدها كل لمسة .. وجددتها أكثر من مرة حتى أصبح كل الناس يعترفون بأنها أفخم شقة فى مصر كلها .. ولا تستطيع أن تتصور أن تصحو فى الصباح ولا تلتقى بوجه ولديها .. إنها لم تتعود أن تلبس قبة الصباح كما تفعل باقى الأمهات .. ولكن أن تضمهما بيتهما فى الصباح يملأ إحساسها بأمومتها أكثر من القبلات ..

إذا تزوجت فلى يكون هناك طريق إلا أن يأتى زوجها معها ويعيش فى نفس الشقة ومعهما ولداها .. ولكن .. كيف يتحمل الولدان رؤية أمهما وهى تدخل مع الرجل الغريب حجره النوم .. ويعيشان فى خيال أن أمهما الآن عارية فى أحضان رجل .. ربما تحملا إلى أن يتعودا .. ولكن هناك مشكلة أخرى .. إنها لا تزال تحتفظ حتى اليوم باسم المرحوم على باب الشقة .. ولا تزال تحتفظ بصورته الكبيرة معلقة فى وسط جدار صالون الاستقبال .. فهل ترفع اسمه من الباب وتزع صورته من فوق الجدار يوم تتزوج .. فهل يحتمل ولداها .. إنه اسم أبيهم وصورته اللذان يؤكدان أن البيت بيتهما .. لعلهما سيشعران أن أمهما قد نزعتهما هما من حياتها ومن بيتهما ..

ولكن لماذا تحصر كل تفكيرها فى ظروفها وهى وحدها .. إن حبيبها مدحت عبد الله له أيضا نفس الظروف .. إن له بنتين تعيشان معه منذ توفيت أمهما .. وأصبحنا الآن كأنهما المسئولتان عنه فى بيته .. فكيف

فكيف تقلب هذا الترتيب وتزوج ..
إنها أولا لا يمكن أن تتزوج إلا بموافقة ولديها هشام وعصام .. إنها
أصبحت كأنهما وليا أمرها .. هما المسئولان عنها .. حتى ولو كانت
مجرد مسئولة عاطفية .. وقد كبرا .. هشام الآن في السنة النهائية بكلية
التجارة .. وعصام في الجامعة الأمريكية يدرس إدارة الأعمال .. إن
كلا منهما يعد نفسه ليسير في نفس الطريق الذي كان يسير فيه
والدهما .. طريق الأعمال الحرة .. معتمدين على ما ورثاه منه
وما صانته لهما أمهما ..

ولنفرض أنهما وافقا على زواجهما .. وهى لا تستبعد موافقتهما ..
إنهما معترفان بأنها ضحّت بنفسها من أجلهما وعاشت كل هذه
السنوات في حرمان .. عاشت نصف امرأة .. حتى تنفرغ لهما .. بل
كان ابنها هشام يضحك معها قائلا :

— سأزوجك يا ماما ..

وترد ضاحكة :

— إني متزوجة من اثنين .. أنت وأخي ..

فيرد وكأنه جاد رغم أنه يضحك :

— الزواج الثالث سيشارك معنا في إسعادك .. على الأقل يحمل معنا
مسئولية السهر معك .. ولا نلوم أنفسنا كلما تركناك وحيدة ..

ولكنه كان مجرد كلام أقرب إلى تبادل النكات .. ولا تدري ماذا
سيكون عليه إحساسهما عندما تقلب النكته إلى واقع يعيشان فيه ..
عندما تتزوج فعلا ..

ولنفرض أنها تزوجت فأين تعيش مع زوجها .. هل يكون لهما بيت
جديد .. بيت الزوجية .. لا .. مستحيل أن تترك الشقة التي تعيش
فيها .. ومستحيل أن تترك ولديها وحدهما مهما ضمنت توفير مطالب
الحياة لهما .. إنها تحس أنها لا تستطيع أن تعيش خارج هذه الشقة ..
لقد وضعت فيها يديها كل لمسة .. وجددتها أكثر من مرة حتى أصبح
كل الناس يعترفون بأنها أفخم شقة في مصر كلها .. ولا تستطيع أن
تتصور أن نصحو في الصباح ولا تلتقي بوجه ولديها .. إنها لم تعود أن
تقبلها قبله الصباح كما تفعل باقي الأمهات .. ولكن أن تضمهما ببيتها
في الصباح يملأ إحساسها بأموئها أكثر من القبلات ..

إذا تزوجت فلن يكون هناك طريق إلا أن يأتي زوجها معها ويعيش في
نفس الشقة ومعهما ولداها .. ولكن .. كيف يتحمل الولدان رؤية
أمهما وهى تدخل مع الرجل الغريب حجرة النوم .. ويعيشان في خيال
أن أمهما الآن عارية في أحضان رجل .. ربما تحملا إلى أن يتعودا ..
ولكن هناك مشكلة أخرى .. إنها لا تزال تحتفظ حتى اليوم باسم
المرحوم على باب الشقة .. ولا تزال تحتفظ بصورته الكبيرة معلقة في
وسط جدار صالون الاستقبال .. فهل ترفع اسمه من الباب وتنزع
صورته من فوق الجدار يوم تتزوج .. فهل يحتمل ولداها .. إنه اسم
أيهم وصورته اللذان يؤكدان أن البيت بيتهما .. لعلهما سيشرعان أن
أمهما قد نزعتهما هما من حياتها ومن بيتها ..

ولكن لماذا تحصر كل تفكيرها في ظروفها وهى وحدها .. إن حبيبها
مدحت عبد الله له أيضا نفس الظروف .. إن له بنتين تعيشان معه منذ
توفيت أمهما .. وأصبحنا الآن كأنهما المسئولتان عنه في بيته .. فكيف

يتخلى عنهما ويتركهما وحيدتين بعد أن يتزوجها ويقيم معها فى شقتها ..

وقد خطر على خيالها أن يأتى البنيتين معه ليقموا جميعا معها .. إن الشقة واسعة وتستطيع أن تخصص لهما حجرة من أجمل وأحلى غرف البيت .. ويصحبون كلهم كأنهم عائلة كبيرة .. زوجة وزوج وولدان وبنتان .. ولكنه لن يقبل .. إن البنيتين قد أصبحتا فى السابعة عشرة والخامسة عشرة ولا يمكن أن يضعهما مع شابين غريبيين وإلا ثار حولهما كلام الناس .. ويعرضهما لكل ما يمكن أن يحدث بين البنات والأولاد .. ولن يأمن على بناته مع أولادها إلا إذا تزوجا جميعا بعضهم من بعض .. يتزوجها وتتزوج ابنته ولديها .. ولكن مستحيل .. لا يمكن أن تفرض على ولديها أن يتزوجا من ابنته لمجرد تحقيق غرضها الخاص بالزواج به .. وهو أيضا لا يستطيع أن يفرض على ابنته أن تتزوجا ولديها .. وإلا كان الأثان فى منتهى الأثانية إلى حد التضحية بالأبناء ..

لماذا لا يترك ابنته لتعيش فى بيت أخته أو بيت أخيه ؟ .. لقد قال لهما يوما إنه سبق أن قرر فعلا أن تعيش ابنته مع عمتها .. ولكنه إلى اليوم لا يستطيع أن ينفذ قراره أو يقاتحهما فيه .. لقد كبرت البنتان وتعودتا على الحياة معه .. وأصبحت لكل منهما شخصية قائمة على مسئوليتها عن أبيها ومسئوليتها أمامه .. لو كانتا صغيرتين فى الرابعة أو الثالثة من عمرها لأمكن أن تعودا الحياة بعيدا عن أبيهما وأن تكتسبا القدرة على الحياة مع العم أو العمة .. أما الآن فمستحيل .. إنه يحس كأنه سيحرمهما من الحياة إذا تركهما بعيدا عنه .. كأنه يلقيهما فى الشارع .. وهو على حق .. ربما

لو كان ولداها هى الأخرى صغيرين لاستطاعت أن تتزوجه بسهولة ودون أن تواجه كل هذه المشاكل .. وليس هناك الآن طريق لتزوج إلا أن تنتظر حتى يتزوج ولداها ويكون لكل منهما بيت خاص .. وينتظر هو الآخر إلى أن تتزوج ابنته وتصبح كل منهما ربة بيت خاص بها .. وبعد ذلك يتزوجان .. وقد يتحقق ذلك بسهولة .. لقد قال لها إن ابنته الكبرى قد خطبت .. المهم أن يتحملا الانتظار .. وهى تستطيع فى معترفة أنها تحبه وأنها تريد .. ولا شك أنه أيضا يحبها إلى درجة أنه يتحمل عقليتها المعقدة كأنها تحمل فى رأسها « كمبيوتر » يحسب حساب كل خطوة تخطوها ولا تستطيع أن تجارف أو تخطو خطوة لا تتفق مع حساب هذا الكمبيوتر ..

وطالت حيرتها حتى مضى عامان وهى تعاني ما يدور فى عقلها وتعاني حرمانها منه .. ولكنها لا تزال تحتفظ به فى لقاءات التليفون وفى لقاءهما عن طريق صديقتها ميرفت .. وكانا يتحدثان طويلا بحثا عن الطريق .. وربما كانت تخفى عنه بعض خواطرها ولكنها لم تكن تخفى شيئا من كل ما يدور فى رأسها عن صديقتها ميرفت .. وكانت ميرفت تصرخ فى وجهها كل يوم :

— تزوجى أولا .. ثم فكرى فى ذلك فيما بعد الزواج ..

كان من رأى ميرفت منذ البداية أن يعقدا القران دون أن يهتما بأين يقيمان ولا كيف يقيمان .. إن الزواج هو تسجيل شرعية الحب .. وهى تحبه وتريده .. فلنسجيل أولا شرعية الحب وشرعية ما تريده منه .. وبعد ذلك تفكر فيما سيكون عليه الأولاد والبنات وفى البيت الذى سيكون بيت الزوجية .. ليتزوجا كما هما الآن .. هى فى بيتها مع ولديها وهو

فى بيته مع بنتيه .. ويلتقيا فى هذا البيت أو ذاك .. لقاء الحب .. أو يخصصا بيتا ثالثا للقاء الحب .. هكذا تتم الآن كثير من الزيجات .. بل إن أزمة الشقاق جعلت الزوجة تعيش مع أهلها والزوج يعيش مع أهله .. ويلتقيان دون حاجة إلى بيت الزوجية .. حتى لو كانت الزوجة فى بيت أهله أو عاش هو فى بيت أهلها فلا يمكن اعتبار هذا البيت بيتهما وحدهما .. بيت الزوجية .. وإنما هو بيت اللقاء .. لقاء الحب الشرعى .. أى أن الزواج الآن أصبح يقوم الآن على تحقيق واقع الحب أولا إلى أن يتمكن الزوجان من تحقيق واقع الزواج .. وواقع الحب مقبول من المجتمع مادام حاشريا كواقع الزواج تماما .. أى تستطيع أن تبقى فى بيتها مع أولادها ويبقى هو فى بيته مع بناته والمجتمع كله معترف بجهنما .. معترف بأنهما زوجان .. ويظهران معا أمام الناس .. وتوجه إليهما الدعوات معا .. اعترافا بأنهما زوجان ..

وكانت ترفض الاقتناع بهذا الكلام .. وصديقتها ميرفت تصرخ فيها :

— هل تتصورين نفسك كأنت فتاة صغيرة عذراء تريد أن يكون زواجها كاملا من كل لوازمه .. بيت .. وجهاز .. ومهر .. وشبكة .. وحفل زفاف .. والعوالم ترفك .. مبروك عليك عريسك الخفة .. لا يا صديقتى .. إنك تتزوجين فى ظروف خاصة لا تحتمل كل هذه التقاليد .. إنك تتزوجين وأنت على حافة النهاية .. ولا تملكين إلا ما يستر وجودك وأنت على الحافة ..

وهى تعاند صديقتها .. ربما كان من غرورها بنفسها وثقتها فى ذكائها ما يجعلها تصر على أن يكون زواجها كاملا من كل جوانبه ..

ولكنها مع مرور كل هذا الزمن الطويل بدأت تلين .. وبدأت أمنية الزواج تسيطر عليها دون أن تستقر على رأى .. ولكنها قررت أن تقدم حبسها إلى ولديها .. وافقت معه ومع صديقتها ميرفت على أن يزوراها فى البيت .. وقالت لو لديهما إنها تريدهما أن يكونا جاهزين لتقديم لهما شخصية جديدة عليهما ..

وجاءت ميرفت وزوجها ومعهما مدحت الذى استطاع بسرعة أن يأسر الولدين بحديثه الجاد البسيط الذى يريح العقل ويحفظ بالابتسام بين الشفتين ..

وكانت الزيارة ولا أحد يريد إنهاؤها ، قد زالت الكلفة بين الجميع .. حتى أحسنت أنها تزوجته فعلا وأنها معه فى بيتها بعد الزواج .. وبعد أن خرجوا سألت ولديها فى لهفة :

— مارأيكما فى مدحت بيه ؟ ..

وقال هشام :

— لقد أعجبنى ..

وقالت :

— إنه متقدم للزواج ..

وصاح هشام :

— زواجك أنت يا ماما ؟ .. أنا موافق ..

وقالت :

— ولكنك لا تعرفه ..

وقال بسرعة :

— يكفى أنك تعرفينه وطبعاً موافقة ..

وقالت وهى تحاول أن تبتسم :
 — كيف أتزوج وأنا متزوجة منكما أنتما الاثنين ؟..
 وقال عصام بعقلية الجامعة الأمريكية :
 — إن زواجك يحل مشكلتك ومشكلتنا نحن الاثنين ..
 قالت وقد عادت إلى حيرتها :
 — ولكن كيف أعيش متزوجة ..
 وعاد عصام يقول بعقليته الأمريكية :
 — هذا ما تقررانه أنتما الاثنين .. وأنا وهشام موافقان مقدما على كل ما تقررانه ..

إن ولديها يتمنيان لها الزواج فعلا .. وقد جذبتهما وأعجبتهما شخصية حبيبها مدحت ..
 وقد قال لها مدحت إنه أبلغ ابنتيه أنه قرر الزواج .. وقال إنه اختار العروس وحديثهما عنها .. وقد فرحت ابنتاه كأنهما يتمنيان إنقاذه من وحدته ومن حرمانه .. وقد جعلتهما تحادثانها فى التليفون مرات كثيرة .. وهى تفرح بحديثهما وتبذل مجهودا فى أن تحادثتهما بشخصية الأم .. ثم بعد ذلك التقت بهما عند صديقتهما ميرفت .. إنهما ابنتان رائعتان .. مهذبتان .. جذابتان .. ولكنها بينهما وبين نفسها كانت تحس أنها لا تستطيع أن تعيش معهما .. إن أمومتها لا تتسع لهما .. ربما كانت تغار منهما على حبيبها .. أبوهما .. وهى لا تزال مترددة .. لا تستطيع أن تخرج من حيرتها .. ولا تستطيع أن تتخلص من حبها ومن أمنيتهما أن تزوج إلى أن اتصلت بها صديقتهما ميرفت ودعتها لزيارتها فى موعد محدد ..

ووجدت هناك مدحت كأنه فى انتظارها .. وقالت لها ميرفت فى صوت جاد :
 — هل أنت موافقة على الزواج من مدحت ؟..
 وقالت وهى تتنهد :
 — ياليتنى أستطيع !..
 ثم قالت لمدحت :
 — طبعاً أنت تمنى هذا الزواج ؟..
 وقال مدحت فى فرح كأنه يعلم شيئا :
 — طبعاً ..
 وقالت ميرفت كأنها ترغرد :
 — إذا لقد تزوجتما ..
 ثم فتحت الباب المؤدى إلى الغرفة الأخرى وهى تصيح :
 — اتفضل يا حضرة المأذون .. تعالين يا بنات ، تعال يا هشام وأنت يا عصام ..
 ودخل المأذون والأولاد والبنات .. ورفعت هى عينيها فى دهشة ثم ضحكت .. لقد دبروا وأعدوا كل شيء لتحقيق أمنيتهما .. واستسلمت .. وعقد القران ..
 وأحست كأنها عادت صغيرة رغم أنها اليوم فى السابعة والأربعين .. وأحس أنه استرد شبابه رغم أنه وصل إلى الحادية والخمسين ..
 إن كلا منهما لا يزال مستقرا فى بيته مع أولاده .. ويلتقيان لقاء الحب فى بيتتهما .. وولداها حريصان كلما جاء زوج أمهما ليتناول

معهما الغداء أو العشاء أن يتركا البيت لهما فترة طويلة .. ولكنهما قررا أن يتخذا شقة خاصة بهما هما الاثنين .. شقة الحب .. يلتقيان فيها كأنهما حبيبان لم يتزوجا بعد .. وإن كان قد أصبح من حق الأم أن تستأذن ولديها في أن تقضى الليل بعيدا عنهما .. وأصبح من حق الأب أن يستأذن الابنتين في أن يبيت خارج البيت كأنه مسافر لقضاء ليلة في الإسكندرية .. والبنتان والولدان يعلمون كل شيء .. والأب والأم يصارحانهما بكل شيء .. والمجتمع كله أصبح معترفا بهما كزوجين ..

وهما يعيشان على أمل واحد .. أن تتزوج البنتان .. ويتزوج الولدان .. وتنتقل بزوجهما إلى شقتها التي تحبها وتستكمل كل نواحي الزواج ..

لقد أصبَحَت رشيقة ..

لم تكن تحس أن شيئا تغير .. لا فيها ولا في الحياة كلها .. إنها منذ تزوجت وكل شيء يسير هادئا سعيدا كأن الحياة تسكب حولها قطرات العسل .. وتنتثر في طريقها زهرات الفل .. وقد تزوجت عن قصة حب لا تزال تعيش فيها يوما بعد يوم .. لقد كان زوجها محمود لا يصدق أنه يمكن أن يتزوجها .. وهو إلى اليوم وبعد كل هذه السنوات ينظر إليها وعينه منبهرتان كأنه لا يصدق أنه تزوجها فعلا .. ويمد يديه كثيرا ويتحسسها كأنه يريد أن يطمئن ويتأكد أنها أصبحت بجانيه .. وقد أنجبا ثلاثة .. ولدين وبنتا .. ولو كانت قد تركت نفسها لكانا قد أنجبا عشرة .. فهما لا يشبعان أبدا أحدهما من الآخر .. ولكنها تنبهت إلى أنه يكفيهما ثلاثة .. ولم تكتف بالاعتماد على حبوب منع الحمل .. إنها تضيق بهذه الحبوب ولا تستطيع أن تكون حريصة على عدم النسيان .. ثم إن مجرد تناول هذه الحبوب يعكر متعة إحساسها وهي في أحضان زوجها .. إنها تحس وهي تتناول الحبة كأنها مقبلة على إجراء عملية .. في حين أنها لم ترقد أبدا بجانب زوجها وهي تفكر في إجراء أى عملية ولكنهما بلا تعمد لا يكادان يتلامسان حتى يذوبا في الحب .. وقد يقتصر على لقاء الشفاه بالشفاه .. ولكنه دائما ينتهى الحب .. أما إذا تناولت الحبة فهي لا تكتفى بمنتهى الحب ولكنها تحس كأن المفروض عليها أن تقوم بالعملية حتى بلا حب .. ثم هناك ما هو أكثر .. إن هذه الحبوب تصد النفس .. وهي منذ تزوجت ومنذ استقر حبها ونفسها (م ١٣ — وتاهت ..)

مفتوحة للأكل .. أصبحت تحس أن الحياة كلها ليس فيها إلا متعتان ..
متعتها بالرجل الذى تعاشره وتستحلبه .. ومتعتها بالطبق الذى تعده
وتأكل مافيه .. وقد اشتهرت بنبوغها فى إعداد الأطباق .. واستطاعت
أن تعيد مجد المطبخ التركى الذى كان يعد أطباق السلاطين .. لقد
أصبحت أطباقها معروفة فى المجتمع كله .. طبق ورق العنب
بالكوارع .. وطبق الملوخية البوراني بالأرانب .. والشركسية ..
والشكشوكة .. وعيش السراى .. والفطير المشلت .. و .. و .. بل
إنها استطاعت أن تعد السمن البلدى داخل البيت بعد أن فقدت ثقتها فى
السمن الذى تشتريه من السوق .. وحتى لا تترك حبوب منع الحمل
تؤثر على شهيتها وتصد نفسها ذهبت إلى الطبيب وأجرت عملية بسيطة
أراحته من الحمل .. واحتفظت لها بشهيتها المفتوحة حتى آخرها ..
وصحيح أن صديقاتها بدأن يحذرنها من السمنة .. إن قوامها يزداد
اكتنازا يوما بعد يوم .. ولكن لعل صديقاتها يبالغن .. إنها تقف أمام
المرأة فتجد قوامها قد ازداد اكتنازا ولكنه لم يفقد رشاقته .. حتى إذا
كان قد تعدى الرشاقة فهو على الأقل لم يفقد جماله .. إن القوام لا يفقد
جماله إلا إذا تهدل .. وقوامها لم تهدل ولم يسقط بعضه على بعض ..
إنه لا يزال قواما مشدودا يشد بعضه بعضا محتفظا بجماله .. ولعلها
بدأت تعترف بأنها أصبحت فعلا سمينة عندما بدأت تحتاج إلى خمسة
أمتار من القماش لتفصيل ثوبها بعد أن كانت قبل الزواج لا تحتاج إلى
أكثر من ثلاثة أمتار ونصف .. ولكن ماذا يهم .. المهم هو الاحتفاظ
بالصحة .. إن ما يحتفظ للمرأة بأنوثتها وإغرائها ليس وزنها .. وهل هى
رفيعة أم سمينة .. بل إن كل إغراء المرأة وأنوثتها يعتمدان على سلامة

صحتها .. وهى والحمد لله فى صحة جيدة .. رائعة .. إنها لم تعكر
أبدا على مزاج زوجها بمرض يصيبها ويحرمه منها .. بل لم تصب أبدا
بزكام يبعد شفتيه عن شفتيها أو بكحة تنطلق منها وتلوث وجهه ..
واحتفاظها بصحتها هو الذى احتفظ لزوجها بكل متعته بها .. بل إنها
كلما سمنت ابتكر زوجها حركات جديدة فى إشباع متعته كأنه يلعب
فى ملعب من لحمها .. وهى تلعب معه وترداد متعتها هى الأخرى ..
ولم تهتم أبدا بازدياد وزنها .. حتى بعد أن أصبحت أعجوبة تلفت
النظر بسمتها .. وعلى كل حال فإن كل نساء العائلة يعشن مكافحات
للسمنة .. إن أختها اعتماد اضطرت أن تجرى عملية جراحية فى
صدرها حتى تشد ثديها بعد أن انهارتا حتى أصبحتا تلامسان بطنها ..
وإن أختها فوية وعائشة تعيشان محرومتين من الأكل خاضعتين لقواعد
« الرجيم » وتعذبان نفسيهما بالألعاب الرياضية ، وتمشيان على
أقدامهما كل يوم ساعات حتى تقاوما انطلاق رديهما إلى التهدل
والانبعاج لتصبح مؤخرة كل منهما كأنها هودج حمل تحمله على
ظهرها .. ولكنها هى لا تهتم بمقاومة السمنة .. بل إنها تعودت أن
ترهو بها .. فهى رغم هذه السمنة تحس كأنها أجمل أخواتها وأنوثتها
أشد إغراء من أنوثتهن .. يكفى جمال وجهها .. إنها منذ كانت صغيرة
والعائلة كلها تتغنى بجمال عينيها الواسعتين .. واكتناز شفتيها كأنهما
أعدتا للقبل .. وأنفها الرفيع المتعالى كأنه تحفة غالية تركها الله على
وجهها .. وخديها المشدودين اللذين يحملان بريق قمر الرابعة
عشرة .. وشعرها الطويل فى لون الليل الذى تنفتن فى عقصه وابتكار
ضفائره .. وكل هذا الجمال .. جمال وجهها .. يزداد جمالا مع

ازدياد سميتها مهما حدث لقوامها.. كأن كل الرجال يكتفون بالظم
ملهوفين إلى وجهها ولا يخطر لهم الاطلاع على قوامها ..
وكانت أحيانا تتعجب من حكمة الله في خلق أفراد العائلة .. إن كل
نساء العائلة بما فيهن أمها سمينات .. إما يعشن مقاومات للسمنة وإما
تنطلق أجسادهن ويحملن كل يوم مزيدا من اللحم والدهن كما يحدث
لها .. وذلك بعكس رجال العائلة بما فيهم أبوها .. كلهم لا يتعرضون
للسمنة .. ولكل منهم قوام رشيق لا يبدل أى مجهود للاحتفاظ
برشاقتها .. حتى زوجها محمود .. إنه فارغ القوام ليس رفيعا كعود
القصب ولكنه أيضا ليس سمينا كشجرة الجميز .. وهو لا يهتم أبدا بما
إذا كان سمينا أو رفيعا .. ولم يخطر على باله أبدا أن يزن نفسه في
الميزان .. ومعروف عنه أنه أكل .. بل إنه يفوقها في شهيته وبأكل
أضعاف ما تأكله .. إذا أكلت طبق شركسية أكل طبقين .. وحتى
لا تحتل أكثر من نصف فرخة بينما هو لا يترك من الفرخة كلها شيئا ..
بل إن طبيعته في الإقبال على الأكل كانت تفتح شهيتها أكثر .. بل قد
يدفعها إلى تحدى شهيتها فتأكل أكثر .. كانا دائما كأنهما يتنافسان
فيمن يتمتع بالأكل أكثر .. ولكنه لا يتغير أبدا منذ عرفته .. ولم يسمن
ولم ينتفخ ولم يتهدل قوامه .. إنه محتفظ دائما برشاقة قوامه دون أن
يبدل أى مجهود أو يطبق على نفسه أى شروط للاحتفاظ بهذه
الرشاقة .. وكانت تقول ضاحكة : إن ما يأكله لا يطبق أن يبقى في
أمعائه أو ينتشر لينام في لحمه ، ولكن كل ما يأكله يهرب منه ويتركه
كما دخله فلا يسمن به .. وتتسع ابتسامتها وهي تقول لنفسها إن كل
منهما يكمل الآخر .. فهي تحتفظ في جسدها بالأكل الذى يهرب من

جسده .. أى أنها ليست سمنة بما تأكله وحدها ولكن بما يأكلانه
معا ..

وكان قد مضى أكثر من عشر سنوات على زواجها عندما بدأت
تحس أن زوجها محمود يتغير .. إنه لم يعد يسرف في تحسها عندما
تكون في أحضانه كما تعود وعودها .. ولم يعد يلعب كثيرا فوق ملعب
جسدها .. بل تنقضى ليالي طويلة دون أن يمد يده ليلمسها .. وإذا
حاولت هي أن تلمسه استقبل لمستها في برود وقال نكتة تافهة ثم أدار
لها ظهره .. وأحيانا تمر بها ليلة يبدو فيها أنه تذكر مسئوليته فيقبل
عليها .. ولكنه لا يتحسها بهذا الانبهار الذى كان دائما يلزمه
ولا يلعب في ملعبها بهذا الفن الذى كانت تعتبره دائما متخصصا فيه ..
ولكنه يبدو كأنه يقوم بمهمة روتينية .. ويحرص على أصول اللعبة حتى
يدخل الجول في الملعب .. وقد أصبح الجول الذى يدخله عاديا كأنه
جول في ملعب ينفرد به فلا يثير انبهارا ولا تحس فيه بروعة اللعبة ..
وكانت تطرد هذه الأحاسيس بمحاولة إقناع نفسها بما تسمعه بأن
الحياة الزوجية لا يمكن أن تستمر طويلا كما بدأت .. والعلاقة بين
الزوج والزوجة تتطور بتطور السن .. لا يمكن أن تنتظر من زوجها اليوم
ما كانت تنتظره منه طوال السنوات الماضية .. ولتعترف أنها هي نفسها
تطورت وخفت تهافتها على زوجها عما كان عليه .. الحب لا يزال كما
هو .. إنها تحبه نفس الحب الذى جمعها وتزوجا به .. ولكن مطالب
الحب تطورت وأصبح لها أشكال جديدة وأسلوب جديد ورنه
جديدة .. إن كل مولود أنجبته أخذ من حبها له .. ولم يعد هو وحده
كل الحب .. وكلما كبر المولود أخذ أكثر .. ولعله أخذ من حبه لها

كما أخذ من حبها له .. لم يأخذ الحب نفسه ولكن من مطالب واحتياجات هذا الحب ..

ولكن زوجها محمود يتغير أكثر .. حتى شهيته للأطباق التي تقدمها له بدأت تخفت .. لم يعد فيها هذا الانبهار الذي يطلق شهيته حتى يأكل كأنه لن يشبع أبدا .. رغم أنها بذلت مجهودا حتى تصل إلى أطباق جديدة وألذ تقدمها له .. بل إنه بدأ يعتذر عن تناول الغداء في البيت بحجة أنه مدعو دعوة عمل .. لم يكن هذا يحدث من قبل .. وأكثر من ذلك .. لقد بدأ يغيب ليالي طويلة .. بحجة السفر إلى الإسكندرية لإنجاز عمل .. وحدث أن كانت الحجة هي السفر إلى الخارج .. وقد حدثها عن أعمال جديدة بدأ يتحمل مسئوليتها .. ولا تدري لماذا لا تستطيع أن تصدقه وتتغلب على إحساسها بأنه يخدعها .. يكذب عليها .. وقالت له مرة :

— لقد تغيرت ..

وقال وهو يرتب عليها كأنها طفلة لا تفهم شيئا وينحن يقبلها على خدها كأنه يعطيها قطعة من الحلوى تشغل بحلوائها :

— كل شيء يمكن أن يتغير إلا أنك زوجتي وأم أولادى .. أنت العمر كله ..

وكان الشيء الوحيد الذى لم يتغير هو حرصه على الاهتمام بمطالب البيت واحتياجات أولاده .. إنه مهما تغير لا يفرط فى مسئوليته كزوج وأب .. وهى بالنسبة له لم تعد سوى زوجة وأم .. إلى أن بدأت تسمع كلام الناس ..

لقد أصبحت له امرأة أخرى .. وقيل إنه تزوجها زواجا عرفيا .. لعله أراد أن يحتفظ لها هى وحدها بالزواج الشرعى .. شكرا ياسى محمود .. ولكنك لا تدري أنه أهون على أن أموت من أن أعرف أن لك امرأة أخرى سواء تزوجتها زواجا شرعيا أو عرفيا .. حتى لو كانت مجرد امرأة تتحسسها كما تتحسنى ..

وبدأت خواطرها تعذبها .. وأفكارها تعصف بها .. هل تصارحه بما عرفته وبما يتقول به الناس .. ولكنها لو صارحته فيجب أن تضعه موضع الخيار .. إما أن يترك الأخرى ويعود لها كما كان .. وإما أن يتركها هى .. يطلقها .. ولكنها لا تحتمل مجرد تصور الطلاق .. إنها لا تستطيع أن تتصور أنها تستطيع أن تعيش فى قالب غير القالب الذى تعيش فيه هى وأولادها .. وإذا كان من حقها أن يختار بينها وبين الأخرى ففيها لا تستطيع أن تختار .. ليس لها حياة أخرى إلا حياتها معه .. حتى لو كانت له امرأة أخرى ..

وكانت خواطرها تعصف بها فتقبل على الأكل أكثر .. إنها تشغل نفسها أكثر بالمطبخ كأنها تاجاً إليه لتهرب من خواطرها .. ثم تجلس لتأكل فتأكل أكثر دون أن تحس بما تأكله .. لا بطعمه ولا بلذته .. إنما فقط تحرك أسنانها كأنها تمزق خواطرها التى تعذبها .. وازداد وزنها أكثر .. سممت أكثر .. حتى كأن جسدها لم يعد يستطيع أن يشد جلده ويشد بعضه ببعضه فبدأ يبدو عليه جوانب مترهلة ..

وخطر لها خاطر تمكن منها .. إنها تريد أن ترى هذه المرأة الأخرى .. ماذا أعجب زوجها فيها .. كيف استطاعت أن تأخذه منها .. ولو أنها تركت لها جانب الشرعية فى الزواج لها وحدها .. تريد

أن تراها لتكتشف سرها وتحاربها فيه حتى تطمسها من حياة زوجها وتستردده خالصة لها كما كان ..

وسعى معها بعض الصديقات حتى استطاعت أن ترى هذه المرأة الأخرى .. رأيتها من بعيد .. لا يمكن أن تكون أجمل منها .. ليس لها جمال وجهها .. ولا عيناها المتسعان .. ولا شفتاها المكتنزتان .. ولا شعرها الطويل في لون الليل .. ولا وجنتها كشمس القمر .. ولا لونها الأسمر الفاتح الرقيق .. ولكنها رفيعة .. ليست سميكة متضخمة مثلها .. إنها لا تستطيع أن تنكر أن لها قواما رشيقا هذه الرشاقة التي تأخذ الناس وإن كانت هي لم تعترف بها أبدا في تقدير جمالها .. لعل زوجها انجذب إليها إلى حد الانهيار لأنها رشيقة .. رفيعة .. بعد أن شبع من اللعب فوق جسدها السمين حتى ضاق به .. إنهم يقولون إن الرجل ينجذب إلى القوام الرشيق حتى مع انخفاض نسبة جمال الوجه .. وقد بدأت تعترف بضعف جذبيها لزوجها والاحتفاظ به لأنها سميكة .. وكأنها تعذره .. بل كان قد مر بها خاطر أن يكون لها هي الأخرى رجل آخر كما أن لزوجها امرأة أخرى .. ويعيش كل منهما وله ما يغنيه عن الآخر من هذه الناحية .. ناحية الإشباع الجسدى .. ولكن .. أى رجل آخر يقبل على إشباع هذا الجسد السمين الذى أصبح مترهلا .. جسد لا يستطيع أن يجذب رجلا ويغريه إلى حد أن يصل به إلى الحب .. إنها قد لا تصلح إلا إلى رجل مأجور أو رجل يريد أن يلهو ويشهر بها ..

ماذا تفعل لتستمر بها الحياة بعيدا عن هذا الضيق الذى يكاد يكتم أنفاسها ..؟

ليس أمامها إلا أن تزيل سميتها .. أن تخس .. وتعود جذابة مغرية كما كانت في صباها ..

إن وزنها الآن خمسة وتسعون كيلو ويجب أن تخفضه إلى ستين كيلو فقط إذا أرادت أن تصل إلى مستوى الرشاقة .. أى يجب أن تطرد من على جسدها خمسة وثلاثين كيلو ..

هل تستطيع ؟

إنها مصممة ومصرة على المحاولة حتى ولو ماتت في سبيلها .. والتف حولها أختواتها وصديقاتها وكل منهن بمشروع ونصيحة .. وذهبت إلى طبيب مختص أعطاها دواء ليصد نفسها عن الأكل .. وطبيب آخر أعد لها علاجا طبيعيا .. وانضمت إلى معهد مخصص في التدريبات الرياضية .. وكانت تخرج من بيتها في الصباح الباكر لتسير على قدميها ليس أقل من ساعة .. ولكنها تعب .. وتكاد في كل ساعة أن يتغلب يأسها على أملها .. لقد ثبت أن أدوية صد النفس أضعف من مقاومة شهيتها .. وقد تمتنع عن الأكل يوما لا بفضل تأثير هذه الأدوية ولكن بفضل إصرارها على المقاومة .. مقاومة شهيتها .. ولكنها تضعف في اليوم التالي وتخدع نفسها بأنها لقمة واحدة .. وتستسلم إلى لقمتين .. وثلاثا وأربعا .. كما أنها لا تستطيع الاندماج في العلاج الطبيعى ومعاهد التجميل .. إنها تكاد تنام ملء جفניה كلما امتدت راقدة على ظهرها لتبدأ الحركات المفروضة عليها .. ثم إنها لم تعد تحتمل هذه الساعة التى تقضيها كل صباح سيرا على قدميها .. إنها تحس أنها تسير وعلى ظهرها حمل ثقيل يكاد يكتم أنفاسها .. وبدأت تستسلم لليأس ..

لأمل ..

إلى أن ضج المجتمع بوصول الدكتور صبرى طبيب التجميل .. لقد جاء من أمريكا بعد أن أتم دراسته هناك واشتهر هناك فعلا حتى وصلت شهرته إلى مصر قبل أن يصل إليها ..

وقد قام الدكتور صبرى بمعجزات يتحدث عنها كل الناس .. لقد غير وجه السيدة سميرة حتى جعلها ملكة جمال بعد أن كانت فى الدرجة الخامسة أو العاشرة بين الجميلات .. وعمليات شد الجلد يقوم بها كأنه يأمر الجلد بأن يشتد فيشتد .. وكل الفنانين والفنانات أصبحوا يعيشون داخل جلد الدكتور صبرى .. وعمليات تجميل الثدي جذبت كل النساء القادرات على دفع الثمن .. إنه لا يكتفى بتخسيس الثدي أو شد ترهله بل إنه يستطيع أيضا أن يبرز الثدي الصغير الذى يكاد يكون بلا كيان وكأن صاحبه ليس لها ثدى .. يستطيع أن يضع على صدرها قطعا من اللحم يبرز ثديها حتى يتغنى الناس بجسماله .. و .. و ..

يجب أن تذهب إلى الدكتور صبرى ..

وفحصها الدكتور صبرى طويلا بمعدات كثيرة جاءت معه من أمريكا ، ثم قال فى لهجة الأستاذ الكبير دون أن يخفف من كلماته رحمة بها :

— لأمل .. إن وزنك كله مركز فى طبقة من الشحم تحيط بجسدك كله من تحت جلدك .. وأى علاج طبيعى أو علاج بالأدوية المركبة لن يؤدى إلى نتيجة سريعة .. ربما فى أكثر من خمس سنوات يمكن أن نزيل من طبقة الشحم خمسة كيلو جرامات .. أى نقيين كما أنت .. والسيلة الوحيدة هى أن نزيل طبقة الشحم بعملية جراحية ..

وقالت بسرعة وهى مبهورة :

— موافقة على العملية الجراحية ..

وقال الطبيب فى هدوء :

— إنها عملية ليست عادية .. وهى ليست واحدة ، إنها عدة عمليات ..

وقالت كأنها تلح مستجدية :

— إبنى مستعدة ..

وقال وهو لا يزال فى هدوء الأستاذ :

— إبنى مضطر أن أطلب منك أن تكتنى لى ورقة بموافقتك ..

وقالت بسرعة :

— حاضر ..

وقفزت ناحية مكتبه تبحث عن قلم وورقة لتكتب له موافقتها على إجراء العملية ..

وقال مبتسما ابتسامة إشفاق :

— ليس اليوم .. سأراك بعد ثلاثة أيام تكونين خلالها قد داومت التفكير مع تصور خطورة العملية .. وأكون خلالها راجعت ما احتاجه من دراسات خاصة بهذه العملية ..

وعادت إلى البيت وقالت لزوجها وكأنها فرحة :

— سأجرى عملية ..

وقال فى دهشة :

— لماذا .. ليس بك شئ ؟

وقالت وهى تنظر إليه بكل عينيها كأنها تريد أن يحس بأنها تغامر

بنفسها من أجله :

— إنها عملية تخسيس ..

ونظر إليها ساخرا وقال ضاحكا :

— بعد هذا العمر !؟

وقالت وهي تلوى شفيتها غاضبة :

— إنى لازلت فى عز شبابهى .. أم أنك أصبحت تعتبرنى عجوزا ..

قال كأنه يعتذر :

— أقصد العمر الذى عشناه معا ..

قالت وهي تدارى خبيثها :

— أخشى أن تكون قد بدأت تفضلنى رفيعة ..

وقال فى لهجة باردة لا تعبر عن عاطفة :

— إنى أريدك كما أنت .. سميئة أو رفيعة ..

وقالت وهي تحاول أن تضحك :

— لقد قررت أن أجربك وأنا فى شكل جديد ..

ولم يرد بشيء ولم يعلق بشيء على إجراء هذه العملية .. لا يوافق

ولا يرفض ..

ولم تقل شيئا عن هذه العملية إلا زوجها وأخواتها البنات وأوصتهم

بالأ يذعن الخير ويحتفظن به سرا .. إن عمليات التجميل لا يعلن

عنها .. وكأن كل امرأة حريصة على أن تخفى أنها فى حاجة إلى عملية

جراحية لتكون جميلة .. وكثيرات من النساء يسافرن إلى أوروبا بحجة

متعة السياحة والشراء فى حين أنهن مسافرات لإجراء عمليات

التجميل .. ولا يكتشف الناس الحقيقة إلا بعد أن يعدن بأنفسهن جديد .

أو ثدى جديد .. أو جلد مشدود ..

وبدأ الدكتور صبرى فى إجراء العملية .. وقضت شهرا وبضعة أيام

وهى فى المستشفى .. إن عمليات التجميل تتطلب وقتا أطول من الوقت

الذى تتطلبه العمليات العادية .. ولم تكن عملية واحدة .. لقد أجرى

لها الدكتور صبرى العملية الأولى .. ثم بعد ثلاثة أيام أجرى لها عملية

ثانية .. ثم بعد أسبوع أجرى لها عملية ثالثة .. عمليات شملت كل

جسدها من أول صدرها حتى فخذيه .. ولكنها لم تشمل وجهها

وعنقها .. وكانت عمليات لإراحة طبقة الشحم من فوق لحمها ومن

تحت جلدها .. وقد عانت كثيرا .. عانت الآلام وعذاب كل قطعة من

جسدها حتى إنها عاشت الشهر الكامل وهي تحت تأثير مخدر لا تكاد

تفיק منه حتى تبدأ فى الصراخ وتلحقها الممرضات بحقنة أخرى من

المخدر ..

وانتهى كل شيء .. ورفع الطبيب الضمادات السميكة التى تلف

جسدها ووضع مكانها قطعاً من الشاش والبالستيك الخفيف .. ولكنه

لم يسمح لها بمغادرة الفراش .. وبدأت وهي راقدة تتحسس قوام

جسدها الجديد .. إنها تحس فعلاً أنها تعيش داخل جسد جديد لم يكن

لها أبداً .. إن ثدييها أصبحا صغيرين مشدودين كتديي ابنة الرابعة

عشرة .. ولكن ما هذا ؟ .. إن على كل جانب من جنبها وتحت

ذراعيها حفرة طويلة عميقة كأنها قناة مفتوحة .. ويسقط فيها جلدها

كأنه قطعة من القماش معلقة فوق شماعة .. وكل فلكة من فلكتي

المؤخرة فيها حفرة عميقة كأنها بئر .. وفى أكثر من مكان من جسدها

حفرات أو قطع بارزة .. إنه جسد مشوه ..

ودخل عليها الدكتور صبرى فقالت له كأنها تستغيث وعيناها فى هلع :

— يادكتور .. لقد أحسست أن فى جسدى ..

ولم يتركها الدكتور صبرى وتم وقاطعها فى لهجة آمرة :

— لا تقولى شيئا إلا بعد أن أسمع لك بترك فراشك ..

واختفى من أمامها .. وما كاد يخرج من الغرفة حتى دخلت وراءه السيدة لطيفة هانم .. وفغرت فاهها دهشة حتى كأنها تهتم بالصراخ .. إنها تعرفها .. إن لطيفة هى ابنة الباشوات القدامى التى احترفت تفصيل الفساتين وافتتحت محلا للأزياء أصبح أشهر وأعلى محل أزياء فى القاهرة .. وهى لم تذهب إليها فى المحل فلم تكن وهى سميكة تهتم بالأزياء التى تختارها إلى حد أن تذهب إلى لطيفة هانم ..

— إن الدكتور صبرى أوصانى بأن أعد لك ثوبا جميلا .. وحالا .. ولم ترد عليها إلا بالدهشة التى تملأ عينيها .. وتركها تكشف عنها غطاء السرير وتبدأ فى أخذ مقياس جسدها .. لاشك أنها لمحت التشوهات التى فى جسدها .. وستفضحها .. ولكن لعل الطبيب أوصاها بأن تحتفظ بأسرار العملية سرا .. وقالت للطيفة هانم بعد أن خفت دهشتها :

— والقماش ؟

وقالت لطيفة هانم بلا اهتمام :

— لقد أوصانى الدكتور صبرى باختياره .. وأنا واثقة أنك ستوافقين

على اختيارى ..

وبعد دقائق عادت لطيفة تقول :

— قد أعود إليك بالثوب غدا بعد الظهر ..

وقد عادت إليها تحمل الثوب الجديد ودخل معها الدكتور صبرى نفسه ومعه اثنتان من الممرضات .. وجلس الدكتور على مقعد كأنه فى انتظار إجراء تجربة ، بينما جذبتها الممرضتان من فوق السرير وبدأت لطيفة هانم تلبسها الثوب .. وألبستها أيضا حذاءها العالى الذى كانت قد جاءت به إلى المستشفى .. ثم أوقفته أمام مرآة طويلة .. ونظرت إلى نفسها فى ذهول .. إنها فعلا أصبحت رشيقة .. ليست رفيعة ولكنها رشيقة وحتى وجهها الذى لم تشمله العملية قد تخلص من انتفاخه ربما نتيجة الإعياء الطويل .. وعنقها أصبح رفيعا وكأنه طال .. إنها امرأة أخرى غير التى كانت يعرفها الناس وغير ما كانت تعرف نفسها .. وابتسمت فرحة .. إنها ستذهل الناس بقوامها الجديد .. ولن تقول أكثر من أنها اتبعت رجيمًا حتى خست .. وسألها الدكتور صبرى وعيناها ترقان كأنه يهين نفسه :

— مارأيك ؟ ..

وصاحت :

— هائل .. تسلم يداك يادكتور ..

واستمرت تبذل فى نفسها أمام المرآة بل إنها انطلقت حتى أخذت تحدث لطيفة هانم عن بعض التعديلات فى الثوب .. ثم فجأة سكنت واختفت ابتسامتها وغاصت فرحتها .. لقد تذكرت أن هذا القوام الذى تراه فى المرآة هو قوام مشوه من تحت الثوب .. وقال لها الدكتور صبرى مبتسما :

— لقد أردت أن ترى نفسك كما أردت أن تكونى .. رشيقة ..

وقال مقاطعا :

— لقد حققت لك ما أردت منى .. وكل ما فى جسدك لن يراه الناس .. لن يروا إلا رشاقتك ..

قالت وكأنها تهتم بالكاء :

— ولكنى أنا أرى جسدى .. ومن حق زوجى أن يراه ..

قال فى لهجة حادة :

— هذا ما تتحلمينه أنت وزوجك .. وكل مسئوليتى كانت أن أرفع لك مظهر السمينة وأوفر لك مظهر الرشاقة .. وربما تلاحظين أنى قمت لك بعملية شد جلد فوق ذراعيك بعد أن أزلت عنهما طبقة الشحم .. لأن ذراعيك يكملان مظهرك .. أما باقى جسدك فلم أستطع أن أصنع فيه شيئا .. إني فخور بهذه العملية .. إنها أجراً عملية قمت بها حتى اليوم .. وسأراك بعد عام على الأقل فربما أستطعت أن أجد حلاً لما تركته فيك العملية ..

وقام منصرفاً قائلاً دون أن يمد يده لهما مصافحاً :

— الحمد لله على السلامة .. ومبروك ..

ولطفة هانم قبلتها بحرارة وهى تكرر .. مبروك .. ألف مبروك .. والمرضتان تكادان تزغردان فرحة بنجاح العملية .. وظلت هى فى الثوب الجديد إلى أن جاء زوجها لزيارتها فى المستشفى كعادته .. وبهت وهو يراها واقفة أمامه .. إنها رشيقة .. إنها امرأة أخرى .. وهم أن يحتضنها فرحاً بها .. ولكنها ابتعدت عنه بسرعة صائحة :

— لا تلمسنى ..

وقدر زوجها أنها لا تزال فى المستشفى وحقت عنه فرحته بها المبلغ الضخم الذى دفعه للطبيب والمستشفى .. وكانت الفاتورة تضم ثمن الثوب الذى أمر به الطبيب وأتعاب لطيفة هانم .. ولكنها بعد أن خرجت وعادت إلى البيت أصبحت حريصة على ألا يرى زوجها أو أولادها جسدتها .. وتعتمد أن تبدل ثيابها فى الحمام بعد أن تغلق بابها عليها بالمفتاح .. وتعتمد أن تلبس ثوبين للثوم فوق بعضهما حتى تغطى القنوات والآبار التى تركتها العملية فوق جسدتها .. لم ير أحد هذه القنوات إلا أخواتها البنات .. وورثين لها بعد أن صدمن بهما رأين .. وقالت أختها وهى تقاوم ألا تبكى عليها :

— لا يبهلك .. إنك لا تظهرين أمام الناس عارية ..

وقالت وهى تبكى :

— وزوجى محمود ..

وقالت أختها وهى تدير عينيهما عنها :

— إنه لم يعد يستحق قطعة من جسدك ولا ظفر أصبعك ..

ولكن زوجها يحاول معها فى كل ليلة وهى تصيح مبتعدة عنه :

— لا تلمسنى .. لا أستطيع أن أحتمل مجرد لمسة ..

ولكنها تركته يقبلها .. إنها هى نفسها فى حاجة إلى هذه القبلات حتى تخفف من حرمانها .. ولكن زوجها انهار فوقها مرة .. واحتضنها كلها .. ومد أصابعه تحت ثوبها .. وبدأ يحاول .. ولكنه عاد وانهار بعيداً عنها وهو يقول :

— ما هذا .. إني أخاف أن أقرب منك .. هل قمت بعملية تجميل أم ..

عملية تشويه ؟ ..

ولم يعد من يومها يحاول أن يقترب منها أو يلمسها .. بل ضاع انبهاره برشاقته الجديدة وأصبح ينظر إليها كأنه قرفان منها .. وعاد إلى أسوأ مما كان .. منطلقا بعيدا عنها .. وطبعا مع المرأة الأخرى .. ولكنه لا يطلقها ..

وقررت أن تستغل مظهرها الجديد .. مظهر المرأة الحلوة الرشيقة .. وبدأت تتردد على المجتمعات وتغيب زوجها بالتردد على سهرات الليل .. وقد أصبحت زبونة دائمة لمحلات أزياء لطيفة هانم .. إنها الوحيدة التي تعرف أسرار جسدها وتحفظ بها فعلا كسر لا يعرفه أحد ..

وقد لاقت نجاحا في المجتمع .. كل الناس يرونها كمرأة جديدة لم يعرفوها من قبل .. امرأة لها كل هذا الجمال وكل هذه الرشاقة .. والثقت هذه المرأة الجديدة بأول رجل آخر يدخل حياتها .. أدهم .. إنهما بطيان في أحاديث التليفون .. وفي لقاءاتهما بالمجتمعات العامة .. وهو يريد .. وهي قد بلغ بها العجز أمام زوجها إلى أنها أصبحت تريده هي الأخرى ، تريده وتمناه .. ولكن ماذا تستطيع أن تعطيه .. لم يعد لها جسد تعطيه .. لم يبق لها من هذا الجسد ما تستطيع أن تعطيه إلا شفتاها .. وقد أعطته شفتيها وهي حريصة ألا تترك له الفرصة ليتحسس باقي جسدها .. وعذرها الذي تواجه به دائما معها .. إنها لا تستطيع أن تعطى أكثر لأنها امرأة شريفة .. إلى أن وصل إلى أن أصبح يطلبها للزواج .. ولكنها تجد أيضا العذر الذي تواجه به .. إنها لا تستطيع أن تترك زوجها لأنها أم لا تقبل أن تصحى بأولادها ..

وأحيانا يشتد بها الندم على إجراء هذه العملية حتى تبكي بدموع طفلة ساذجة مغرورة .. واشتد بها الندم بعد أن مر عام وعادت إلى الدكتور صبرى وأبلغها أنه لم يجد حلا لعلاج تشوهات جسدها .. ستبقى هكذا العمر كله .. إنها لو كانت قد احتفظت بسمنها لكالت تعطى زوجها أكثر مما تعطيه الآن .. أو ربما كان أدهم قد أحبها وهي سمينية كما أحبها وهي رشيقة .. إنها كما قال زوجها لم تقم بعملية تحميل بل بعملية تشويه .. قامت بعملية كتبت عليها الحرمان العمر كله .. ربما أراد الله أن يعاقبها ويعذبها لأنها تحدث إرادته .

فهرس

صفحة

٣	 لا أب ولا أم
٢٤	 إلى أن أصبحت تعيش الخوف
٤٢	 لا إله إلا الله
٥٣	 كانت غشاشة
٧١	 من أطلق هذه الرصاصة ؟
٨٦	 كانت تزور قبر حياتها
١٠٤	 وتاهت بعد العمر الطويل
١٢٠	 إنني سعيدة فقد أكلوا الحمى
١٣٣	 مهندس ميكانيكى
١٤٩	 كلهم يدخلون .. وكلهم يخرجون
١٧٦	 هكذا تزوجها
١٩٣	 لقد أصبحت رشيقة

رقم الإيداع ١٨١٣ — ٨٥

الترقيم الدولى ٤ — ٠١٣٧ — ١١ — ٩٧٧